

اللسانة الاجتماعية

LA SOCIOLINGUISTIQUE
SOCIAL-LINGUISTICS

عربه د. خليل أحمد خليل



جوليت غارمادي

اللسانة الاجتماعية

LA SOCIOLINGUISTIQUE
SOCIAL-LINGUISTICS

عزبة د. خليل أحمد خليل

أستاذ اجتماعيات المعرفة / الجامعة اللبنانية

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

حقوق الطبع محفوظة لدار الطليعة

بيروت - ص ب ١١١٨١٣

تلفون : ٣٠٩٤٧٠

٣١٤٦٥٩

الطبعة الاولى

تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٩٠

محتويات الكتاب

الرموز الصوتية ١٢

الفصل الأول: اللسان، العلوم الاجتماعية واللسان الاجتماعية

١/I - ميراث سوسير ١٥

٢/I - اللسان، الفيزيولوجيا وعلم النفس ١٦

٣/I - اللسان، التاريخ والمجتمع ١٧

٤/I - العلوم الاجتماعية واللسان ١٨

٥/I - اللسان، اللسان الاجتماعية واجتماعيات اللغة ٢٢

٦/I - تلازم الناظر والمنظور إليه ٢٥

الفصل الثاني : المتحدات والتباين اللساني

روابط اللغة والجماعة

١/II - الوحدة، الاستقلالية والحيوية بين اللغة والجماعة ٢٧

٢/II - المتحد اللساني والجسم السياسي ٢٩

٣/II - مواقف لسانية ٣٠

التباين اللساني

٤/II - التباين ضمن الالسن وبينها ٣٢

٥/II - التلونات الجغرافية والتلونات الاجتماعية ٣٣

٦/II - التصنعات الوظيفية والأحكام القيميّة ٣٤

٧/II - تباين التصنعات الوظيفية ٣٥

- ٢٧ ٨/II - التلونات والمنظومة: المتغيرات الحرة
- ٢٩ ٩/II - التلونات والمردود الوظيفي للأضداد
- ٤١ ١٠/II - التلونات وتجديد تنظيم المنظومة جزئياً
- تفاعل لساني أم تفاعل اجتماعي؟
- ٤٢ ١١/II - تعريف المتحد اللساني
- ٤٣ ١٢/II - مثال المتحد اللساني الفرنسي
- ٤٨ ١٣/II - المتحد الخطابي: المدار اللساني

الفصل الثالث: المواقف اللغوية الأحادية

- اللغة الأحادية والمجتمعات «البسيطة»
- ٥١ ١/III - البساطة: فرضية وواقع
- ٥٢ ٢/III - اللغات الخاصة
- ٥٦ ٣/III - تقلب المواقف اللغوية الأحادية
- المجتمعات المركبة والتلونات اللغوية
- ٥٧ ٤/III - الموقف اللغوي الأحادي والمجتمعات المركبة
- ٥٨ ٥/III - تشكل اللغة المسماة مشتركة (عامة)
- ٦٠ ٦/III - القوينة (الترميز)
- ٦٢ ٧/III - التعبير (التطبيع)
- ٦٥ ٨/III - اللون الشعبي
- ٩/III - اللهجات الإقليمية (Alloctes)
- ٦٧ واللهجات المحلية (Vernaculaires)
- ٧١ ١٠/III - التلونات الطفيلية: العامية (L'Argot)
- ٧٣ ١١/III - التلونات الطفيلية: المصطلحات التقنية والعلمية
- المعايير (الأعراف)
- ٧٤ ١٢/III - المعيار وما فوق المعيار
- ٧٧ ١٣/III - المعيار الفاعل والمعيار المنفعل

٧٩	١٤ / III	اكتساب المعيار الفوقي
٨٠	١٥ / III	المعيار والمعيار الفوقي والتلون اللغوي
المواقف والتلونات اللسانية			
٨٤	١٦ / III	المواقف (المواضع) والسجلات
٨٥	١٧ / III	التفعيل والسياق اللساني
٨٦	١٨ / III	الإبلاغ ضمن الموقف (الموضع)
٨٧	١٩ / III	قواعد الإبلاغ (الاتصال) الشفهي
٨٩	٢٠ / III	الإبلاغ خارج الموقف والتلون المطبوع (المُعَيَّر)
٩١	٢١ / III	المنظومة الشفوية للفرنسية المتداولة
٩٢	٢٢ / III	العُرف الكتابي والتلونات اللسانية
٩٣	٢٣ / III	الإبلاغ الشفهي خارج الموضع
٩٤	٢٤ / III	صوارة الإبلاغ الشفهي خارج الموضع
٩٦	٢٥ / III	التناظر المعياري والتصويب اللغوي الفوقي
٩٨	٢٦ / III	الميادين
٩٩	٢٧ / III	الميادين والسجلات
١٠٠	٢٨ / III	الكفاية الإبلاغية
١٠١	٢٩ / III	تصنيف السجلات
١٠٣	٣٠ / III	السجلات والتلونات
١٠٤	٣١ / III	السجلات المركبة
١٠٦	٣٢ / III	الوظائف الثانوية للغة
١٠٨	٣٣ / III	السجلات والتباين بين اللغات
١٠٨	٣٤ / III	إعداد الرسالة والمقومات الموقفية
١١٠	٣٥ / III	الرواميز العليا (Surcodes)
١١١	٣٦ / III	الترميز الأسلوبى الفوقي والتباين اللغوي

الفصل الرابع : المواقف اللغوية المتعددة

التعددية اللغوية والمجتمعات البسيطة،

- ١١٥ /IV - الثنائية اللغوية، التعددية اللغوية، الاحتكاكات اللغوية
- ١١٦ /IV - اتصال اللغات والمجتمعات البسيطة
- ١١٧ /IV - مثال فوبيس (Vaupès) : موقف عام
- ١١٨ /IV - القبيلة، الوحدة الزوجية الخارجية، الجماعة اللسانية
- ١١٩ /IV - اللغات المتواصلة واكتسابها
- ١٢١ /IV - التصنّع الوظيفي في اللغات المتواصلة
- ١٢٢ /IV - سمات التعددية اللغوية الهندية
- ١٢٥ /IV - مسائل نظرية
- ١٢٦ /IV - الفصل الوظيفي بين اللغات
- لغة واحدة أم لغتان ؟
- ١٢٨ /IV - المسافة بين اللغات
- ١٣١ /IV - المقومات البنوية
- ١٣٢ /IV - التعددية اللغوية وتقارب المنظومات
- ١٣٤ /IV - التقارب والكلمات (morphèmes)
- ١٣٥ /IV - الوظيفة الاجتماعية للكلمات (monèmes) الصرفية
- ١٣٦ /IV - العوامل البنائية وغير البنائية
- التعددية اللغوية والمجتمعات المركبة
- ١٣٨ /IV - الدولة واستقرار تعددية لغوية
- ١٣٩ /IV - المركزية واللهجات المحلية
- الموقف الفرنسي
- ١٤١ /IV - اللهجات المحلية، المدينة والزيف
- ١٤٢ /IV - نحو تبدل اللغات
- ١٤٦ /IV - استمرار اللهجات المحلية

١٤٨	٢١/IV - الاستعدادات اللغوية
١٥٠	٢٢/IV - الدينامية المعاصرة للهجات المحلية في فرنسا
	الثنائية اللغوية ، الازدواج اللغوي والتواصل الخطابي
١٥٢	٢٣/IV - الازدواج اللغوي
١٥٣	٢٤ /IV - لوانان في مقام اجتماعي مختلف
١٥٤	٢٥/IV - لوانان في منظومة واحدة
١٥٦	٢٦/IV - دينامية المواضيع اللغوية الازدواجية
١٥٨	٢٧/IV - الازدواج اللغوي : معايير اللسانية والاجتماعية
١٥٩	٢٨/IV - الثنائية اللغوية والازدواج اللغوي
١٦١	٢٩/IV - التواصل الخطابي : الوضع الجامعي
١٦٣	٣٠/IV - التواصل الخطابي : الأوضاع العربية
١٦٤	٣١/IV - التواصل الخطابي : الأوضاع الفرنسية
	التداخل اللغوي
١٦٧	٣٢/IV - اتصال اللغات وتداخلها
١٦٨	٣٣/IV - التداخل المعجمي
١٦٩	٣٤/IV - الاقتراض المعجمي
١٧١	٣٥/IV - تدامج دال المقترضات
١٧٣	٣٦/IV - تدامج مدلول المقترضات
١٧٥	٣٧/IV - التداخل الصوتي
١٧٨	٣٨/IV - التداخل النحوي
	اللغات المزيج واللغات المولدة
١٨٢	٣٩/IV - مثال لغة مزيج : الطاي بوا (Le t'ay b'oi)
١٨٥	٤٠/IV - صوارة الطاي بوا وعلم اصواتها
١٨٥	٤١/IV - معجم الطاي بوا ونحوها
١٨٧	٤٢/IV - العدوى

- ١٨٨.....IV/٤٣ - الخفض ، التبسيط ، الإفقار
- ١٨٩.....IV/٤٤ - حقائق اللغات المزيج والأحكام القيمة
- ١٩٠.....IV/٤٥ - تعدد انساب اللغات المزيج والمولدة
- ١٩٢.....IV/٤٦ - وحدة النسب (الأهل)
- ١٩٥.....IV/٤٧ - تجديد البناء المعجمي
- ١٩٧.....IV/٤٨ - تجديد البناء النحوي
- ٢٠٠.....IV/٤٩ - اللغات المزيج والمولدة ، اليوم
- ٢٠١.....IV/٥٠ - الملاييزية الجديدة
- ٢٠٢.....IV/٥١ - نمو الملاييزية الجديدة : ترسيمة قديمة
- ٢٠٤.....IV/٥٢ - الملاييزية الجديدة في تصنعاتها الوظيفية
- ٢٠٦.....IV/٥٢ - أهمية الأبحاث حول اللغات المزيج والمولدة

الفصل الخامس - السياسات والتخطيطات اللسانية

- ٢٠٩.....V/١ - في تعدد التعريفات
- ٢١٠.....V/٢ - الممارسة القديمة : المثال الفرنسي
- التخطيطات اللسانية الأولى
- ٢١٢.....V/٣ - مسائل أوروبية
- ٢١٣.....V/٤ - في النرويج
- ٢١٤.....V/٥ - في استونيا
- ٢١٤.....V/٦ - فنلندا والسويدية
- ٢١٥.....V/٧ - العبرية الاسرائيلية
- ٢١٦.....V/٨ - اللغة والقومية التركيتان
- التخطيط اللساني ، الاستعمار وتصفية الاستعمار
- ٢١٧.....V/٩ - مسائل اميركية - لاتينية
- ٢١٩.....V/١٠ - في الباراغواي
- ٢١٩.....V/١١ - في البيرو

- ٢٢٠..... ١٢/٧ - اللغات والاستيطانات
- ٢٢٢..... ١٣/٧ - اللغات ، تصفية الاستعمار واللسانة
- ٢٢٣..... ١٤/٧ - التجربة العربية
- ٢٢٧..... ١٥/٧ - تخطيطات اللغة الماليزية
- ٢٢٩..... ١٦/٧ - من التجارب الإفريقية
- التخطيط اللساني : تفاعل عدّة عوامل**
- ٢٣١..... ١٧/٧ - التخطيط اللساني والمفومات الاقتصادية
- ٢٣٢..... ١٨/٧ - التخطيط اللساني والمفومات الفكرية
- ٢٣٣..... ١٩/٧ - المثال الفيليبيني
- ٢٣٤..... ٢٠/٧ - الفكرية والتخطيط اللساني في الاتحاد السوفياتي
- الابحاث والنظرية اليوم**
- ٢٣٧..... ٢١/٧ - ثوابت التجارب الماضية
- ٢٣٨..... ٢٢/٧ - التوقع والمراقبة
- ٢٣٩..... ٢٣/٧ - المعيار ، المعيار الفوقي ، وصف أموصفة

الرموز الصوتية

إن الكتابات الصوتية والصوتية العلمية تستعمل هنا الرموز التالية :

صوائت شفوية :

بالفرنسية	Si	مثل	i
بالفرنسية	thé	مثل	e
بالفرنسية	mettre	مثل	ɛ
بالفرنسية	pâte	مثل	a
بالفرنسية	lune	مثل	y
بالفرنسية	feu	مثل	ø
بالفرنسية	œuf	مثل	œ
بالفرنسية	« الخرساء »	مثل	ə
بالفرنسية	tout	مثل	u
بالفرنسية	beau	مثل	o
بالفرنسية	forte	مثل	ɔ

صوائت أنفية :

lin	مثل	ẽ
bon	مثل	õ
banc	مثل	ã

أما الرموز \w , y , ε فتفيد الصوائت ذات النطق الموازي لـ u .

o, ɔ, ɔ̃ ، ولكنها صوائت مطبوعة بالتقلمص الشفهي .
ويُشار إلى الامتداد الصوتي بـ : ô, ô, â .
أما الرمز w/o فيلاحظ تحققاً صوتياً إذا فتحة وسيطة بين فتحة
الصائتين u و o .

شبه صوائت

يشير ا و w إلى اشباه الصوائت العاقبة لـ ا و u ؛ و v شبه
صائت شفهي يخرج من بين الاسنان .

الصوائت

بالفرنسية	poule, pas	مثل	p
بالفرنسية	boue, bas	مثل	b
بالفرنسية	mou, mie	مثل	m
باليابانية ؛ تحقق /P/ في اللون الشعبي بالتوسكانية ؛ ملفوظ بالشفقتين احتكاكي ، أصم .	huzi في h	مثل	ϕ
بالفرنسية	fou, fils	مثل	f
بالفرنسية	vous, vie	مثل	v
بالانكليزية ، ملفوظ بين الاسنان أصم .	thing	مثل	θ
بالانكليزية ، ملفوظ بين الاسنان ، رنان .	this	مثل	ð
بالفرنسية	tout, ta	مثل	t
بالفرنسية	doux, dit	مثل	d
بالفرنسية	nous, ni	مثل	n
بالفرنسية ، niko بالاسبانية	rogne	مثل	ŋ
بالانكليزية	sing	مثل	ŋ

بالاسبانية : gli بالايطالية .	llano	مثل	λ
بالفرنسية، منموجة، سنخية (رثوية).	« ملتوية »	مثل	ɾ
بالفرنسية .	sous, scie	مثل	s
بالفرنسية	zèle	مثل	z
بالفرنسية	chat, chou	مثل	ʃ
بالفرنسية	jeu, jour	مثل	ʒ
بالفرنسية	qui, cas, cou	مثل	k
بالفرنسية	gui, gars, goût	مثل	g
	مثل خ بالعربية ، saxar /بالروسية .		x
	« الملثوقة » بالفرنسية ؛ غ بالعربية .		ʁ
	تحقق احتكاكي من الخلف لـ // الفرنسية .		ʁ
	ح بالعربية ، ملفوظ من البلعوم ؛ اسم .		ç
	ع بالعربية ، ملفوظ من البلعوم ؛ رثان .		ç
	ه بالعربية ، زردمي رثان ، احتكاكي .		h
	ء بالعربية ، ساند ، زردمي .		ʔ
	ق بالعربية ، زردمي ، لهوي .		q

إن النقطة الموضوعية تحت الصوامت (i, ɾ, ʃ, ...). تشير إلى
تفخيم الصوامت .

الفصل الأول

اللّسانة، العلوم الاجتماعية واللسانة الاجتماعية

I / ١ - ميراث سوسير

في البدء كان سوسير (Saussure) ... إلا أنّ أعمال هذا الباحث الجنيقي، التي ستتأسس أعمال اللسانة العلمية الى حد كبير، لن يكون لها، نسبياً، سوى اصداء قليلة في ما سيكون عليه الفكر اللساني - الاجتماعي لاحقاً. فهي لن تخدم، حتى في أوروبا الغربية، كنقطة انطلاق حقيقية ووحيدة للأبحاث اللسانية - الاجتماعية.

في الحقيقة، لم يكن شاغل سوسير الأول إرساء الأسس الكافية لدرس العلاقات بين اللغات والمجتمعات، وإنما كان هاجمه بالأولى تحديد موضوع وإيجاد طرائق اللسانة ذاتها. إن اللغة منظومة لا تعرف سوى نظامها الخاص بها (Cours، ص ٤٢)^(١)، وإن واحدة من مهمات اللسانة الأولى هي أنّ تحدّد ذاتها وإن تُعرّف نفسها، كما يعلن سوسير. وعلى هذا النحو، كان يشترط في المقام الأول توفر الاستقلالية الأعظم لعلم جديد في حينه، وكان يتعين عليه

(١) عناوين المراجع واردة هنا في صورة مختصرة، ومنتجة في النص؛ أما العنوان الكامل فهو وارد في لائحة المراجع (Bibliographie).

أن يفرض ذاته بتحديد موقعه بكل وضوح في مواجهة علوم أخرى (فيزيولوجيا ، علم نفس ، منطق ، فلسفة ، علم اجتماع ، تاريخ ...) جرت العادة منذ أمد بعيد على إلحاقها كلها أو بعضها بدراسة اللغات.

٢/١ - اللسان، الفيزيولوجيا وعلم النفس

كان رأي سوسير واضحاً في العلاقات بين اللسان والفيزيولوجيا . ففي نظره ، يُعتبر جوهر اللغة غريباً عن الطابع الصوتي . كما أن الأعضاء الصوتية تعتبر خارجية بالنسبة الى منظومة اللغة ، بقدر ما تعتبر الأجهزة الكهربائية التي تستخدم في نسخ أبجدية مورس (MORSE) غريبةً عن هذه الأبجدية . امام اقتناع كهذا ، ساد في ما بعد تردد طويل في إعادة النظر في جمود أعضاء التصويت ولا تناسقها ، بوصفها عوامل اشتراط لا يمكن تجاهلها في الديناميكية التماثلية وفي تطور المنظومات الصوتية العلمية (الفونولوجية) .

كان سوسير ، في معرض استفهامه عن العلاقات بين اللسان وعلم النفس ، يتساءل عما إذا كان في إمكان اللغة أن تفيد في إبراز النمط الذهني وتمييزه ، وعما إذا كانت اللغة تعكس الطابع الميسيكولوجي للجماعة أو للامة التي تتكلمها . إن رده الأوضح يقع في نطاق الصواتة التعاقبية : ليس لطابع الجماعة اللغوية النفسي سوى أهمية ضئيلة بأزاء الغاء صائت أو تعديل نبرة . ولكن النظرية السوسيرية ، من جهة ثانية وبكيفية عامة ، لا تقوم على أساس قطعية مع علم النفس الماثور (الكلاسيكي) . ومثال ذلك ، وكما يلتفتنا جورج مونان (Georges Mounin, Problèmes, p.23) أن الصيغة السوسيرية القائلة إن الإشارة (العلامة) اللسانية لا تجمع شيئاً وإسماً ، بل تجمع تصوراً وصورة سمعية ، إنما تفترض الرابطة التي

يمكنها أن تجمع بين التصورات والأشياء ، كمعطى من معطيات علم النفس . إن التحليل السوسيري لمفهوم المعنى يظل قائماً على علم نفس العصر ، ولا يتساءل عن الطبيعة الشمولية للمفاهيم ، بوصفها انعكاساً لاختبار بشري شامل .

I/3- اللسانة، التاريخ والمجتمع

يقرّر سوسير أنّ اللغة منظومة علامات أودعها مراس الكلام في الجمهور المتكلم ، وأنّ المنظومة ناتجة عن تبلور اجتماعي ، وأن الطبيعة الاجتماعية هي طابع داخلي للمنظومة ، وأنه لا توجد حقيقة لسانية خارج الديمومة والجمهور المتكلم ، وأن الزمن وحده يأذن للقوى الاجتماعية بممارسة تأثيراتها على اللغة ، الخ . بعدما لحكم الربط ، داخل الديمومة ، بين المنظومة اللسانية والواقع الاجتماعي والجمهور المتكلم ، اكتفى سوسير بالتوقف عند استخلاص الحد الأدنى من نتائج هذا الربط . فإذا كان يتعين النظر في تشكيلة عوامل التبدل ، لكي نعظم إلى حد تكون ضرورية - كما كتب سوسير - فمن الأفضل التخلي ، مؤقتاً ، عن تقديم جرادة دقيقة بأسباب قابلية التبدل . ففي نظر سوسير ، أن يكون التبدل اللساني مجرد تغير ، وأن يكون التاريخ ديمومةً وحسب ، وأن ينحصر تكلف الوقائع الاجتماعية في جمهور متكلم تجتازه قوتان متعاكستان (« روحية مسقط الرأس ، التي تؤدي فعلاً تحليلياً ، و « قوة حق التبادل ، التي تشكل المبدأ التوحيدي) ، فإن هذا كله لا يميّزه تمييزاً جذرياً من أسلافه ومن الكثيرين من معاصريه . فهؤلاء الآخرون يدافعون عن نظريات اجتماعية إجماعية ولا يزالون يحلمون باستقرار اللغة استقراراً نسبياً على الأقل .

ومذ ذاك ، كان يتعين على اللسانة الداخلية (Linguistique interne) أن تعمل على تنظيم وقائع المنظومة وحدها ، في نطاق

تساوق دقيق ، باعتبار ان اللغات هي ماهيات او كيانات مترافعة .
 مؤتلفة ، وان لم تكن مستقلة ، فهي على الاقل مستقلة على قدر
 الإمكان . وربما يكون في إمكان لسانة الكلام (La linguistique de la
 parole) وهي اللسانة الخارجية ، اللسانة الاسترجاعية (La ling-
 uistique rétrospective) والجغرافيا اللسانية (La géographie
 linguistique) ، الخ . ان تحاول تنظيم الباقي ، دون ان يكون ثمة
 موضوع دراسي أولوي حقاً ، ومما لا شك فيه أنه غالباً ما تُنوسى في
 ما بعد الطابع الذي كان سوسير ، رغم ظرفيته ، قد منحه لتخليه ؛
 ومع ذلك لا يرقى الشك إلى أن دقة فرضيات العمل الأولى كانت
 ضرورية ، فهي ان لم توصل إلى الخلاص ، فقد أوصلت إلى بعض
 الحقيقة . هذا بالتأكيد هو العكس المترتب على الدراسات
 التساوقية المفهومة على هذا النحو ، والذي أتاح للسانة المعاصرة
 أن تتخذ لها ، وفي أسرع وقت ، اسساً علمية حقيقية . يبقى
 صحيحاً أن المستلزمات السوسيرية كانت تحمل في ذاتها جزءاً من
 موقف التحدي الأولي الذي تمكّن اللسانيون ، في ما بعد ، من تعهده
 في مواجهة العلوم الاجتماعية .

I / ٤ - العلوم الاجتماعية واللسانة

سبق للسانة ان حددت بوضوح موضوعها ومناهجها الخاصة
 بها ، وكانت على هذا النحو قد صارت العلم الرائد الذي كانت تُقترض
 منه المناهج والنتائج ، بينما كانت العلوم الاجتماعية لا تزال تبحث
 عن الحدود والتكاملات والتراتبات في ما بينها . وعليه ، فإن موقف
 التحدي الأولي الذي كان اللسانيون يتعهدونه أحياناً ، تجاه العلوم
 الاجتماعية ، لا يعود كلياً ، بلا ريب ، إلى المستلزمات السوسيرية
 وحدها .

ففي القارتين الأوروبية والأميركية اللاتينية ، كان علم

الاجتماع قد ظل الى امدٍ طويل ، في نظر الكثيرين ، نوعاً من فلسفة اجتماعية حيث لم تكن المعارف العينية ، المعارف التي يقدمها الاختبار، تستخدم البتة إلا لإسناد تأمل محض نظري في مبادئ الحياة ذاتها في المجتمع . وكان القيمون على علم الاجتماع هذا ، يكفون الجغرافيا البشرية ، والتاريخ أو الفلسفة ، بمهمة التوليف بين أبحاثهم . وبعد ذلك ، أريد بالعكس ان يُجعل من علم الاجتماع قمةً لهرم العلوم الاجتماعية المتحررة قدر الإمكان من الهيمنة الفلسفية . كان علم الاجتماع يُصور كأنه التوليفُ الممكنُ لدراسات موضوعية ، اختبارية ، أجريت حول المجتمعات المكثفة المعاصرة أو حول المجتمعات الموسومة بالبدائية - وعليه ، كان يتعين على الاثنوغرافيا و الاثنولوجيا ان تصيرا من فروع علم الاجتماع ، إلا أن كلود ليفي - ستروس كان قد استخلص في نهاية السنوات ١٩٥٠ ، وبالتالي بعد نوركيم بأمدٍ طويل ، أن الامر لم يصل بعد إلى هذا الحد ، وأن علم الاجتماع لم يكن قد جرى تصوره بعد ، في أي مكان ، كنتويج لعلوم الاجتماع .

يبدو أن التوافق قد وقع سريعاً بين شطري الأطلسي على الاثنوغرافيا . وكانت المناهج الخاصة بالاثنوغرافي قوامها : العمل الميداني ، لحظ الظواهر الخاصة بالجماعات الصغيرة ، تحليل الظواهر الملحوظة وتنظيمها لوضع الوثائق الوصفية . وبعد ذلك ، قام الباحثون الانكلوسكسونيون بتطبيقها على المجتمعات المكثفة ، جاعلين من علم الاجتماع ، على هذا النحو ، فرعاً من الاثنوغرافيا ، حتى وإن كان في استطاع النتيجة ان تفقد ، بسبب من ذلك على صعيد الدقة والوضوح ، ما كان موضوع البحث يكسبه على مستوى الكثافة .

وكان المقصود بالنسبة إلى الاثنولوجيا مقارنة الوثائق التي تقدمها الاثنوغرافيا حتى تُستخلص منها نماذج ، ثم كانت

الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية تتولى إجراء التوليفات الأخيرة . وكان مصطلحا اثنوغرافيا و اثنولوجيا يُعمران إلى جانب مصطلح انثروبولوجيا ، وذلك بقدر ما كان البعض لا يزال يعتبر بمثابة ثلاثة أنماط بحثية مختلفة ما يُعتبر اليوم ، عموماً ، بمثابة ثلاث فترات من بحث واحد .

إن اللسانيّة الإثنية (Ethnolinguistique) الأميركيّة ولدت من حاجة الاثنوغرافيين والاثنولوجيين إلى ممارسة لغات الشعوب التي كانوا يرصدونها . عندئذٍ ، أكثر الباحثون من الدراسات الفاريدة (Monographies) ، أولاً حول اللغات الأميركيّة - الهندية ، وبوجه أعمّ حول لغات بلا كتابة ، كان تاريخها يفوتهم في زمنٍ أوّل . بعد وضع مشروع الإحاطة الشاملة بالعلاقات التي تقيعها اللغات مع سياقها الاجتماعي الثقافي ، وبعد إصدار فرضيات مثل فرضية الفعل التنظيمي للغة في السلوك المعرفي ، وبالتالي ، في رؤية العالم وفي ثقافة الذي يتكلمها ، تهتم اللسانيّة الإثنية ، اليوم ، اهتماماً رئيساً بعلاقات الرسالة اللسانية مع مجمل ظروف الإبلاغ أو الاتصال . في البداية كانت اللسانيّة الإثنية محصورة في ميدان المجتمعات الموسومة بالبدائية ، وهي تعلن أنّ كل ميدان يعود لها من الآن فصاعداً ، حتى ميدان المجتمعات الحديثة الأكثر كثافةً ، إن هذا التعريف الجديد لبرنامج أبحاث اللسانيّة الإثنية ، يقرب هذا العلم ، بكيفية فريدة ، من اللسانيّة الاجتماعيّة ، لدرجة أنّ البعض قد لا يعود يتردد ، بلا شك ، في الكلام على لسانيّة اجتماعية - اثنية (Ethno-Sociolinguistique) .

بالنسبة إلى اثنوغرافيا الخطاب ، ينادي دل هـ . هيمز (Hymes) بالعودة إلى العمل الميداني ، الوحيد الذي يستطيع أن يوفر المعطيات الواجب تنظيمها في إطار تحليل بنيوي . فاستعمالات الخطاب وموضوعه تشكل منظومة ثقافية حقيقية يتعين

استخلاصها - ولابد من ردم المسافة بين ما تصفه الاثنوغرافيا
بحصر المعنى ، وما تصفه علوم القواعد والقواميس ، فلا بد من
الإحاطة بكل ما تعين على المتكلم استبطانه ، في ما يتعدى النحو
والمعجم ، لكي يصبح عضواً كامل العضوية في متحده اللساني ،
ولكي يشارك بكيفية مناسبة في سلوك جماعته الشفهي ، ويقع على
كامل إثنوغرافيا الإتصال ان تثبت ما إذا كان الاستعمال المكتوب
للمنظومة اللسانية ، والاتصال بالحركات والإشارات ، واستعمال
الاداء (النغم) وحتى استعمال الصمت ، تشكل أو لا تشكل منظومة
مع الاتصال اللساني الشفهي ، وما إذا كانت هذه المنظومة تملك
قواعد أدائها الخاصة بها . يتحدثُ البَحْثُ الأمريكي عن Paralinguistics
proxemics, kinesics . كتبت حنة مارتينه (Jeanne Martinet: La sémiologie
du geste, dans: La linguistique, 10-2, p. 137):

« يُدَلُّ بالانكليزية على سميولوجيا الحركة بوصفها Kinesics ،
ومن هنا الانتحال [بالفرنسية] لـ «Kinésique» . وسوف يُقال على
نحو أفضل بالفرنسية «Cinétique» للدلالة على هذا الفرع من
السميولوجيا الذي يتناول الحركات بوصفها علاماتٍ تشكلُ منظوماتٍ
تستعمل للاتصال بعفدها أو بالاقتران مع اللغة . وتقوم شبهُ اللسانة
و La Proxémique بدراسة جوانب الاتصال الأخرى ، غير الشفهية .
يبدو أن هذه العلوم تحدد حقلها بالاستناد إلى قناة نقل المعلومات :
سمعية بالنسبة إلى اللغة وشبه اللغة ، بصرية بالنسبة للأمور
الأخرى . إن معايير كهذه لتصنيف الوقائع تميز وتبرز الطبيعة
الفيزيائية للظواهر على حساب الوظيفة التي تؤديها في مسار
الاتصال . »

I/5 - اللسان ، اللسانة الاجتماعية واجتماعيات اللغة

عندما نقل اللسانيون اهتمامهم إلى ما يتعدى الحدود الضيقة التي كانوا ، بادئ الأمر ، قد وضعوها لعلمهم الخاص ، وقَرروا الانكباب على درس العلاقات بين المنظومات والاستعمالات اللسانية والوقائع المجتمعية ، إنما تعيّن عليهم التحفظ على البقايا الحية من فلسفة معينة للغة ، وكذلك تعيّن عليهم التحفظ على علم اجتماع كان ، على ما يبدو ، مديداً ، حتى يرتد عن تأمله النظري والتنظيري . وفي الواقع ، لم يكن هذا الأمر مشجعاً ولا مؤاتياً لاشتراكهم الفوري في اجتماعيات اللغة ، هذا العلم الذي كان يدعي استعمال وقائع اللغة والخطاب كوسائل لبلوغ معرفة أفضل للوقائع المجتمعية ، وكان لبلوغ ذلك يقوم بافتراض ومناقشة توصيفات اللسانة واستنتاجاتها .

والأمر على خلاف ذلك ، بالنسبة إلى اللسانة الاجتماعية ، إذ أنّ وقائع اللغة والخطاب قد تظلّ الموضوع المبحثي الوحيد . وعندئذٍ قد تكون الوقائع المجتمعية هي التي يمكنها أن تصير وسائل اكتناه الواقع اللساني . إن هذا التقريب الكافي نظرياً ، قد يبدو في نظر البعض عاجزاً عن الثبات في الممارسة والتطبيق حيث يمكن لموضوع علم الاجتماع ولموضوع اللسانة الاجتماعية أن يتجها نحو التماثل . ففي نظريتي جاكوبسون ، اجتماعيات اللغة هي جزء لا يتجزأ من اللسانة . وفي نظر جوشوا . أ . فيشمان (Joshua A. Fishman) ومعاونوه ، اجتماعيات اللغة واللسانة الاجتماعية هما بوجه عام علمان مترادفان ، على الرغم من أن فيشمان يحدّد أحياناً ، اجتماعيات اللغة ، بوصفها لسانة اجتماعية مندرجة في أفاق علم الاجتماع ... وأمام هذا

الانتقال من تعريف إلى آخر ، لم تعد بعينين كثيراً عن لعبة المرايا ، وحتى عن الدائرة المغلقة .

ولا تبدو القواميس المختصة في المصطلح اللساني جاهزة ، من جانبها ، للحسم في الموضوع . فعلى سبيل المثال ، نقرأ فيها أنّ اللسان الاجتماعي جزء من اللسان التي يتقاطع ميدانها مع ميادين اللسان الاثنية واجتماعيات اللغة والجغرافيا اللسانية وعلم العامية ؛ أو نقرأ أيضاً أن من غير المؤكد أن تكون اللسان الاجتماعية علماً حقيقياً ، أو أن تكون قد وجدت أسسها ومفاهيمها ، وانها ربما لا تكون سوى ميدان يُدعى فيه علم الاجتماع واللسان إلى التعاون^(٢) .

هذا أيضاً لن يكون في واردنا الحسم في الموضوع ، وإنما الوارد بالحري هو أن نعاود النظر في وقائع معروفة من جانب آخر . إن تحليل منظومة لسانية هو بذاته مهمة واسعة ومعقدة بشكل كاف ، لكي يستند ذلك الذي يتولاها ، استناداً مشروعاً إلى فرضية عمل أولي ، هي فرضية تألف المنظومة ، وإلى منهجية بحث أولي ، هي المنهجية التي تستبعد مؤقتاً فحص تنوع الاستعمالات وفحص الفوارق البنوية حقاً التي يمكنها أن ترتبط بتنوع الاستعمالات هذا . ولكن مع البقاء عند هذا الحد ، قد لا نتجنب نهائياً الخطر الكامن في ظهور الالتباس بين تألف المنظومات ، باعتباره فرضية انطلاق لبحث لساني علمي ، وتألف المنظومات كما تعنيه منهجيات فقه اللغة (Philologie) القديمة . وتألف المنظومات كما يشاء اللسانيون التقعيديون السلفيون ، أو تألف المنظومات الذي كان نتاجاً

(٢) الموقف الأوضح بالنسبة إلى اختيار المتاهج يظل موقف ج.ا. فيشمان : إن اختيار المتاهج هو حصيلة لمعطيات المسائل .

(Fishman, Sociolinguistique, p.69)

لفرضية فلسفة اللغة ، أو أيضاً تألف المنظومات كاعتقاد ساذج لدى غير المختصين ، الخ . ويبدو الخطر غير مستبعد في هذا الميدان ، على قدر ما تقل الفوارق بين « سلفيين » و « بنيويين » : فكلهم يبدوون مقتنعين بالتألف الكامل لكل لغة (André Martinet, langue et fonction, p. 126) . يضيف ما رتبته ان التباينات القائمة اذا لم يضح بها ، بإسم بساطة الوصف ، فسوف يتم التوصل إلى إقامة تراتب بين الأضداد اللغوية ، لانه يبدو أن بعض التفريقات تكون شمولية لدى بعض أفراد الجماعة ، وأن بعضها الآخر لا يتعسك به سوى بعض أفراد المتحد ، وينكره الآخرون .

إذن يحق لنا ألا نعتبر ان عمل اللساني التوصيفي قد اكتمل ، الا بعدما تكون قد وضعت ، على الأقل ، هذه الهرمية التراتبية للأساليب والطرق اللسانية . وعندما نتوجه ، لاحقاً ، الى فحص الاشتراط المكثف لتنوع الاستعمالات اللسانية والفوارق البنيوية ، لا تظهر أيضاً كل الوقائع المجتمعية منيرة وكاشفة ، سواء كانت أم لم تكن موضع اهتمام الاتنوغرافي ، الاتنولوجي ، الانثروبولوجي او عالم الاجتماع . وإن اللساني الذي لا يعرف الوسائل اللسانية حقاً ، الموضوعه فعلياً في منظومة وحسب ، بل يعرف أيضاً القوى التي تصنع الديناميكية الداخلية لهذه المنظومة ، سيكون بلاريب في عداد أفضل المؤهلين لإقامة اول تقويم العلاقة التي يمكن لواقعة او لعدة وقائع مجتمعية أن تقيمها مع الاستعمالات والمنظومة اللسانية . زد على ذلك أن اللساني سيكون في عداد أكثر المهتمين بأن تقوم علمياً علاقات من هذا النوع : وأنه اذا انكب على إقامتها بنفسه ، سيكون من الصعب إتهامه بالخروج من مجال بحثه الخاص به .

٦/١ - تلازم الناظر والمنظور إليه

عندما يتعيّن على لسانيّ أن يستخلص المنظومة الفونولوجية أو النحوية للغة ما ، لن يكون تلازم الناظر والمنظور إليه هو تماماً ذلك التلازم الذي يظهر عندما يحاول باحثٌ تنظيم علمه بوقائع مجتمعية . ففي الحالة الثانية ، يمكنُ للباحث أن يكون معنياً أكثر على صعيد هذا الذي يسمى ، بتفاوتٍ ، ذهنيته ، معتقداته الأساسية ، فلسفته أو أيضاً فكرويته (ايدولوجيته) . وعلى هذا النحو ، قد يُساء فهمُ أنّ تكون اعمال علم العامية الاجتماعية (Dialectologie Sociale) الاميركية قد استطاعت التوصل إلى نتائج عنصرية بكل جلاء ، إذا لم توضع مجدداً هذه الاعمال وتنتجها في سياق الستينات (١٩٦٠) في الولايات المتحدة . وفي مستوى آخر ، تبرزُ اللسانة الاجتماعية التفاعلية (Sociolinguistique Interactionnelle) وتميّر أواصر الدور (Rôle) بين الأفراد ، وتحدّد هذه الأدوار بوصفها كفاءات العمل المنوطة بالأفراد داخل مجتمع ما . عندها تجري الأمور كما لو أنّ هذه اللسانة الاجتماعية لم تكن تتصوّر البتة ان بين الفرد المأخوذ في فرديته والمجتمع الشامل ، لا يقوم سوى تواصل مميّز فقط بمراقبٍ ، يمكن للحراك الاجتماعي ، عندما يوجد ، أن يمحوها بكل يسر . ويبدو تصور الأواصر الاجتماعية مختلفاً تماماً في اللسانة التفاضلية الاجتماعية أو اللسانة الاجتماعية التي تتوقع درس التعارضات بين المسالك اللسانية الجماعية ، وتحدّد الجماعة بمقتضى العمل المشترك الذي يقع إكماله على عاتقها : عمل منتج ، مشروع سياسي ، ثقافي ، ديني ، الخ . ، جميع المنجزات المشتركة التي يستحيل القيام بها خير قيام بدون الخطاب □ .

الفصل الثاني

المتحدّات والتباين اللساني

- ليس لمصطلح المتحدّ اللساني سوى قيمة نسبية. بلومفيلد ، ١٩٣٣ .
لا يمكن تصوّر تكلف لساني كامل. مارتينه ، ١٩٦٢ .
المتحدّ اللساني هو مصطلح مجلد. فيشمان ، ١٩٧١ .

روابط اللغة والجماعة

II/١ - الوحدة ، الاستقلالية والحيوية بين اللغة والجماعة

إن الاعتقاد في وجود متحدات لسانية ذات حدود واضحة ، متحدات لسانية يتكلم الجميع في داخلها اللغة نفسها دائماً ، وبالكيفية عينها ، ليس مجرد اعتقاد ساذج لدى غير المختصين . فالمختصون أنفسهم ، لأنهم حددوا اللغة ، قبل كل شيء ، بوصفها أداة اتصال متكيفة مع حاجات أولئك الذين يستعملونها ، استطاعوا في زمن أول ، أن يسهموا في الحفاظ على المعتقد الساذج . وحين يتضمن الاتصال المتحد ، يقدو مفهوم المتحد ليس نافعاً وحسب ، بل يقدو محتوماً في علمنا (Martinet, Langue et fonction, p.130). لكن

تألف المنظومات وكذلك تألف المتحدات ، قبل أن يكونا الفرضية العلمية لانطلاقة البحث اللساني ، كانا من الفرضيات الأساسية لفلسفة اللغة : شعب أو أمة ، ثقافة ، لغة . وكانت الجماعة البشرية تدين بتألفها ، بتناسقها وباستقلاليتها إلى عقليتها ، روحيتها ، ثقافتها ، تراثها وأحياناً إلى المجال الجغرافي الذي كانت تشغله ، أو حتى للمناخ الذي كانت تعيش فيه . وكانت اللغة ، باعتبارها متألفة ومستقلة ، تقدم للفلاسفة الوقائع التي كانت تُستخدم ، وهي معزولة عشوائياً عن المنظومة ، كأمثلة مناسبة لإسناد تأمل نظري وتنظيري . وبمساعدة الاستعراق الأوروبي ، كانت اللغات الهندية - الأوروبية هي التي توضع موضع المساهمة ، وكان جوهر المسألة آنذاك هو تحديد العلاقات القائمة بين الشعب أو الأمة ، بين لغته وثقافته . فاللغة هي انعكاس للشعب ، وهي الذاكرة الجماعية حيث يودع الشعب الخبرة الواجب نقلها إلى الأجيال المقبلة؛ وكان يقرّر البعض أن الشعب هو الذي يؤثر في لغته . فاللغة هي الوسيلة الأضمن، وربما تكون الوسيلة الوحيدة لاكتشاف الواقع وتنظيمه؛ وكان البعض الآخر يقرر إنها إطار الفكر الجماعي وقلبه ؛ وهي تشترط تجربة أولئك الذين يتكلمونها . وهناك آخرون أيضاً يقولون إن اللغة تبين وتكون في أن واحد روح الشعب ، وإن الشعب إذا كان يؤثر في لغته ، فإنه يتأثر بها ، بدوره .

وبما أن اللغة والمتعد يجب أن يكونا مستقلين ، فقد كان يجري التشديد على كل المسافات التي كان يمكنها أن تفصلهما عن اللغات والمتحدات الأخرى . وكان ذلك يجري بوجه خاص عندما كانت المسافة ضئيلة الأهمية نسبياً - مثلاً ، بين اللغات المتقاربة تناسلياً أو بين عاميات لغة واحدة - فكان يصر إلى إبراز العسافة الجغرافية . كان المتحد اللساني يتوافق مع وحدة جغرافية محدودة بهوارض جغرافية مائية أو جبلية ، أو أنه كان يدين بتماسكه وتألفه ،

وبالتالي باستقلاليته ، إلى معطيات الجغرافيا البشرية . مثلاً
الامتزاجات الثابتة والتيارات المحدودة باقتصاد سوقي .
وغالباً ما كان يُقدَّر ، أخيراً ، أن متحداً يتعيّن عليه أن يكون
مهماً عددياً لكي يحافظ على حيويته وحيوية لغته . فعدد أفراد
المتحد ومواردهم يجب أن تسمح لهم ، عند اللزوم ، بالدفاع عن
وحدة أراضيمهم وعن عاداتهم اللغوية في وقت واحد . ولكنّ تماسكاً
اجتماعياً كبيراً ، كذلك الذي يمكن لفكروية قومية أن تتعدهه
وتقرضه ، يستطيع في أسوأ الحالات أن يعوّض عن الضعف العددي
النسبي للمتحد اللساني .

II/2 - المتحد اللساني والجسم السياسي

أخيراً ، كل جسم سياسي أو كل دولة مكوّنة ، كانت تعترف
رسمياً بلغة ما كلفة لها ، وكانت تجيد فرض استعمالها العام
(خصوصاً في مؤسساتها وإداراتها) ، إنما كانت تُعتبر بمثابة
متحد لساني .

متحد لساني ، جسم سياسي : إن الاعتقاد في هذه المعادلة
وإمتعلقاتها هو من المعتقدات التي يصعب التشكيك فيها . وباسم
هذا الاعتقاد المعاد توكيده بثبات وحتى بشكل متقطع ، استطاعت
مجلة أدبية فرنسية دورية ، من أكثر المجلات رصانةً وجديّةً ، أن
تعلن عن ظهور رواية ما ، مترجمة عن الأميركيّة ، وعن ظهور رواية
أخرى مترجمة عن لغة البيرو . في هذه الحال ، هل يتعيّن أن
نفهم أنّ هذا النص جرى وضعه أولاً بالإسبانية ، بالكشوا ، بالإيمارا
أو بالجيفارو في البيرو ؟ وليس من التادر أنّ هذا الاعتقاد عينه يجعل
البعض يقول عن فرد ما أنه يتكلم البلجيكية ، السويسرية أو
البرازيلية .

إن متحداً لسانياً مؤزّعاً لصالح عدة أجسام سياسية كبرى ،

أو ، بخلاف ذلك ، مندمجاً كلياً في واحدٍ منها ، يمكن أن تنكر عليه صفة هذه ، الحكوماتُ المعنيةُ أولاً ، والمراقبون غير المعنيين بالمسألة ثانياً ، وأيضاً بعض المتكلمين المعنيين أنفسهم . غالباً ما يكون الحال على هذا النحو بالنسبة إلى المتحدات اللسانية الكردية ، الأرمنية ، الباسكية ؛ البريتونية أو الأوكسيتانية ، وكذلك هو الحال بالنسبة إلى متحدات أخرى كثيرة...

إن دولةً تضمّ عدة متحدات لسانية لا يمكنها - كما يفترض ذلك بوجه عام جداً - أن تكون إلا استثناءً يُنتظر منه أن يؤكد القاعدة . ويعاود الاستعراق الغربي ظهوره ، عند أقل فرصة ، وإذا أريد الاعتقاد في دولة سويسرية ، فقلّما يعتقد بسهولة في دولة مثل دولة سنغافورة ، حيث المتحدات اللسانية ، الماليزية والقامبلية والصينية ، رفعت لغاتها الثلاث ، فضلاً عن الانكليزية ، إلى مرتبة لغات قومية . وفي المقابل ، فإن تعريف اللسانة للهولندية بوصفها عامية جرمانية تُدهش أيضاً وتفاجيء ، وذلك لأنها اللغة القومية لدولة مثل هولندا ، وهي دولة مكوّنة بقوة ومعترف بها من الجميع منذ أمٍ بعيد . ودائماً باسم الاعتقاد عينه يمكن التناسي ، غالباً وعلى سبيل المثال ، أن ما من أمة من الأمم الأوروبية التقليدية ، ومهما تكن أهميتها ، لا تتطابق مع متحد لساني واحد . وربما يكفي أن نورد مثال فرنسا ، وعندئذٍ يمكن أن نلاحظ - ونحن نبعد مئة كيلومتر من باريس ، وتجاوب المراكز الحضرية الأخرى في الضاحية - إن الاحادية اللغوية ليست هي دائماً القاعدة المطلقة في فرنسا.

II/3 - المواقف اللسانية

إنّ المعتقدات التي أنتجتها اللغات والمتحدات التي تمارسها، كانت ولا تزال مرتبطة بالمسالك والمشاعر والمواقف ، وإن هذه

المواقف اللسانية لم تكن يوماً غريبة عن وضع التعريفات التي كان يُبحث عنها لأجل السنة الاقوام والجماعات التي تمارسها . وعليه ، كان يُعتقد أن استقلالية لغة ما ، والامة التي تتكلمها ، كانت تعود إلى تاريخيتها ، إلى تراث ثقافي وادبي ، الخ . والحال ، فإن تماسك المتحد اللساني كان يدين كثيراً إلى شعور الولاء الذي كان المتحد يتعهد تجاه لغة لم يعد من الواجب البرهان على تاريخيتها ، لأنها كانت مكتوبة منذ ظهور أقدم الوثائق ، ولأنها كانت مستقرة وصحيحة منذ الأزل ، ولأنها عرفت القوينة (التعميد) والتعبير . وكان للتعديد والتعبير^(١) الفضل الخاص في تثبيت المسافة ما بين اللسان^(٢) (Distance interlinguistique) عندما كانت موجودة ؛ وكان لها أيضاً الفضل في إبرازها وصوغها عندما كانت تدعو الحاجة إلى ذلك . واللغة ، سواء أكانت نتاجاً تاريخياً وحيداً ، مميزاً ومقدساً ، أم لم تكن ، فقد كانت تسهم في خلق شعور بالتضامن بين الناطقين بها ، وكانت على هذا المنوال تكمل اندماجهم في المتحد ، وليس الولاء والتضامن الموقفين الوحيديين اللذين توأما استشارتهما اللغات والمتحدات التي تستعملها . فهذه المواقف اللسانية هي جزء لا يتجزأ من موضوع دراسة اللسان الاجتماعية ، ولكنها لم تعد تحظى اليوم بالقيمة المطلقة للسماح المحددة للمتحد اللساني . وتجري المحاولات لتقديرها حق قدرها عندما يتوجب تعيين سياسة لسانية وتجسيدها في مخطط^(٣) ، أي عندما ندخل في مجال ما يسميه البعض اللسان الاجتماعية المطلقة (Sociolinguistique appliquée) . كذلك ، تسجل اللسان الاجتماعية التغيرات التي

(١) انظر لاحقاً . الفصل الثالث .

(٢) انظر لاحقاً ، الفصل الرابع .

(٣) انظر لاحقاً ، الفصل الخامس .

تظهرها هذه المواقف ، سواء في الوعي الذي يمكن لكل فرد أن يكونه عن وفائع اللغة والمجتمع ، أم لدى أولئك الذين يعتبرون اللغة والمجتمع موضوعات بحث أو انشغالات مهنية .

التباين اللساني

II / ٤ - التباين ضمن الألسن وبينها

عندما كتب بلومفيلد (Langage, p. 33) أن جماعة من الناس الذين يستعملون منظومة علامات لسانية واحدة، هي متحد لساني، كان قد تخلى عن مفهومي التألف والاستقلالية في الجماعة بوصفهما سمات محددة للمتحد اللساني . بيد أن هذا التعريف لا يأتي على ذكر تنوع الاستعمالات التي يمكن للجماعة أن تمارس بها المنظومة اللسانية ، ولا على ذكر فوارق البنى التي يمكنها أن ترتبط بهذا التنوع للاستعمالات . زد على ذلك أن هذا التعريف لا يأخذ في الحسبان حالة الجماعات التي تستعمل أكثر من منظومة علامات لسانية . ومنذ ذلك الحين أعطت اللسانة الاجتماعية أهمية خاصة ، حتى لا نقول الأهمية الأولى ، للوقائع المتمثلة في التباين والتكونات اللسانية . فمن الممكن أن يتميز النشاط اللساني لمتحد ما ، بالتباين ضمن الألسن فقط ، ذلك التباين الذي يتجلى في استعمالات وفي بنى منظومة واحدة . كذلك من الممكن أن يتميز هذا النشاط بالتباين بين الألسن ، ذلك التباين القائم بين المنظومات عينها . وفي هذه الحالة الأخيرة ، يكون النشاط اللساني للمتحد مطبوعاً ، ليس فقط باستعمال منظومتين أو أكثر ، متقاربتين تناسلياً أو غير متقاربتين ، بل يتميز أيضاً بواقع أن كلاً من المنظومات الحاضرة ، مع احتفاظه بإمكانات تباينه الذاتية ، يرى هذه

الإمكانات تبرز من جزاء احتكاك اللغات ذاته (انظر لاحقاً ، الفصل الرابع).

II / ٥ - التلونات الجغرافية والتلونات الاجتماعية

إن انخفاض وتيرة وحميمية الاتصالات بين شريحتين من السكان، يجلب مساراً من مسارات التفاضل اللغوي (Martinet, Elé- ments, § 5-14) وبناءً على ذلك ، جرت العادة على تمييز التلونات الجغرافية ، في المقام الأول ، داخل التباين ضمن الألسن . وهذا ما كان يسمى ، في البداية ، عاميات اللغة . وبالنسبة الى هذه التلونات ، فإن انخفاض الاحتكاكات بين الجماعات الذي أدى إلى التفاضل اللساني ، أُعتبر أولاً كأنه مرتبط بالتباعد في المجال الجغرافي . وبعد ذلك جرى تمييز تلونات اجتماعية سميت أحياناً بالعاميات الاجتماعية أو أيضاً باللهجات الاجتماعية (Sociolectes) . إنها تلونات قد يكون انخفاض الاتصالات بين الجماعات ، المؤدي إلى التفاضل اللساني ، ناجم في جوهره عن أسباب اجتماعية ، وعندئذ قد يكون التفاضل اللساني قادراً على الحصول في نقطة واحدة من المجال الجغرافي . مع ذلك ، ربما يكون من التبسيط الاعتقاد أن المسافة الجغرافية والتفاضل الاجتماعي يمكنهما أن يكونا عاملي تفاضل لساني ، مستقل أحدهما عن الآخر استقلالاً تاماً . إن العلاقات بين هذين العاملين غالباً ما تكون في الواقع مكثفة جداً : فتباعد جماعتين أو أكثر في المجال الجغرافي استطاع أن تكون له أسباب اجتماعية خاصة ؛ وثمة تلونات لسانية يتعين اعتبارها كتلونات اجتماعية ، وتجري ممارستها في نقطة واحدة من المجال الجغرافي . استطاعت في الأصل أن تكون من التلونات الجغرافية ، الخ .

II/6 - التصنّعات الوظيفية والأحكام القيميّة

إنّ التلوّنات اللسانية ، أكانت جغرافية أم اجتماعية ، إنّما تتحدّد بوصفها مجاميع فروقات تقع ، في وقت واحد ، في مستويات المعجم والقواعد والصّوارة ، أو بالحريّ في واحد أو اثنين فقط من هذه المستويات داخل المنظومة . وإنّ هذه المجاميع لتختلف بوظائفها ؛ وتصنّعاتها الوظيفية إنّما تُستخلص من رصد استعمالها في عدد من السياقات غير اللسانية .

إنّ مصطلح تلوّن (Variété) يُراد به أنّ يكون مصطلحاً فنياً ، موضوعياً ، مجرداً عن كل عاطفة ، وبالتالي لا يمكنه أن يتضمن أي حكم قيمي ، فهو لا يدلّ على وضع لغوي خاص ، وإنّما يدلّ فقط على بعض الفروقات بالنسبة إلى تلوّنات أخرى (Fishman, Sociolinguisti- que, p.37) إنّ الكلام على تلوّن ما ، معناه فقط الاعتراف بوجود مجموع أو عدة مجاميع للفوارق ، وبوجود تلوّن واحد أو عدة تلوّنات أخرى ، ومعناه رفض إقامة أي تراتب بين هذه التلوّنات . وإنّ كل محاولة من جانب المختصّين لاستعمال مفردات مثل (Babel, platt, brogue, patois) دون معاودة تعريفها أولاً ، يخضى عليها أن تبوء بالفشل ، لأنّ هذه المفردات ليست في الواقع سوى تسميات خصوصية جداً يستعملها غير المختصّين بشيء من الازدراء ، حتى ليصعب الكلام على تلوّن لغوي لا يروونه مقبولاً اجتماعياً (Martinet, Langue et fonction, P.134) ، وإنّ تسميات مثل عاميات ، لغة شعبية ، حكي ، لهجة أهل حرفة ، أو أيضاً مثل لغة أدبية / عالمة / ثقافية / حضارية ، حسن التصرف ، لغة مشتركة ، الخ . هي أيضاً تسميات خصوصية جداً ، وإنّ استعمالها دون معاودة تعريفها قد يكون خطيراً من الوجهة العلميّة مثل استعمال التسميات التي أشار إليها مارتينه ، مع مفارقة قوامها أنّ غير المختصّين

وأحياناً المختصين أيضاً يستعملون بعضاً منها للكلام على تلوّنات يرونها اجتماعياً محايدة ، مقبولة أو يمكن القبول بها . وسواء كانت المتغيرات - وبالتالي التلوّنات اللسانية التي تكوّنها - تنتمي إلى الصواتة أم إلى القواعد أو المعجمية ، فإنها تعزى إليها قيم اجتماعية تعكس العلاقات الاجتماعية . حقاً إن تفاضل اللغات (والتلوّنات) هو واقعة بنيوية فوقية (Marcellesi et Gardin, La Ling- uistique sociale P.147) . بكلام آخر ، تُطلق على التلوّنات اللسانية أحكام قيمية هي في الحقيقة ناجمة فقط عن ظهور هذه التلوّنات في هذا السياق غير اللغوي أو ذلك ، سواء كان السياق جغرافياً أم اجتماعياً ، وبالتالي قد يكون من المفيد علمياً إمتلاك مصطلحات تسمح بالفصل بين التلوّن اللساني وتصنّعه الوظيفي وبين الأحكام القيمية المتعلقة بهذا التصنع .

II/ ٧ - تبليغ التصنّعات الوظيفية

زدّ على ذلك أنه قد يكون من المفيد التمكن من امتلاك مصطلحات تميّز التلوّن اللساني من تصنّعه الوظيفي ، نظراً لأن هذا الأخير لا يملك على الإطلاق شيئاً ثابتاً في التساوق ذاته ، ولا أي شيء نهائي في التطور التاريخي . ومثاله أن الأندلسية هي اليوم تلوّن جغرافي من الأسبانية ، وتعمل بهذه الصفة في الأندلس ، لكنّها تعمل كتلوّن اجتماعي في أقاليم إسبانيا الشمالية حيث تستعملها جماعة فرعية من البروليتاريا ، وهي احتياطي من اليد العاملة الرخيصة التي تستعملها بورجوازيات الصناعة والمناجم في بلاد الباسك وأستريا وكاتالونيا .

تاريخياً ، ليس للتصنّع الوظيفي لأي تلوّن لساني ، شيء ثابت ونهائي ، وإن أسباباً غير لغوية ، تماماً ، هي التي جعلت التلوّنات الإقليمية / التي كانت عليها في الماضي التوسكانية ، اللندنية ،

القشتلانية أو الفرنسية/ تترقى من جانب الجماعات التي كانت تتكلمها إلى وظائف لم يعد فيها أي شيء إقليمي ، لأنها بلت اليوم لغات ايطاليا وانكلترا واسبانيا وفرنسا .

وإن اسباباً من النوع نفسه هي التي جعلت تلوّنات إقليمية أخرى ، بعكس التلوّنات السابقة ، لم تتغير وظائفها . هناك تلوّنات لسانية تملك راموزاً (Code) مكتوباً ، ويستعملها أدب مهم ، وشاركت لزمن في أبهة بلاطات بروكس وتولوز أو ليموزان ، ومع ذلك فإن الأوكسيتانية (Occitin) لا تزال اليوم مجرد مجموعة تنوعات إقليمية ، وإن الوظائف الأخرى ، غير الإقليمية ، التي كان في استطاعها القيام بها ، تؤديها حالياً تلوّنات من الفرنسية ، كذلك ، قد يكون من الملائم التشديد على صعوبة التفريق في الأوكسيتانية بين وظائف محض إقليمية ، لأن الأوكسيتانية تنزع إلى العمل أولاً كتلوّن اجتماعي مرتبط جوهرياً بجزء وأيضاً بفتة عُربية من الطبقة الفلاحية الفرنسية الجنوبية ، الصفري والوسطى .

إن الكيشوا (Quechwa) بعدما أزال من مجالها الجغرافي عدداً معيناً من اللغات التي كانت قريبة منها أو غير قريبة ، صارت لغة العبادة والجهاز الإداري في امبراطورية الأنكا . فكانت ، حتى بون حياة راموز مكتوب ، تؤدي وظائف اللغة الرسمية وأيضاً وظائف اللغة المتداولة في امبراطورية كانت تمتد تقريباً من الشمال إلى الجنوب في شبه القارة الأميركية الجنوبية ، وعلى مدى عدّة قرون من الاستيطان الإسباني لم يعد مع ذلك ثمة سوى مجموع من التنوعات الإقليمية للكيشوا ، والبيّن في الواقع هو أنّ كل جماعة من المتكلمين تتموضع جغرافياً ، وكذلك اجتماعياً ، بحكم العلاقات التي تقيمها مع باقي المجتمع الشامل ، وأنّ التلوّن الذي تمارسه هو في أن واحد إقليمي واجتماعي . إن تلوّنات الكيشوا التي يمكن اعتبارها إقليمية ، هي أيضاً تلوّنات اجتماعية ، مرتبطة بجماعات الفلاحين

الفقراء ، وهم هنود الأنديز (Andes) ، وحديثاً حظيت بمركز اللغة الرسمية الثانية في البيرو . وأن الفوارق التي تطبع تلوّنات هذه المنظومة في البيرو لن يعوزها طرح المسائل على منظمي تقعيد هذه اللغة الرسمية الجديدة وتطبيعيها .

II/ ٨ - التلوّنات والمنظومة : المتغيّرات الحرّة

يمكن تمييز التلوّنات اللسانية ، حين يُستفاد من أساليب يطلق عليها اللسانيّون تسمية المتغيّرات الحرّة أو المتغيّرات الاختيارية أو أيضاً المتغيّرات الأسلوبية . أما اختيار هذه الأساليب فيظلّ حراً ، بمقتضى سير المنظومة الصّواتية التي لا تنيط بهذه الأساليب وظيفة تمييزية أو لا تنيط بها أكثر من وظيفة تمييزية ، وبمقتضى سير المنظومات النحويّة والمعجميّة حيث لا تسهم الأساليب أيضاً في وضع فوارق معنوية ، وفي المقابل ، يتحدّد ظهور هذه الأساليب اللسانية بالمعطيات غير اللغوية ، ويستفاد من استعمالها اجتماعياً و/ أو جغرافياً .

هناك مثل من الأمثلة الأكثر وروداً ، هو مثل المتغيّرات المسمّاة حرّة ، للصويت الصامت /ʁ/ في المنظومة الفرنسية ، فإذا نطق المتكلم هذا الصوت ، مثلاً في المقاطع : *Katr/ quatre* ، أو *batr/ Batre* ، أو *Sykr/ sucre* ، مع تموجات في طرف اللسان : [r] ، أو بتموجات اللهاة : [R] ، أو بمجرد احتكاك الهواء بين مؤخر اللسان واللهة أو المنطقة الخلفية من غشاء الحنك : [ʁ] ، فإن معنى *batre* ، *quatre* ، و *Sucre* لن يتغير مع ذلك . حتى أن المتكلم سيكون في استطاعه ألا ينطق الصوت /ʁ/ في هذا الوضع النهائي ، وأن يلفظه لفظاً صفرّياً (par zéro) [Syk, bat, Kat] دون أن يحدث عدم فهم أو تبدل في معنى المنطوق . لكنّ تباينات الصوت /ʁ/ هذه ، الحرّة بالنسبة إلى المنظومة الصامتة في الفرنسية ، يمكن الإفادة منها

اجتماعياً أو جغرافياً . أما لفظ [ʁ] فيُعزى اليوم ، بوجه عام جداً ، الى تباين الفرنسية الذي يعتبر كأنه معياري ومُطْبَع . وبشكل أساسي ، فإن [ʁ] تطبع تلوّنات جغرافية في هذا اللسان . وان المتغير صفر في وضع نهائي هو بالضبط ما يسميه مارتان جوز (Joos)^(٤) طابعاً (un marqueur) بالنسبة إلى تلوّنات في الفرنسية غير مطبّعة ، وهي تلوّنات تسمى شعبية واهلية (راجع الفصل الثالث) . من الواضح تماماً ان لغة ، كالعربية مثلاً ، يمكن لمنظومتها الصامتة ان تمارس تضاداً صوتياً / ʁ ~ ʁ / ، لا يمكنها ان تستعمل ، بلا مشاكل ، النطق بصوتياتها / ʁ / و / ʁ / كطوايح مميزة لتلوّناتها الاجتماعية أو الجغرافية .

فمن الوجهة الدقيقة لعلم الصّرف (Morphologie) ، ليس (je) peux و (je) puis في الحقيقة سوى دالّين لمُدلول واحد . ومع ذلك ، فاذا كان من المحقّق تماماً ان هذه الأشكال غير مرتبطة اجتماعياً بالسياقات غير اللغوية نفسها ، فإن كتاباً مفهوماً ، تقليدياً مثل فن التصريف (Nouveau Besherelle, Hatier, 1966) يظن أنه ملزم بالايضاح ، تبدو صيغة Je puis ذات استعمال أميز من صيغة je peux . كذلك ، اذا كانت الأساليب المستعملة للدلالة على الكيفية اللفظية الاستفهامية في dois-je? وفي est-ce que je dois? ، يمكنها ان تعتبر كأنها متكافئة ومتعادلة من الناحية الصرفية ، فإنها من ناحية أخرى تعتبر غير قابلة كلياً للخفض أو للتحويل بحيث يحل أسلوب محل آخر ، ويمكنها ان تستخدم ، بكل فعالية ، كطوايح مميزة لتلوّنين مختلفين تماماً في الفرنسية .

(٤) في نظر ويليام لايف (W. Labov: the social stratification of English in New York city) .

ان الطابع لو-المميز هو وظيفة قابلة للتبدل حسب الامتصاص الذي يمليه المتكلم لخطابه : سنحتفظ هنا بالمعنى العام للطابع الذي يمليه له جوز .

II / ٩ - التلونات والمردود الوظيفي للأضداد

غير أن الأساليب اللسانية المستعملة كطوابع معيزة لمختلف التلونات في لغة واحدة ، ليست متوافرة دائماً بشكل كامل بالنسبة الى منظومة اللغة ذاتها . إن الفرنسية تملك عدداً معيناً من هذه الأساليب أو الطرق اللسانية ، شبه المتوافرة بالنسبة الى المنظومة والمستعملة كطوابع لمتغيرات اجتماعية و/أو إقليمية . وهذا مثلاً هو حال الطول الصوتي . فالمنظومة الصوتية للفرنسية المعاصرة العامة لم تعد تستعمل الطول الصوتي كطابع معيز للترابط ، وإن التضاد الوحيد حيث لا يزال لهذا الأسلوب اللساني وظيفة تمييزية هو تضاد / \bar{e} / و / $\bar{\epsilon}$ / . وبالتالي فإن الطول الصوتي هو بالضبط ما يشكل ، في نظر بعض المتكلمين ، الاختلاف في المعنى بين / \bar{e} / *tête* و / $\bar{\epsilon}$ / *faite* ، أو بين / $\bar{m}\bar{e}$ / *mètre* و / $\bar{m}\bar{e}$ / *mètre* . إلا أن من المناسب التشديد على أن الطول الصوتي هو حقاً طريقة لسانية لم تعد تنتسب ، في هرمية الأضداد ، إلا للأضداد غير الكلية ، أي لتلك التي أهمها عدد كبير من المتكلمين ، فلم يعد يتعامل بها سوى بعض الآخرين .

ومذ ذاك ، جرت الاستفادة من الطول الصوتي في التباين اللساني ، على نحو بالغ التشتت والاختلاف . وإن بعض تلونات الفرنسية ستستعمله في التعارضات والأضداد الصوتية من طراز / \bar{y} ~ \bar{y} / ، / \bar{u} ~ \bar{u} / ، $\bar{o}\bar{e}$ ~ $\bar{o}\bar{e}$ / الخ . وكذلك من طراز / $\bar{s}\bar{u}$ ~ $\bar{s}\bar{u}$ / و / $\bar{s}\bar{y}$ ~ $\bar{s}\bar{y}$ / ، / $\bar{v}\bar{u}$ ~ $\bar{v}\bar{u}$ / و / $\bar{v}\bar{y}$ ~ $\bar{v}\bar{y}$ / ، / $\bar{d}\bar{e}\bar{g}\bar{u}\bar{t}\bar{e}$ ~ $\bar{d}\bar{e}\bar{g}\bar{u}\bar{t}\bar{e}$ / و / $\bar{d}\bar{e}\bar{g}\bar{u}\bar{t}\bar{e}$ ~ $\bar{d}\bar{e}\bar{g}\bar{u}\bar{t}\bar{e}$ / ، / $\bar{b}\bar{o}\bar{u}\bar{t}$ ~ $\bar{b}\bar{o}\bar{u}\bar{t}$ / و / $\bar{b}\bar{o}\bar{u}\bar{t}$ ~ $\bar{b}\bar{o}\bar{u}\bar{t}$ / ، / $\bar{l}\bar{i}\bar{t}$ ~ $\bar{l}\bar{i}\bar{t}$ / و / $\bar{l}\bar{i}\bar{t}$ ~ $\bar{l}\bar{i}\bar{t}$ / ، / $\bar{s}\bar{o}\bar{e}\bar{l}$ ~ $\bar{s}\bar{o}\bar{e}\bar{l}$ / الخ .

(Martinet, langue et fonction, p,129.

Martinet, le français sans fard, p. 155 à 167).

ومن بين التلونات الفرنسية ، نذكر التلون الذي يوضع تقليدياً

تحت عنوان **تلون شعبي** ، والذي يستعمل لهذا الأسلوب اللساني شبه المتوافق ، استعمالاً مختلفاً تمام الاختلاف بالنسبة إلى المنظومة التي هي الديمومة الصوتية . وان واحداً من الطوايع الأضمن لهذا التلون . ربما يكون في نظريار ثيرو (Pierre Guiraud, Le français populaire, p.119 et s) هو « لهجته الفاترة » أو لهجته الجهورية ، « اللهجة الضاحوية » ، ففي عبارة : il s'est barré, le salaud, vendredi, tu te rends compte [ise bāre l sālō vādrādi ty trā kōt] ، ربما يكون طول الصوائت ð, ā, a وحتى ð (أو œ) مرتبطاً ، ظاهرياً ، باستعمال ، خاص هو أيضاً ، للتقويم النبري : [ise' bāre l'sālo vā'drādi ty l'rō kōt] هو استعمال غير الاستعمال الذي يمارسه التلون المطيع في الفرنسية ، وهو أيضاً غير الاستعمال المسمى بالتعبيري في هذه اللغة . ان كل هذا يبرهن فقط على ان التقويم النبري قد يكون ، هو أيضاً ، في الوضع الراهن للمنظومة الفرنسية ، طريقة لسانية شبه متوافرة ، او حتى طريقة شبه متوافرة كلياً بالنسبة الى المنظومة ذاتها ، وهي بالتالي خليفة بان يُستفاد منها ، دون مشاكل كبرى ، في التلونات الاجتماعية و / او الجغرافية .

وعلى قدر ما تكون الطريقة اللسانية المسماة «e muet» او أيضاً «e caduc» غير متعارضة صوتياً مع غيابها وانعدامها إلا في عدد ضئيل جداً من السياقات

(L'eau/ Le haut/ Lo ~ leo,

l'être/ le hêtre/ l'êtr ~ làêtr,

dors/ dehors/ dōr ~ dāōr;

plage/ pelage/ plaḡ pālāḡ;

l'ablette/ la belette/ lablet ~ labālet, etc.)

تكون . هي أيضاً ، في الفرنسية الراهنة ، في وضع سمة شبه

متوافرة بالنسبة إلى المنظومة، سيمكن الإفادة منها في التباين اللساني بأشكال مختلفة . ففي المحكي الباريسي الدارج جداً ، يكون التعاقب zero/θ ، تقريباً دائماً ، منتظماً ألياً بواسطة السياق ، ويقول الصوتيون بشكل مألوف إن ظهور الصائت [θ] ينتظم « بقانون الصوامت الثلاثة » الذي ينبغي بموجبه التلفظ بـ [θ] كلما حال هذا الصائت دون تشكيل مجموعة من أكثر من صامتين (Martinet, Langue et fonction. p.22) . وسوف ينطبع التلّون المُقْعَد ، التقليد الذي أوجد السجل الشعري ، أو أيضاً سوف تنطبع بعض التلّونات غير المقعدة ، التلّونات الإقليمية خصوصاً في النصف الجنوبي من فرنسا ، الخ . بطابع توزيع ووتيرة استعمال [θ] استعمالاً مختلفاً تماماً عن الاستعمالات الملحوظة في هذا التلّون للفرنسية ، الباريسية الدارجة جداً .

II / ١٠ - التلّونات وتجديد المنظومة جزئياً

غير أن الفوارق التي تطبع تلّونات لغة واحدة ، لا تستعمل فقط أساليب لسانية متوافرة أو شبه متوافرة بالنسبة إلى المنظومة ذاتها . ان مواطناً قشتالياً يلفظ Zuecos Suecos في عبارة «des sabots suédois» بصوت أصم يخرج من بين الأسنان بالنسبة إلى بداية المقطع الأول ، وبصوت صافر أصم نولقي سنضي بالنسبة إلى بداية المقطع الثاني . وهذا يكفي لإقامة تعارض صوتي . وبالمقابل ، فإن بوليفياً يقول : [Swek ʷ swek ʷ] مع صوتين صافرين أصميين في البداية، لكنهما هذه المرة صوتان ظهريان - سنخيان ، وعندئذ لا يعود في الإمكان الكلام على تعارض /s/ ~ /θ/ . وسيتمين حينئذ ان نعتبر تماماً أن التلّون القشتالي والتلّون البوليفي للاسبانية يمثلان تنظيمياً للمنظومة مختلفاً جزئياً ، في هذه الحالة ، على المستوى الصوتي .

إن التلونات اللسانية لا تختلف فقط على المستوى الصوتي ،
وإن معاودة تنظيم المنظومة يمكنه أيضاً أن يكون من النمط
الصرفي . ومثال ذلك أن التلون الاجتماعي الذي تمثله الفرنسية
المقعدة ، يحافظ على منظومة شفوية مرتكزة على التفريق بين عدة
أنواع من التصريف ، في حين أن تلونات أخرى ، اجتماعية أو
جغرافية ، للفرنسية تمتلك منظومة شفوية بدون تصريفات
مميّزة^(٥) .

تفاعل لساني أم تفاعل اجتماعي ؟

II / ١١ - تعريف المتحد اللساني

أذن لا يمكن أن يكون كافياً وافياً ، تعريف المتحد اللساني
الذي لا يأخذ في الاعتبار التباين ضمن اللسان ، وكذلك هو الحال
بالنسبة إلى التعريف الذي يغض الطرف عن التباين بين الألسن ،
ولا يعطي ، مثلاً ، أية مكانة للجماعات الثنائية اللسان أو المتعددة
الألسن . وربما أن المتحد الأحادي اللسان اعتبر لأمدة طويل ، ضعفاً
أو صراحةً ، كأنه النموذج والمعيار ، فإن الجماعات الثنائية اللسان
والمتعددة الألسن عوملت ، هي أيضاً ، ولأمدة طويل ، كأنها جماعات
هامشية . وكان شارل ف. هوكيت (Hockett) من جهته ، يعرفها كأنها
متحدات تلعب دور الجسر بين المتحدات الأحادية اللسان . ولكن ،
مع أخذ الوضع اللساني على الصعيد العالمي ، توجب حقاً أن
نلاحظ أن الجماعات الثنائية اللسان والمتعددة الألسن كانت كثيرة
جداً ، وكان من المناسب ، بلا ريب ، أن يعاد النظر في المكانة
المعيارية الممنوحة ، حتى الآن ، للمتحد الأحادي اللسان . كتب

(٥) انظر الفصل الثالث ، III / ٢١ .

جون ج . غومبرز (J.J. Gumperz) في كتاب (Types, p.463) : إذا كانت الثنائية اللسانية والتعددية اللسانية هما المعيار ، فما من موقف قبلي (a priori) يتعينُ عليه إرغامنا على تعريف المتحد اللساني بمقتضى لغة واحدة . وفي الواقع ، لا يمكن تعريف هذا المتحد إلا إذا غمضنا الطرف عن عدد اللغات الممارسة فيه . على أن التباين ضمن الألسن يمكنه ، من جهة ، أن يكون واسعاً جداً لدرجة أنه لا يمكن لأي متكلم أن يضبطه كله . لذا ، لفت فيشمان إلى أننا لا نستطيع كذلك تعريف المتحد اللساني إلا إذا أخذنا في الاعتبار كل التباين ضمن الألسن وبينها . (Sociolinguistique, p. 46-47) .

في هذه الظروف ، كيف يمكن الكلام أيضاً على متحد لساني يوناني ، ومتحد لساني روسي ، عربي ، كيتيوي ، كيشوي أو انكليزي ؟ واية حقيقة يمكنها ان تشمل ، مثلاً ، مصطلح متحد لساني فرنسي ؟

II/ ١٢ - مثال المتحد اللساني الفرنسي :

لوصف واقع متحد لساني ، خصوصاً واقع المتحد الفرنسي ، سيتعين امتلاك مصطلح يسمح بمقابلة التلّون المقعد (المطبوع) - ذلك الذي تحاول المدرسة دائماً أن تفرضه - والتلّونات المحلية للمنظومة ذاتها ، وهي تلّونات سنطلق عليها تسمية التلّونات المحلية (Allolectes) لهذه المنظومة .

ومثاله ان المرء لو ولد وظلّ يعيش في مونتارجي ، شاتو دون أو أرجنتاي ، يمكنه ان يستعمل في تسلياته أو في حياته المهنية اللهجة المحلية (F₁) من الفرنسية ، وهي لون اكتسبه في عائلته ، الى جانب استعماله الفرنسية المقعدة (F_n) في أماكن أخرى . وفي سانت أو في أنغوليم ، سيستعمل المرء لهجة محلية أخرى (F₂) تختلف عن (F₁) و (F_n) معاً ، ببعض السمات الصوتية ، النحوية أو المعجمية ،

ففي الريف الشارفتي يمكن للهجة (f₂) ان تتراجع بدورها أمام محكي (Parler) يكون فيه مجمل الاختلافات بالمقارنة مع (f₂) و (F_n) كبيراً لدرجة أننا نكون في الواقع امام تنظيم مختلف لمجمل الوحدات اللسانية ، وبالتالي نكون امام منظومة مختلفة . سنطلق على هذه المنظومة مصطلح (Vernaculaire) لغة محلية ؛ وهي تقليدياً معروفة بوصفها لهجة بلدية (لهجة Orléans) .

في ليموج أو في بلّاك ، تتعايش الفرنسية المعقّدة (F_n) مع لهجة محلية (f₃) وفي الريف الليموزي تفسح (f₃) المجال أمام لهجة بلدية اخرى (لهجة غربية شمالية) بشكل مألوف، وهي من تلوّنات الاوكسيتانية المعصاة في الماضي باسم اللهجة المحلية الليموزية .
اما خطاب سكان ناربون فيتطابق إما مع (F_n) وإما مع لهجة محلية فرنسية (f₄) ، وفي الريف الناربوني ينحصر استعمال (F_n) و (f₄) امام الاستعمال الشفهي للهجة بلدية (لهجة غربية جنوبية) كانت تدعى في العاضي اللهجة المحلية اللانغدوكية . (لغة الأوك (Langue d'oc) .

يقابل التلوّنات المحكية من الاوكسيتان ، تلوّن مكتوب هو اللون الأدبي الممثل بنصوص قديمة وحديثة ، والذي ينزع حالياً الى الاندماج في مجال التسليات ، وكذلك في مجال المدرسة والثقافة . حتى بالنسبة إلى بعض سكان المدن . ان تلوّنات الاوكسيتانية ، الاقليمية والأدبية ، هي موضوع دراسة في التعليم الثانوي (حتى وان كان لا يخصص لها سوى وقت قليل ووسائل متواضعة) وكذلك في عدة معاهد جامعية . زد على ذلك ، أنها اليوم متداولة في قسم من الصحافة وفي الأسطوانات ، ولكن وسائل الاعلام بوجه عام لا تخصص لها سوى مكانة هامشية^(٦) ، كما هو الحال ايضاً بالنسبة

(٦) راجع بهذا الموضوع : تعليم اللغات الاقليمية ، في Larousse ، مجلة اللغة الفرنسية ، العدد ٢٥ (شباط ، ١٩٧٥) .

الى « اللغات الاقليمية » الأخرى .

إذن ليس للجماعات التي تعيش في فرنسا القاموس الشفهي نفسه . ففي مونتارجي ، شاتودون أو أرجنتاي ، ليس القاموس الشفهي لأكثرية الجماعات ، معيّزاً إلا بالتباين ضمن الألسن . وفي ليموزان أو في الناريوني ، يضيف القاموس الشفهي للجماعات لونا أو عدة ألوان من اللهجة البلدية الأوكسيتانية الى تلوّنات اللغة المسماة مشتركة . وفي بريتانيا (Bretagne) ينضاف لون أو عدة ألوان من اللهجة السلتيّة - البريتانية إلى التلوّنات الفرنسيّة . أما في الألزاس واللورين الشمالي الشرقي ، فيمكن للقاموس الشفهي أن يتضمّن ، فضلاً عن التلوّنات الفرنسيّة ، لونا من الفرنكونية ، المتحدرة من السويسرية الألمانية القديمة أو المحدثّة ، وكذلك الاستعمال السلبي للألمانية سواء في القراءة أم في الاستماع ، وهناك أخيراً لون من الألمانية اليهودية التي يتكلمها عشرة آلاف شخص تقريباً . إذن يتميز القاموس الشفهي بعدد كبير من الفرنسيين بالتباين بين الألسن .

في أرجنتاي ، ناريون أو ستراسبورغ يمكن لقاموس بعض الجماعات الشفهي أن يستبعد اللون الفرنسي المقعد (Fn) ، وأن يتضمّن لونا أو عدة ألوان من المنظومات البرتغالية ، الإسبانية ، العربية ، البربرية (الأمازيغية) أو الإيطالية ... ، وأن يتقبّل لونا من الفرنسيّة تعاني بناءً واستعمالاته من التأثيرات المتبادلة تحت ضغط المنظومات الأخرى الداخلة في القاموس الشفهي عينه . وأن الجيل الأحدث بين هذه الجماعات ، عندما يجري إدخاله إلى المدرسة ، يمكنه أن يستدخل الفرنسيّة المقعدّة (Fn) في قاموسه الشفهي وأن يزيل من التلوّنات الفرنسيّة المكتسبة ، التأثيرات الناجمة عن وجود منظومات أخرى . وقد يحدث أن يفترق القاموس الشفهي لهذا الجيل الفتي ، عندما يفقد المنظومات البرتغالية ،

الاسبانية ، الايطالية ، العربية او البربرية وتلوثاتها . او عندما لا يحتفظ منها باستعمالها السلبي .

إلا أن الجماعات أو الأفراد الذين يتضمّن قاموسهم الشفهي لوتاً أو عدّة الوان من المنظومة الفرنسية ، لا ينحصرّون في نطاق أراضي فرنسا . ومثال ذلك في لوكسمبورغ حيث يشكل لوتن الفرنسية المقعدّة (F_n) ، في استعماله الشفهي والكتابي ، جزءاً من القاموس الشفهي للبورجوازية للطبقات القيادية ، لأنّ تعليم الفرنسية والألمانية يبدأ منذ السنوات الأولى في المدرسة الابتدائية ولأن كل ما يُكتب وما يُطبع هو بالفرنسية (أو بالألمانية) ، في حين أن كل حوار يدور بالليكسمبورغية (Reimen, Luxembourg, p. 89 . 102) .

أما في مناطق جزر الأنتي (Antilles) حيث يجري تعليم الفرنسية ، فيمكن للقاموس الشفهي الخاص بالجماعات الاجتماعية و / أو الاقليمية ان يتضمّن الفرنسية المقعدّة (F_n) ولوتاً محلياً . إلا أن هذا الأمر لا يحدّ حقاً من استعمال لهجة مولدة (Créole) لا يمكن خفض بُناها الحالية ، مهما أمكن لأصلها ان يكون ، الى البنى الخاصة بلون من الفرنسية .

ويمكن للقاموس الشفهي الخاص بسكان الكوبك (Québec, Canada) ان يتضمّن الفرنسية المقعدّة (F_n) ، إلى جانب لهجة من لهجات الفرنسية المحلية ، ولوتاً أو عدّة الوان من المنظومة الانكليزية . زدّ على ذلك أن الأكاديميين في ايقوسيا الجديدة يستعملون لهجة محلية فرنسية ، هي بشكل خاص لون مستعمل شفهيّاً ، ويجري تداولها في الوسط العائلي والملاهي .

وفي بلدان المغرب ، تستعمل العبارات الإسلامية اللون الموسوم بالعربية الماثورة (الكلاسيكية) حصراً ؛ وفي العائلة ، يجري استعمال اللهجات العربية المحلية أو أحياناً المنظومة

البربرية (الأمازيغية) . واللون الموسوم بالعربية المأثورة المعصرنة أو أيضاً العربية الحديثة يشغل جزءاً من مجالات المدرسة والثقافة والإدارات وبعض المناشط المهنية . أما العربية الموسومة بالوسيط (لهجات محلية تمارس الاقتراض ، لاسيما الاقتراض المعجمي من العربية الحديثة) فيمكن استعمالها في الإدارة أو في أماكن العمل والتسليه . وأما المنظومة الفرنسية ، الممثلة بلون من الفرنسية المقعدة (F_n) وبلون محلي ، فيمكنها أن تتقاسم مع العربية وتلوناتها عدداً معيناً من الميادين والمجالات ، باستثناء ميدان العبادات والمشاعر ، وميدان الأسرة بشكل عام جداً . عندئذ ستمتثل عدد التلونات اللسانية الداخلة في القاموس الشفهي لبعض الجماعات المغربية .

يؤكد فيشمان (Sociolinguistique, p. 43) على وجود متعدد لساني منذ اللحظة التي يكون فيها للأفراد لون لساني واحد مشترك ، على الأقل ، ويكون لهم أيضاً معايير وقواعد لاستعمال هذا اللون استعمالاً صحيحاً . وإذا شئنا أيضاً الكلام على متحد لساني فرنسي ، فلن نستطيع أن ننحو هذا المنحى إلا لأن القاموس الشفهي لمجموع من المتكلمين يتضمن ، فضلاً عن الفرنسية المقعدة (F_n) التي يبدو توزيعها ذا ثغرات ونواقص ، لهجةً محلية فرنسية والقواعد لاستعمال هذا اللون ذاته استعمالاً صحيحاً .

إن التوازن الداخلي لقاموس الفرد أو الجماعة الشفهي هو بالضرورة توازن هش وظرفي ، فيمكن التخلي عن تلوّن لساني ، ويمكن لهذا اللون أن يتقاطع مع لون آخر ، الخ . وفي هذه الظروف والشروط لا يمكن تصور المتعدد اللساني إلا كواقع تتواصل إعادة تنظيمه باستمرار ، وهو لكي يُحدّد نفسه ، لا يعود أمامه ما يفعله بالتعايش الجغرافي بين جميع أعضائه ، ولا يتألف واستقلالية المجموع الذي يمكنهم أن يشكّلوه . وفي نطاق المتحد اللساني

المعتبر على هذا النحو ، لا تعود المسألة مسألة وحدات قومية ،
دولانية أو إدارية ؛ وليس بمستطاع السنغال وبلجيكا وفرنسا
والكويك أو المغرب ، بوصفها وحدات من هذا النوع ، ان تنتمي الى
متحد لساني فرنسي .

II / ١٣ - المتحد الخطابي ، المدار اللساني

كان بلومفيلد يقترح (Langage, p.44) تعريفاً آخر للمتحد
اللساني: إنه جماعة من الناس تعمل وتتصرف بواسطة الخطاب.
انن يندرج الباحثون الذين يؤثرون مفاهيم الخطاب والتفاعل
الاجتماعي ، في مقاربة للواقع يقترحها هذا التعريف الثاني
لبلومفيلد . أما هيمز (Speaking, p.92 ets.) ، أحد رواد
اثنوغرافيا الخطاب ، فيقدّر ان الموضوع الأول للبحث يتعين ان
يكون المنشط الخطابي (Speech activity) للسكان. ويتمتدث غومبرز
(Types, p.463) عن المتحد الخطابي (Communauté de discours)
الذي لم يعد في الإمكان أن يتحدد ، حسب قوله ، بمقتضى لغة
واحدة ، ولا حتى بمقتضى لون لساني واحد . والتدليل على هذا
الواقع ، يفضل غومبرز عملياً مصطلح المدار اللساني (Aire
linguistique) . والمدار اللساني هو جماعة اجتماعية ذات لسان
واحد ، لسانيين أو عدة السن ، تدين بتماسكها الى تواتر التفاعل
الاجتماعي وكثافته . وهو مدار يتعيّن من المدارات المحيطة به ،
ويتحدّد بواسطة خط ضعيف على مستوى الإبلاغية الاجتماعية.
ويمكنه أن يتكون من جماعات صغيرة متحدة باتصال ثابت بين فرد
وفرد ، وأن يغطي مناطق واسعة ، حسب درجة التجريد التي يُراد
للبحث أن يطالها ؛ ولا يعطي غومبرز أية قيمة لسمة المتحد
التعريفية ، ما عدا مفهوم التآلف الاجتماعي ، التفاعل الاجتماعي ،
وحده . وعليه ، فإن البربر الجزائريين الذين كانوا يعيشون في

العاصمة الجزائرسنة ١٩٨١ ، مثلاً ، يشكلون متحداً خطابياً (CD) .
ويمكن لقاموس هذا المتحد الشفهي أن يتضمن ثلاث
منظومات لسانية مختلفة ، البربرية ، العربية والفرنسية . ولوناً أو
عدّة ألوان من كل منظومة من هذه المنظومات . وبشكل عام ، ليست
البربرية مكتوبة ولا يجري التدريس بها ، وبالتالي سيجري تمثيلها
في القاموس الشفهي للمتحد الخطابي (CD) بواحد أو بأكثر من
تُونانها الإقليمية ، وسيجري تمثيل العربية بلونها الجزائري وبللون
الموسوم بالعربية المأثورة ، سواءً بالحد الأدنى من هذا اللون الذي
يستلزمه الانتماء إلى الدين الإسلامي ، أو بأكثر من هذا الحد
الأدنى ، وبالأخص عند المتكلمين الذين سيجري إدخالهم إلى
المدرسة . وعندها يمكن لهؤلاء الأخيرين أن يضيفوا إلى قاموسهم
الشفهي العربية المأثورة المحدثّة والعربية الموسومة بالوسيطّة ،
وكذلك اللواناً من الفرنسية . ويمكن لمتحدّات خطابية أخرى (متحد
البربر الجزائريين الذين يعيشون في باريس ، ومتحد العرب في
تونس أو القاهرة ، والمتحد الذي يضم أفراد ولاية جاكارتا ، أو
سكان شاتودون ، الخ) أن تتضمن في قاموسها الشفهي لونهاً أو
عدّة ألوان من منظومة أو من عدّة منظومات داخلة في قاموس المتحد
الخطابي (CD) . إذن لا يشكل مجموع المتكلمين في منظومة لسانية
أولون من منظومة لسانية ، متحداً خطابياً واحداً بالضرورة.

أن المعتقد الساذج لدى غير المختصين وفرضية فلسفة
اللغة ، كانا قد جعلتا من المتحد اللساني جماعة بشرية احادية
الشكل ومستقلة تتكلم لغة ، هي ذاتها مؤتلفة ومستقلة . والبحث
اللساني يتخذ ، من جانبه ، تألف المنظومات كفرضية انطلاقاً ، لكنّه
يسلم بأن فوارق واختلافات في مباني اللغة يمكنها أن ترتبط بتلون
الاستعمالات . ومع الاستمرار بالقول والأخذ بمفهوم المتحد ذاته
بوصفه مفهوماً مناسباً ، مفهوماً مفيداً على الأقل في مرحلة معينة

من مراحل البحث ، مفهومياً يرتبط حتماً وبكيفية ما بمفهوم الإبلاغ أو الإتيصال ، يرفض البحث اللساني ، مع ذلك ، أن يترك مصطلح المتحد يسود بظلامه المسائل اللسانية واللغوية ذاتها ، وبعد إعادة النظر في هذه الفكرة المألوفة والفخمة ، فكرة تآلف المتحدات اللسانية (Martinet, Langue et fonction, p.128) ، كان لا بد من البحث عن سمات تعريفية جديدة ، وقد يتحدد المتحد اللساني ، أولاً بمقتضى منظومة لسانية ؛ ولا يمكن التعريف به إلا بمقتضى لون واحد من منظومة واحدة ؛ وإن مزايا الجماعة الاجتماعية وعوامل تماسك الجماعة الاجتماعي التي تؤلف المتحد اللساني ؛ والحري الكلام على متحد لساني، الشيخ، إن المقترحات اليوم لشتى، وإن البحث عن سمات تعريفية للمتحد اللساني يطرح ، وحده ، المشاكل التي يمكن أن يصادفها كل علم ، مجدداً ، وبكل تعقيداتها - من حيث اختيار مناهجه وطرائقه ، ومن حيث تحديد موضوعه بالذات - كل علم ينكب على الإحاطة بالعلاقات والروابط بين الوقائع اللغوية والوقائع المجتمعية.

الفصل الثالث

المواقف اللغوية الأحادية

« لا يوجد شخصان يستعملان اللغة بالطريقة عينها تماماً » . ١ . مارتينه

اللغة الأحادية والمجتمعات « البسيطة »

III / ١ - البساطة: فرضية وواقع

هناك متحدات لا يستعمل أعضاؤها سوى منظومة واحدة لكي يقيموا الاتصال اللساني في ما بينهم . وخلافاً لما أمكن الاعتقاد فيه لزمن طويل ، ليس من المؤكد أبداً أن تكون هذه العتحدات هي الأكثر عدداً على الصعيد العالمي ، ولا أنها تمثل فيه المعيار والقاعدة . وفوق ذلك ، لا شيء يضمن للتباين ضمن اللسان ، وهو الوحيد الذي يظهر على هذا الصعيد ، أن يجعل من هذه العتحدات موضوعاً دراسياً بسيطاً .

لا يزال بعض المجتمعات ، اليوم ، محصوراً من حيث العدد ، ومعزولاً نسبياً . وإن معظم نشاطات تلك الواقع وتحويله تقع في هذه المجتمعات تقريباً على عاتق الجميع بالتساوي ، وإن كثيراً من المصالح فيها لا يزال مشتركاً بين أكثرية أعضائها ، ويغلب الاتجاه إلى اعتبار هذه المجتمعات كأنها مؤتلفة ومتناسقة .

يقول البعض إنها بسيطة ، ويصفها البعض الآخر بأنها بدائية ، وعندئذ يفدو من الممكن التسليم نظرياً بأن الحاجة إلى تلوّنات لسانية متميزة بكل وضوح ، تظلّ فيها حاجة محدودة ، وإن التباين ضمن اللسان الواحد ما هو إلا محدود الامتداد والسعة في هذا النوع من المجتمعات التي كانت موضوع توقُّع في الدراسات الاثنوسانية الأولى.

إلا أن فيشمان يلفتنا بحق ، عندما يتعلّق الأمر بالاتصال والإيلاغ ، إلى عدم وجود متحد متجانس ، باستثناء ما هو قائم في العالم التبسيطي لبعض النظريين والباحثين . فالمجتمع الموسوم بالبساطة ، والمفترض أنه متجانس ، يمكنه إذن أن يشهد في داخله تمايز لونين لسانيين أو أكثر . زدْ على ذلك ، أن الاتصالات اليومية أو المتواصلة على الأقل ، التي توحد أعضاء مجتمع كهذا ، لا تضمن بالضرورة لكل فرد كسباً مباشراً لكل من التلوّنات القائمة . ومثال ذلك ، عندما تكون السلطة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمعتقدات السحرية - الدينية ، تكون المنظومة التراتبية المقابلة في نهاية التصلب غالباً . ويمكن لهذا التصلب في تمايز اجتماعي محدود أصلاً ، أن يؤدي إلى تمايز لساني يتعارض مع التفاهم الداخلي المتبادل . وعلى هامش ذلك ، يصل الأمر بلون من هذه الألوان ، إلى حد فقدان وظيفة الاتصالية ذاتها . وهذا هو حال بعض اللغات الخاصة .

III / ٢ - اللغات الخاصة

عندما تظلّ السلطة أمراً شاملاً للجماعة بكليتها ، أو على الأقل للجماعة الفرعية ، جماعة الراشدين بكليتهم ، فإن التمايز الاجتماعي بين الراشدين والأولاد يمكنه أن يفرض على المراهقين احتفالات تلقينية يجري اعدادها ، تقريباً على الدوام ، باكتساب لون لساني

يسمى اللغة الخاصة (Langue spéciale) . وعندما تكون السلطة في أيدي بعض الأفراد ، يكون « الدور المناط بهؤلاء الأقوياء » (على حد تعبير اللسانة الاجتماعية التفاعلية) هو أيضاً خليقاً بأن يُربط بلون خاص من القاموس الشفهي ، وهو لونٌ يجري التوافق على الاعتراف له بأنه هو أيضاً لغة خاصة ، ويقصد باللغة الخاصة التلون الذي لا يُستعمل إلا من قبل أفراد أو جماعات فرعية . موضوعه «في ظروف خاصة» (Joseph Vendryes, Le langage, 1923) . وقد ينطبق الأمر هذا على الحكام والقضاة والرهبان والسحرة ورؤساء القبائل أو العشائر ، والجماعات الفرعية لقدامى أو لـ «نبلاء» متعلمين في مواجهة مرؤوسيهـم ورعيتهـم ، أو أيضاً الجماعات الفرعية للراشدين في مواجهة الأولاد ، الخ .

إن اللغات الخاصة ، المعروفة على هذا النحو ، لا يمكنها أن تكون ألواناً مرتبطة فقط بالمجتمعات المفترض أنها بسيطة ومتألفة : فالوقائع اللسانية والسير الاجتماعي للغات الخاصة لا يختلفان ، بالطبيعة ، عن وقائع وسير الألوان الملحوظة في المجتمعات المركبة ، مثل اللهجات العامية أو أيضاً المصطلحات التقنية أو العلمية ، الخ . (انظر لاحقاً : III / ١٠ و III / ١١) .

يبدو أن اللغات الخاصة مطبوعة ، بشكل خاص ، على مستوى معجميتها . فهذه المعجمية لا تحتوي ، بعامّة ، إلا على عددٍ صغير من الوحدات : فقد لا تملك اللغة الخاصة بالدوغون في سانغو ، إلا معجماً من ٣٠٠ كلمة تقريباً (M. Cohen, Matériaux, P.88) . وهذا يفسر كون بعض الباحثين يتكلمون ، حينئذٍ ، على « بقايا لغات » .

في لغة الدوغون الخاصة ، تشابه بعض الكلمات كلماتٍ من منظومة دوغون ، دون أن تكون منها . وما أكثر الوحدات المعجمية في هذه اللغة الخاصة ، التي تبدو كأنها نتاج تشويهاتٍ منظومية مفروضة على معجمات (lexèmes) الدوغون (Cohen, ibid.) . وأن

تشويهاً مماثلة جرى رصدتها ، بشكل مألوف ، في لغات خاصة أخرى : فهي تستعين ببادئات ولواحق داخلية ولواحق تتكرر دائماً وأبداً ، أو أنها تستعين أيضاً بالتضعيف ، وبالتحريك أو القطع لبعض المقاطع ، إلخ . هنا أيضاً ، تفرض نفسها المقارنة مع بعض التلونات اللسانية المعروفة في المجتمعات المركبة . ففي الميدان الفرنسي ، نلاحظ أن Le Verlan وهي مقلوب ← à l'envers ← l'enVer ← Verlan هي بكل وضوح لون موضوع لغايات ترميزية ويوسائل في غاية البساطة ، وأنها تنوع بشكل رئيسي من معجميتها بواسطة القلب المنهجي للمقاطع . ومثال ذلك عنوان أغنية حديثة الذبوع ، كان يقول :

[Les betô] = Laisse béton! = Laisse tomber.

إن التمايز في معجمية لغة خاصة يمكنه أيضاً أن يلجأ إلى الاقتراض . ففي بعض الأحيان تأتي الوحدات المعجمية المقترضة من لهجات عامية في المنظومة التي تمارسها الاكثرية ، أو تأتي أيضاً من منظومات لسانية مختلفة . والحالة القصوى هي الحالة التي تكون فيها اللغة الخاصة ذاتها منظومة مختلفة عن المنظومة التي يمارسها المجتمع بأسره .

وبحسب الطرق نفسها ، يمكن للتشويه المنظومي المطبق على الوحدات المعجمية أن يطل الوحدات الصرفية . ولكن يُلاحظ أيضاً أن كثيراً من اللغات مطبوع بطرق صرفية تمثل ، بخلاف ذلك ، تبسيطاً مفرطاً للطرق التي يمارسها التلون اللساني لدى الاكثرية . مع ذلك ، يبدو أن الحالة الأعم لا تزال الحالة التي يكون فيها علم النحو وعلم الصوت المتعلقان باللغة الخاصة ، علم نحو وعلم صوت اللون اللساني الخاص بالاكثريّة ، أو أنهما يظلان قريبين منهما .

ويحدث أن تكون اللغة الخاصة مطبوعة في كل المستويات (الصوتية والنحو والمعجم) بطرق لسانية تنتمي الى حالة لغوية

قديمة ، عندما لا تنزع اللغة الخاصة ، بكاملها ، إلى التناهي مع هذه الحالة اللغوية القديمة ، وهذا ما يبدو ممكناً حتى في غياب كل تراث مكتوب .

وفي أقصى حد ، عندما تتراكم التشويبهات المعجمية أو الصرفية ، والمقترضات والبدائيات من كل الأصناف ، يصل الأمر باللغة الخاصة الى درجة لا تعود فيها سوى سلسلة من الصيغ الطقسية الفارغة تقريباً من كل معنى ، وهذا الأمر يصلح عندئذٍ لغير المختصين ، وكان هذا ، بلا شك ، واحداً من الاهداف الأولى المنشودة . ولكن هذا الأمر قد يصلح أيضاً لأولئك الذين يتعين عليهم أن يستعملوا هذه الصيغ ، والملزمين عندئذٍ بأن يفرضوا على أنفسهم استنكارها دون فهم أو تقريباً دون فهم ، وإذا توصل اللون المعسى لفة خاصة ، بعد بلوغه هذه المرحلة حيث لا يعود يضمن وظيفة الاتصال التي تعتبر ، تعريفاً وظيفية كل لغة ، اذا توصل هذا اللون إلى الاستمرار أيضاً لزمان معين ، فمرد ذلك إلى كونه قد اكتسب وظائف اجتماعية يمكنها أن تكون مضمونة ، بحسب كل احتمال ، بواسطة اية علامة أو منظومة علامات غير لسانية .

ومما لا ريب فيه أن اللغات الخاصة ليست هي الاكوان الوحيدة الخليفة بالتمايز في المتحدثات الأحادية اللسان ، المحدودة نسبياً ، للمؤلفة والمعزولة ، ومع ذلك يظل صحيحاً أن وجود هذه اللغات الخاصة يبين بكل وضوح كيف يتوصل تلوّن اجتماعي الى التمايز لدرجة انه يلحق الضرر بالتفاهم المتبادل ، وحتى أنه يفقد وظيفته الإبلاغية . إن التباين ضمن اللسان الواحد يبلغ هنا حدوداً ، لا يكفي تمايز اجتماعي ضعيف الانتشار ، لجعله قابلاً للتوقع منذ الوهلة الأولى .

يمكن للممارسة المنهجية للزواج الضارحي ان يفرض على متحد أحدي اللسان ، محدود ، مؤتلف ومعزول نسبياً ، تبادلات

تحافظ فيه على تلوّنات لسانية ، يكون واحدها خاصاً بالجماعة الفرعية للرجال ، وثانيها خاصة بالجماعة الفرعية للنساء . وأن التلوّنات التي تسمى أحياناً لغات (خاصة بـ) النساء يمكن أن يكون أصلها - دون أن يكون مع ذلك ، وبلا شك ، الأصل الوحيد الممكن - تنوعات جغرافية في المنظومة التي تمارسها الجماعة الفرعية للرجال ، إن توزيع التلوّنات اللسانية حسب الجنسين يمكنه أن يستمر على مدى الأجيال ، وفقاً لكيفيات مختلفة ، وحتى أنه يمكنه أن يستمر ، حتى لو لم تعد موجودة ممارسة الزواج الخارجي ، أو لم تعد موجودة تقريباً إلا كذكرى ، والنساء الداخلات في المتحد من طريق هذه الممارسة للزواج الخارجي ، عندما لا يحملن إليه لونها جغرافياً من منظومة لسانية تمارسها جماعة الرجال الفرعية ، بل يحملن إليه منظومة أخرى ، عندئذ نخرج من نطاق التباين ضمن اللسان الواحد ، ونجد أنفسنا مجدداً في مقام ثنائية اللغة أو تعددية اللغة ، وهذا الأمر أبعد ما يكون من الحالات النادرة . (انظر لاحقاً : ٢/IV إلى ٩/IV) .

III/٣ - تقلب المواقف اللغوية الأحادية :

يبدو أنّ عزلة المجتمعات الأحادية اللغة ، الصغيرة ، والمؤتلفة نسبياً ، ليست أبداً سوى عزلة نسبية ، فبالإضافة إلى المبادلات التي تفرضها ممارسة الزواج الخارجي ، يمكن للمجتمعات اللغوية الأحادية المحدودة أن ترى نفسها وقد فرضت عليها تبادلات تجارية و/أو إدارية مع مجتمعات أوسع والقوى ، الأمر الذي يكفي لتهديد الأحادية اللغوية بالذات لهذه المجتمعات المحدودة عددياً . يذكر موريس هوي (M. Houis, Anthropologie linguistique de l'Afrique, P. 150 et 151).

حالة المنطقة الجبلية في الجيرا (تشاد) حيث كان لا يزال

كل متحد من القرويين المستقلين ، يملك تقريباً لفته الخاصة به حتى عهد قريب . وقد أنشأت الإدارة الاستعمارية في المنطقة سوقين ثابتين ، أحدهما سنة ١٩٢٦ ، والثانيهما سنة ١٩٣٢ . في مرحلة أولى ، شجع هذا الأمر على استعمال العربية كلفة تداول بين المتحدات ، واليوم كثيرون هم الناس ، البالغون سن الأربعين في الجيرا ، الذين لا يتكلمون سوى العربية ، يعتبر م . هوي أن العربية ، بعد مرحلة من تعميم الثنائية اللغوية في كل متحد ، باتت من الآن فصاعداً ، في هذه المنطقة ، لغة وضع جديد من الأحادية اللغوية ، هو بدوره في طريقه إلى الشمول والتعميم . وفي هذه الظروف ، لا بد من التسليم حقاً بأن المتحدات اللغوية الأحادية ، المحدودة عددياً ، المعزولة نسبياً وغير المتميزة اجتماعياً إلا قليلاً ، لا تعمل دائماً مواقف اجتماعية / لسانية بسيطة ، كما أنها لا تعمل أوضاعاً اجتماعية / لسانية مستقرة .

المجتمعات المركبة والتلونات اللغوية

• ما من متحد قليل الاتساع ، مؤلف لغوياً ، .

١ . مارتينه

III / ٤ - الموقف اللغوي الأحادي والمجتمعات المركبة .

يمكن للمتحدات اللغوية الأحادية أن تكون مجتمعات مهمة ، عددياً ، وتشغل من جزاء ذلك مجالاً جغرافياً واسعاً ، مجتمعات جرى التوافق على وصفها بأنها مركبة أو مكثفة . وأن تنوع شروط الوجود الموضوعية وتقسيم العمل المتقدم يولدان في هذه المجتمعات فروقات وتناقضات في المصالح ، في الوظائف والمشاريع الاقتصادية ، السياسية والثقافية / الاجتماعية ، محددة على هذا

النحو طبقاتٍ وجماعات اجتماعية لا يمكنُ لمسالكها ، ومنها المنشط اللغوي ، أن تكون متماثلة ومتماهية ، ولكن الطبقات والجماعات الاجتماعية ، مهما أمكن لفروقاتها وتعارضاتها أن تكون واضحة ، ليست إلا وحدات جزئية ، بلا واقع خارج المجتمع الشامل ، وليس لها وجود بدورها إلا من خلال العلاقات بين الطبقات والجماعات الاجتماعية . وهذه العلاقات تختلف بنوعيتها ، بدرجةها ، بتموضعها ، الخ . دون أن يتعارض ذلك مع التداخل الاجتماعي ، مع تراكب الجماعات الاجتماعية ، ومع مساهمة أفراد كثيرين في جماعات مختلفة . في هذا النوع من المجتمعات اللغوية الأحادية المركبة ، تفرض نفسها إذن ، الحاجةُ إلى تلوّنات اجتماعية لغوية متكيفة مع العلاقات داخل الطبقات والجماعات الاجتماعية ، وإلى تلوّنات لغوية جغرافية في أن واحد ، وذلك على قدر ما تكون جماعة أو عدة جماعات أو كانت في الأصل مرتبطة ، بشكل خاص جداً ، بمنطقة من المجال الجغرافي الذي يشغله المجتمع الشامل . أخيراً ، تفرض نفسها الحاجةُ إلى تلوّن يعمل في مستوى المجتمع الشامل ويعيش علاقات جماعية متبادلة ، وهو تلوّن يحدّد هنا بوصفه تلوّناً ناقلاً .

III/ ٥ - تشكّل اللغة المسماة مشتركة (عامة)

إن السمة التعريفية التي يؤخذ بها ، عموماً ، لأجل هذا الواقع اللغوي (كان يتوجب حقاً ارتكاب رؤيتها تظهر مجدداً) هي سمة الوحدة ، التآلف . وقد يكون للغة المسماة مشتركة طابع جوهري هو الحفاظ على الوحدة في الاستعمال الحيّ (Cohen, Matériaux, p. 70) . وهذه الوحدة ستكون ، في ما يتعدى التباينات المحلية والاجتماعية ، وبعد إلغاء كل الانحرافات ، الشكل الوحيد بين جميع أشكال العاميات ، الشكل الذي يفزع نحو اللغة المدعومة ، دون أن يندمج

بالضرورة معها (Dubois et al., Dictionnaire, p. 449) ، الخ .
مع ذلك ، لا يجري دائماً توضيح المصدر الذي جاءت منه
المحاولات العاملة على وضع أو صون وحدة اللغة المسماة
مشتركة ، لسوء الانحرافات ولتحديد مكانة هذا الشكل الوحيد في ما
يتعدى التباينات الجغرافية والاجتماعية . كذلك لا يجري التوضيح :
بأي هدف يمكن للغة المسماة مشتركة أن تنزع إلى التلون الموسوم
بأنه مدعوم ، دون الاندماج معها اندماجاً الزامياً . عندما يتعلق الأمر
بتعريف اللغة المسماة مشتركة ، تعريفاً لسانياً واجتماعياً ، يبقى
في الواقع كثير من الشبهات والالتباسات التي تنعكس في مصطلح
فتي بشكل خاص ، وعلى هذا النحو يجري في اتجاه اللغة
المشتركة، عينه ، اقتراح : Koinè كلفة نموذجية أو كلفة مقولبة ،
لغة حضارة ولغة ثقافة (بالأخص عندما يتجاوز استعمالها حدود
دولة واحدة) ، لغة متداولة ، لغة استعمالية ، لغة مركزية ... حتى
ليحدث استشعار الحاجة إلى وصف مزدوج ، وعندئذ يجري الكلام
على لغة قومية مشتركة أو أيضاً على لغة ثقافية مشتركة (لغة
ثقاف) .

مع ذلك يبدو أن الاجماع قد انعقد حول المسار التكويني ،
حول التاريخ الأول تماماً للغة تسمى مشتركة ، ليس هناك تكوين
للغات كبرى ترمي إلى أن تصبح لغات رئيسة أو فريدة ... إلا في
المناطق الحضارية المتطورة والمالكة ، تقريباً على الدوام ، منظومة
كتابية ، كما كان يشدد على ذلك مارسيل كوهين (Matériaux, II, p.
70) إن واحدة من اللغات الإقليمية ، لغة الجماعة الاجتماعية الأميز
والاقوى ، تفرض نفسها على البلاد قاطبة (Philipp, Guide, p. 395) .
في الاصل ، على الأقل ، اللغة المسماة مشتركة هي لغة
عامية كان لها الحظ السعيد ، فاكتمبت لأسباب غير لسانية -
كالاسباب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الثقافية - أهمية

خاصة في متحدّ معيّن (Marcellesi et Gardin, Linguistique sociale, p. 84). إن اللغة المسماة مشتركة لا يمكنها إذن أن تكون في البداية سوى لون إقليمي (أو شبكة ألوان إقليمية متقاربة) . كان حظها الأول في أنها كانت محكية وبالتالي جرى ترقّيها في جماعة أو عدة جماعات صارت مهيمنة اجتماعياً.

إن المسار الذي تسلكه جماعة أو عدة جماعات ، لتفرض نفسها ، سيغير بالذات طبيعة العلاقات بين الجماعات وسيزيد من وتيرتها ومن كثافتها . إن هذا المسار يشدّد من تداخل الجماعات الاجتماعية ، ويؤدّي إلى المشاركة في جماعات اجتماعية مختلفة بالنسبة إلى عدد من الأفراد متعاطف على الدوام ، وهو بذلك بالذات يخلق ثم يحافظ في مستوى المجتمع الشامل ، على الحاجة إلى تنوع لساني تحدّده وظائفه تماماً كأنه تنوع ناقل ، بالتماثل مع ما يجري تعريفه ، في نطاق التباين اللغوي الداخلي ، بوصفه لغة ناقل ، لغة جماعة خاصة تستعملها جماعات متجاورة إما للاتصال في ما بينها وإما للاتصال مع الجماعة الأولى ، في العلاقات بين الجماعات (Philipp, Guide, p. 397) . مع ذلك ، يتعيّن التشديد على أن التنوع الناقل المحدّد على هذا النحو ، لا يعمل فقط بين جماعات متجاورة ، بل يكون بشكل رئيسي مستعملاً بين جماعات متداخلة ، في أغلب الأحيان ، تداخلاً وثيقاً.

III/٦ - القوينة (الترميز والتفعيد)

إن التلوّن الإقليمي ، وقد أدّى وظائفه كتلوّن ناقل ، وحظي بالترقية على يد الجماعة أو الجماعات المهيمنة ، سيحظى بـ « فرصة ثانية » هي فرصة المرور بمسار القوينة (Codification) أو التكوين . فإذا كان تدوين منظومة لغوية معناه السعي لاستقرارها وتوحيدها ، نسبياً وأنيباً على الأقل ، فمن الواضح أنّ الخطوة

الأولى ، (وهي بلا شك واحدة من الخطى الأكثر حسماً في اتجاه تدوين معجمة ما) ، لاي نحو وكذلك لاية صواتة (ولكن مع نجساح اقل ، غالباً ، لهذه الأخيرة) تكمن أيضاً في الاقتراض من قانون مكتوب ، ومن تكييفه أو أيضاً من تدوينه وصوغه .

أولاً ليس مستعملو القانون المكتوب ، المتعلمون ، سوى جماعات فرعية محدودة ، في طبقة اجتماعية صارت مهيمنة ، لكنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمنطقة ما . كذلك لا يمكن للنصوص (قوانين ، أوامر وقرارات ، وثائق إدارية شتى أو أعمال أدبية) التي ينتجها هؤلاء المعلمون أن تعكس سوى تلوّن ضمن اللسان الواحد ، محدود الانتشار . ونتاج المتعلمين هذا ، جرى تثبيته لآمد طويل بواسطة الوراقين والنساخين أولاً ، ثم بواسطة الطباعة ، فاكسب بذلك فضل التعكّن من الانتشار على مسافات كبيرة ، وإن المدونات أو الوثائق المكتوبة ، إذ ثبتت منظومة لغوية لا تظهر فيها سوى خلافاً بنيوية محدودة ، إنما خدمت حقاً وبكل وضوح قنونة هذه المنظومة وتعميدها ، ولكنها أسهمت في الوقت ذاته ، وبكيفية فعالة جداً ، في التوحيد السياسي الذي قادته لسانها الجماعة أو الجماعات التي صارت مهيمنة .

عندما تكون أو تصبح جماعة أو عدة جماعات مهيمنة ، فإن الجماعات الأخرى قد تكون مضطرة لإقامة علاقات معها ، قائمة أولاً على المحاكاة والتقليد . وهذا على الأقل ما يقول به معظم القيمين على اللسان الاجتماعية الأميركية . وقد يجري تقليد الجماعات المهيمنة حتى في عاداتها اللسانية ، الأمر الذي من شأنه أن يجعل من هذه الجماعات جماعات مرجعية ، ومن عاداتها اللسانية اللغة المرجعية أو أيضاً اللغة المميزة .

وإن صواتة هذه اللغة المرجعية (المستقرة نسبياً بفضل قانون مكتوب) ، ونحوها وصرغها ومعجمها ، قد تغدو إذ ذاك نماذج

تصوغها ، بكل سرور ، الجماعة أو الجماعات المهيمنة ، لكي تقدمها كنماذج تقلدها الجماعات الأخرى . ومما لا شك فيه أن من الواقعية أكثر ، أن نعتبر أن الجماعة أو الجماعات المهيمنة قد احتاجت ، في لحظة معينة من تاريخها بشكل خاص ، إلى فرض عاداتها اللغوية على من كان لا يملكها ، وإلى تعليمه إيّاها ، وإنها بحثت منذ ذلك الحين عن استقرار النماذج الصوتية والنحوية والصرفية والمعجمية لكي تكتفيها مع شروط التعليم وأهدافه ومتطلباته . ويكلف جهاز كامل من المتخصصين (الأدبيين ، الكتاب ، النحويين ، المعلمين وكل أرباب اللغة الذين تبدو الطبقة المهيمنة قادرة وحدها على رعايتهم مادياً) باكمال وضع النماذج الواجب تعليمها . كتابة الصرف والنحو ، القواعد ، المعاجم لوائح بالأخطاء الإملائية ، كتب أمثال وأقوال وعبر ، عروض الشعر وقوافيه وبحوره ، الأسلوبية إلخ . . أو مؤلفات أدبية ، وعندئذ يجري كل شيء في اتجاه واحد : تثبيت من خلال الاختيار ، واختيار من خلال التنقية أو بالعكس من خلال الاقتراض . وبالتالي جرى التشديد بشكل مألوف على الطابع المركب الصوتي للغات المسماة مشتركة . ويكون منهجياً الاقتراض الذي تمارسه في بعض أطوار تكوينها ، لأن هذا التكوين مرتبط بتطور مراكز قوة قادرة على اجتذاب عناصر بالغة التنوع ، وصهرها ، (Cohen, Matériaux, II, p.72) . يتعين الاختيار لأجل تثبيت وتوحيد النماذج التي يتعين عليها الزد على شاغل التصويب اللغوي الذي يُعزى ، عموماً ، إلى الأغلبية . بيد أن هذا الشاغل لا تنقاسمه بالضرورة كل الجماعات المهيمنة . فهو لا يكفي وحده لتفسير الأهمية الخاصة التي يرتديها اللون اللساني المقوتن في المجتمعات المركبة ذات اللغة الوحيدة .

III/٧ - التعمير (التطبيع)

هناك كثيرٌ من التلونات اللسانية المقبولة لا يقبلها ، رغم تعييدها ، العدد الأكبر بوصفها النموذج اللساني الوحيد الذي يُرتجى العمل به . ذلك أن استعمالها لا يعمُ الصعيد الشامل للمجتمع ، وبعبارة أخرى نقول إن هذه التلونات المقبولة لسانياً لا تعاني ، رغم ذلك ، ما يسمى مساراً تطبيعياً (وفي هذا المعنى أيضاً ، يحكى عن مسار تعويد وقولية) . وبوجه عام جداً ، إن التلونات المقبولة التي لم يجر تعييرها وتطبيعها (أو تعييدها) هي تلك التلونات التي كانت مرتبطة بجماعات لا تملك الوسائل المادية لتعويد لسانى ، لأن تلك الجماعات كانت قد فقدت ، أو حتى أنها لم تكتسب ابداً الهيمنة والانتشار في المجتمع الشامل.

وعلى العكس ، من الميسور للجماعات التي تسيطر على سلطة الدولة والجهاز المؤسسي ، أن تطبع لونها لسانياً مقبولة . فمنذ أمد بعيد ، تفرض الطبقة المهيمنة قراراتها ونظامها بواسطة اللون اللغوي المتداول ، ثم المقبول والمقعد . وهذا اللون صار فعلياً ، وسيلة للحكم ومؤسسة دولانية بين المؤسسات الأخرى ، فالجماعة أو الجماعات المهيمنة ، بعدما اكتسبت أدوات التطبيع التي صاغها التعويد (قواميس ، قواعد ، كتب مرجعية ، الخ) ، أسست وطوّرت ، في مرحلة ثانية ، المؤسسات المطبّعة للغة : الأكاديميات ، المعاهد ، منظومة تعليمية مع مؤسساتها ، ومؤخراً وسائل الإعلام الجماهيري . وعندما تمنح الجماعات المهيمنة للون المتداول ، ثم المقبول والمطّبع ، المقام المؤسسي قانونياً ، الذي تتمتع به فعلياً منذ أمد طويل ، فإن هذا اللون يقدو عندئذٍ لغة دولة ، لغة قومية أو لغة رسمية . إن اللون المقبول ثم المطّبع ، والمرتبط على هذا النحو بالمؤسسات الدولانية الأخرى ، والمؤسس بدوره ، يكون

هيئتُه مرتبباً حقاً ، ارتببباً موضوعياً بنظام القيم ، وبأهداف ومصالح الجماعة أو الجماعات السائدة . وقد حدث أن جماعات غير مهيمنة قوننت لونبها اللغوي ، ولكن يكفي عندئذ أن يظل هذا اللون في معزلٍ عن المؤسسات الطبيعية ، مثلاً في معزلٍ عن النظام التعليمي وعن وسائل الإعلام الجماهيري ، حتى لا يعم استعمالها على صعيد المجتمع الشامل ، وحتى تبقى من الألوان غير المطبّعة وغير المعيارية.

ليس أمراً غير مهم بالنسبة إلى اللون المتداول ، ثم المقونن ، ألا يتخذ مساره مكانته في إطار ميزان الهيمنة الاجتماعي، ففي هذا الإطار ، في الواقع ، سيكون عليه ، أولاً ، أن يقوم بتصفية بعض الألوان اللسانية الأخرى (التي لا تتلاشى دائماً دون أن تتسرك ، إجمالاً ، بعض الآثار) ، وأن يغدو ، على هذا النحو ، اللون الأول ، وحتى الوحيد ، بالنسبة إلى عدد متزايد من المتكلمين ، ولكن ، في موازاة ذلك ، لا بد من هذا الأمر ، لأن اللون اللغوي يعمل في نطاق ميزان هيمنة اجتماعي ويظل هكذا تحت الرقابة الشديدة لأرباب الآداب ومحترفي اللغة التي يغدو تثبيتها، الممدد له سلطانياً ، نقياً للتغير اللساني ، والتي يؤدي شكلها الأحدي الصلب إلى نفي الحاجة إلى التلون حتى في التساوق ذاته ، وانطلاقاً من اللون الذي يواصل تادية وظائفه التداولية ، يتميز لونٌ مقعدٌ بصرامية ، ومُنَاطٌ بوظائف مرجعية وتعليمية ، وهو لونٌ ستحاول الطبقة السائدة تطبيعه بلا كلل ، وتعميمه على صعيد المجتمع الشامل.

وإن ما يسمى عموماً لغة مشتركة قد يرتكز أولاً على مجمل العلاقات التي يقيمها من خلال عمله، عددٌ معين من التلونات، وفي المقام الأول اللون التداولي واللون المطبّع : إن اللغة المشتركة هي أكثر من لون بسيط ، إنها منظومة ألوان لغوية.

III/8. اللون الشعبي

إن المسار التطبيعي يتضمن المسار التقعيدي (القانوني) ، لكن العكس غير صحيح : فهناك الكثير من التلونات المقوننة لم يجر تطبيعيها . أخيراً ، هناك بعض التلونات التي لم يجر أبداً تقعيديها ولا تطبيعيها ، واللون الشعبي هو من هذه الألوان . إن الجماعات الاجتماعية المهيمنة فرضت نفسها بهذه الصفة على جماعات لم تكن تشاركها ، في البدء ، اللون اللساني ذاته ، كما فرضت نفسها على جماعات تشاركها إتياء ، من بين هذه الأخيرة ، ظلت بعض الجماعات لأمد طويل ، بعيدة عن تناول أدوات التطبيع ومؤسساتها . وظلت القوننة حرفاً ميثاً بالنسبة إليها . ففي نظرها لا توفر العادات اللغوية للجماعات المهيمنة ، وظائف مرجعية . ولم يكن شاغلها الأكبر التصويب اللغوي ، ولم تكن تقيم ، على المحاكاة ، علاقاتها مع الطبقة المهيمنة . عندئذ ، استتب الخلاف بين اللون الذي وأصلت هذه الجماعات ممارسته ، واللون الذي قعدته الجماعات المهيمنة ثم طبعته كمعيار . إذن ، من المناسب الاحتفاظ ، اليوم ، باسم ألوان شعبية لتلك التي لها أصل إقليمي مشترك مع الألوان المطبوعة والمتداولة ، لكنها ظلت على هامش القوننة والتقعيد ولم تشارك ، رغم احتفاظها بوظائفها الإقليمية ، في المسار التطبيعي المعياري . إن بيار جيرو (P. Guiraud) يحدّد الفرنسية الشعبية، لا بوصفها اللون المحكي اليوم في أوساط الشعب ، بل بوصفها اللون المرتبط ، في الأصل ، بمنطقة باريس وجزيرة فرنسا (Le français populaire, p.1 à 12) . ويميّز هذه الفرنسية الشعبية من العامية (Argot) ، وكذلك مما يسميه الفرنسية المألوفة ذات الاستعمال الثقافي التي قد لا تكون شيئاً آخر غير اللون المتداول من اللغة المشتركة.

وإذا أخذ بهذا التصديد للون الشعبي ، فإن هذا اللون لا يمكنه ، بكل وضوح ، أن يظل وقفاً على المكانة اللسانية / الاجتماعية الفرنسية وحدها . ففي المقام اللساني / الاجتماعي الانكليزي ، مثلاً ، قد تكون الـ (Cockney) ممثلة جيدة جداً للون شعبية . في حين أن من الصعب إيجاد المعادل لهذه الألوان في المكانة اللسانية / الاجتماعية الراهنة في الولايات المتحدة . بالتعارض مع الألوان المتداولة والمطبوعة في اللسانية ، يمكن على الأرجح تمييز هوية لون شعبي قسماً في اللسان . وما لا شك فيه ، أن اللون التوسكاني الأكثر اتساقاً بالسمات المحلية النوعية (Martinet, Lan-gue et fonction, p.136) هو الذي يستوجب أن تُحفظ له تسمية اللون الشعبي ، في الوضع الاجتماعي / اللساني الإيطالي ، في مقابل الألوان المتداولة والمطبوعة التي تؤسس الإيطالية المعاصرة .

إن تحديد اللون الشعبي بوصفه اللون اللساني غير المقنون وغير المطبوع ، والذي يشترك في أصله الجغرافي مع اللون المتداول واللون المطبوع ، يعادل ، في المنطلق ، ربط وجوده بتمايز اجتماعي متجذر في منطقة واحدة من المجال الذي يشغله المجتمع الشامل . إذن ، اللون الشعبي هو ، على هذا النحو ، ليس لوناً جغرافياً وحسب ، بل هو أيضاً لون اجتماعي ، أقله في الأصل . وفي الوضع اللساني / الاجتماعي الفرنسي ، لا يزال اللون الشعبي يعمل ، بكل وضوح ، كلون اجتماعي ، ومن النادر تقريباً أن تطبع صواتته أو معجميته (النبرة الجهورية ، المحكي الضاحوي ، اللذان تحدثت جيرو عنها في كتاب : (Le Français populaire, p. 119 et s.) بطابعها خطاباً البورجوازية الباريسية الكبرى أو حتى الصغرى .

غير أن الأمور ليست في كل مكان محسومة بكل جلاء ، وإن التعارض بين طبقة اجتماعية وأخرى لا يضمن أبداً ألا يكون خطاب

بعض المتميّزين قابلاً للعزى بوحدة من سماته أو بأخرى ، إلى اللون الشعبي . ومثال ذلك في الوضع الايطالي ، مثلاً ، حيث يمكن لنطق الحروف /p, l e k/ بـ [p, o e k] ، المميّزة للون الشعبي التوسكاني ، ان يظهر بكل وضوح في خطاب البورجوازية الفلورنسية ذاتها .

والقول إن اللون الشعبي هو جغرافي ، إنما يعني ربط وجود هذا اللون بأوضاع تفسح في المجال ، بعد ترجمتها إلى خرائط للجغرافيا اللسانية أو لعلم العاميات ، أمام ظهور بقع بيض (في فرنسا حول باريس ؛ وفي انكلترا حول لندن ؛ وفي الدانيمارك حول كوبنهاغن ، الخ) . وهذا يعني ربط اللون الشعبي بهذه الثغرات حيث لا يُلحظ أي لون من هذه الالوان غير المُطبّعة التي كانت تسمى تقليدياً العاميات (Patois) ، عندما كان الأمر يتعلّق بالوضع الاجتماعي / اللساني الفرنسي ، أو باللهجات العامية (Dialectes) ، مثلاً في الوضع الالمانى أو الايطالي ، وهي ألوان غير مُطبّعة احتفظنا لها ، هنا ، بتسمية اللهجات المحلية (Vernaculaires) . إن اللون الشعبي المحدّد على هذا النحو ، غير موجود إلا في مواقف لغوية احدية حقاً ، وهو يندمج في منظومة من التلونات هي اللغة المسماة مشتركة ، سواء بتاريخها أم بلعبة القواميس المتساوقة^(١) .

III / ٩ . اللهجات الاقليمية واللهجات المحلية

كان توسّع اللون التداولي في المجال الجغرافي للمجتمع الشامل قد ادى ، إنطلاقاً من هذا اللون وبواسطة مسارتبايني ، إلى اللهجات الاقليمية (Allolectes)^(٢) . وان معظم المنظومات اللسانية

(١) انظر لاحقاً ، III / ١٦ .

(٢) انظر سابقاً : II / ١٧ .

التي فرض تميمها على مجتمعات مركبة ، تشغل مجالاً جغرافياً ذا مكانة مهمة تقريباً ، شهدت هذا النوع من الألوان التي تمثل في الواقع نزعة إلى اللاتقريب (Déstandardisation) . إن الفرنسية المحكية في لياج ومنطقتها هي غير الفرنسية المحكية في أدريان وحولها ، وكلاهما تختلفان عن الفرنسية المحكية في بزييه وحولها . لكن ما من واحدة من هذه الثلاث ، يمكنها أن تتماهى مع اللون المطبوع من الفرنسية ، وكلها تختلف أيضاً عن الفرنسية العالية في وظائفها التداولية . وإن اللهجات الإقليمية التي يمكن سماعها في روما ، في ميلان أو في نابولي ، مطبوعة كلها بطرق لسانية لا تأخذ في الحسبان اللون التداولي ولا اللون المطبوع من الإيطالية . وسنلاحظ في إسبانية الإشبيلية علامات صوتية ، نحوية ومعجمية مميزة ، مجهولة في الإسبانية المطبوعة وكذلك في الإسبانية المتداولة . وإن الألوان المعارسة من الإنكليزية في برمنغهام وغلانكو أو دابلن ، ليست هي ما يُطلب من مذييع في الـ BBC^(*) ، كما أنها ليست الإنكليزية التي تصفها القواعد والقواميس .

يمكن اعتبار اللهجات الإقليمية كأنها لغة مشتركة ثانية ، أكثر تكيفاً مع الحاجات اليومية ، لغة مشتركة ذات استعمال محدود (Mar-tinet, Langue et Fonction, p.155) ، ويمكن للاختلاف اللساني المرتبط بتوسع اللون التداولي ، وينقص العلاقات بين الجماعات وداخلها ، أن يكفي لظهور لهجات محلية .

إلا أن هذا التمايز اللغوي غالباً ما كان مبرزاً بالعلاقات التاريخية أو الراهنة أيضاً بين اللون المتداول المنتشر واللهجات الإقليمية الموجودة قبل هذا الانتشار . لقد كانت هذه اللهجات الإقليمية ألواناً إقليمية مثلما كانت اللهجات التي تنزلت منها الألوان

(*) هيئة الإذاعة البريطانية .

التداولية والمطبوعة (والشعبية عندما توجد) التي تشكل اللغة المسماة مشتركة . وكلما صادقت لهجة تداولية لهجة إقليمية قريبة جداً ، بنيوياً ، من اللون الإقليمي الذي تفرّقت منه ، نتج بوجه عام مساراً تقاطعي بين اللون التداولي واللهجة الإقليمية التي جرت تصفيتهما من خلال اختلاطها المتصاعد والكاسل مع اللهجة المتداولة . وإن الواقع اللساني الراهن للهجة المحلّية لم يستطع إلا أن ينطبع بتاريخه .

كذلك أمكن أن يحدث زوال اللهجات الإقليمية بسبب التخلي المحض : فلأسباب اجتماعية ، قرّر جيلٌ من متكلميها ألا يتكلم هذه اللهجات الإقليمية مع الجيل الذي تلاه . إن اللهجة المحلّية التي تمايزت من اللهجة المتداولة في هذه الظروف ، ظلت مع ذلك ، هي أيضاً ، مطبوعة بتاريخها ، بواقع أنها جرى استعمالها لوقتٍ ما ، من قبل مزدوجي اللغة ، ثم من قبل خلف هؤلاء المزدوجي اللغة . وفي أماكن أخرى ، صادقت اللهجة المتداولة في خلال توسعها الجغرافي ، لهجات إقليمية متباعدة بنيوياً تباعداً كبيراً من اللون الإقليمي الذي كانت هي ذاتها قد صدرت عنه ، وحتى أنها صادقت أحياناً الواناً من المنظومات اللسانية لم تكن ، توالدياً ، ذات قرينٍ معها . وعندئذٍ كان التلاقي أو التقاطع بين اللهجة المتداولة واللهجة الإقليمية يبدو أقل يسراً ، وحتى أنه كان يبدو مستحيلًا . وهنا أيضاً يمكن أن يحدث زوال اللهجة الإقليمية بفعل التخلي المحض . ولكن عندما كانت تصمد اللهجة الإقليمية ، كان ينشأ وضع من الازدواجية اللغوية التي يمكنها أن تدوم أيضاً ، عندها يكون الواقع اللساني مطبوعاً ليس فقط بتاريخها ، بل أيضاً بوضعها الراهن كمنظومة متمثلة (انظر لاحقاً ، ١/١٧) .

حتى وإن استطاعت اللسانة الوصفية ، لوقتٍ ما ، أن تهمل

اللهجات الإقليمية - من حيث هي ألوان مندمجة في منظومة تلوّنات هي اللغة المسمّاة مشتركة - ، فإن اللهجات الإقليمية هي وقائِع بيّنة ، بيد أن مجمل الفوارق التي تشكّلها كل لهجة إقليمية ، لم تتطور أبداً لدرجة أنه لا يعود في إمكان التفاهم الداخلي المتبادل أن يوجد بواسطة لهجات إقليمية من أقصى المجال الجغرافي الذي يشغله المجتمع الشامل ، إلى أقصاه . وفي الحقيقة ، جرى كبح المسار التبايني اللساني بواسطة الحد الأدنى من التعاون الذي يفترضه التعايش ، والحد الأدنى من الروابط الضرورية بين الجماعات الاجتماعية والجغرافية في مستوى المجتمع الشامل . ولهذا السبب ، تظل اللهجات الإقليمية ألواناً لسانية ، بحيث أن ناطقاً بلهجة إقليمية لا يتردّد في استعمال لونه الخاص به وهو يخاطب ناطقاً بلهجة إقليمية أخرى (Martinet Langue et Fonction p. 135) .

إن أهمية اللهجات الإقليمية واستعمالها في وضع لساني / اجتماعي معيّن ، تتوقّفان إلى حد كبير على الحراك الجغرافي الذي يتمتع به الأفراد الذين يعيشون في هذا الوضع . ويكون الحراك هذا كبيراً في بعض المجتمعات المركّبة ، لدرجة أن الكثيرين من المتكلمين لا يمارسون أيّاً من اللهجات الإقليمية المشهودة ، وحينئذ يكون اللونان الوحيدان اللذان يملكونهما في اللغة المسعاة مشتركة اللونين المتداول والمطبّع . ولكن عندما يقيم هؤلاء المتكلمون إقامةً مديدة في منطقة ، فلا شيء يمنعهم من الكسب اللاحق لهجة هذه المنطقة . ويعكّر للحراك الجغرافي أن يجعل بعض المتكلمين يتكلمون لوناً تتلاقى فيه أساليب لسانية واردة من لهجات إقليمية شتى ، وفي هذه الحالة ، وفي مستوى المتكلم بوصفه فرداً يستحسن الكلام على لغة فردية (Idiolecte) : يقصد باللغة الفردية مجمل المنطوقات التي ينتجها فرد واحد وبالأخص الثوابت اللسانية التي تكمن وراء المنطوقات ...

ويقصد بها مجمل الاستعمالات اللغوية الخاصة بفردٍ معين . في وقتٍ محدّد (Dubois, Dictionnaire, p. 249) . وبالعكس يكونُ الحراك محدوداً بالنسبة الى بعض المتكلمين الآخرين ، لدرجة انهم لا يكتسبون ولا يمارسون في مدى حياتهم كلّها سوى لهجة إقليمية واحدة . وسواء استعمل متكلّم ما لهجة إقليمية وحيدة ام استعمل تلوّناً هجيناً ، يمكنه أو لا يمكنه أن يمارس في وقتٍ واحد اللونين المتداول والمطبّع . وحتى في وضع لساني أحدي ، لا يمكن إذن لتوازن قاموس شفهي أن يعتبر توازناً مستقراً ونهائياً .

III / ١٠ - التلوّنات الطفيلية : العاميّة (Argot)

فضلاً عن اللون الشعبي ، المتداول ، المُطبّع واللهجات الاقليمية ، استطاع تاريخ المجتمع المركّب وتاريخ اللغة التي ترصدت فيه ، أن ينتجا الواناً أخرى / مجاميع فوارق أخرى ، وان يربطها بأوضاع غير لسانيّة معيّنة . ويمتاز بعض هذه الألوان بواقع أنها تتكوّن أولاً من مميّزات معجميّة . وهي قبل كل شيء مجاميع من الفوارق والاختلافات الواقعة في المستوى المعجمي للغة ، وهي تعمل ، لهذا السبب ، متطفلة - إذا جاز القول - على الصّواتة وعلم الأصوات والنحو وأشكال اللون الشعبي ، نعني المتداولة والمطبّعة أو اللهجات الإقليميّة .

إن واحداً من أفضل الأمثلة التي نختر أن نسميها هنا التلوّنات الطفيلية ، هو بلا أي شك التلوّن العامّي (Argot) . وإن شروط صياغة اللون العامّي معروفة . فمنذ القرن الخامس عشر ، كان يحكى في فرنسا عن اللغة الاصطلاحية (Jargon) وعن الجويلان(*) (Jobelin) . ظهرت مفردة (Argot) في القرن السابع

(*) عاميّة المتسولين والمتسكّمين في القرن الخامس عشر (المعرّب) .

عشر ، على ما يبدو ، للدلالة على اللون الذي كانت جماعات الأشرار ، المتسولين والهامشيين من كل صنف ، تصوغه بوجه عام لغايات ترميزية أولاً ، وبهاجس التضامن الداخلي مع الجماعة ، وكذلك للدفاع عن الجماعة في مواجهة القمع الذي كانت تمارسه عليها أغلبية المجتمع . وليست الفرنسية وحدها هي التي تملك لونا عامياً ، ويجري بكل طيبة خاطر ذكُر أمثلة أيضاً عن عامية الإيطالية ، الإسبانية ، البرتغالية أو الألمانية ، الخ . وبالنظر إلى الجماعات الاجتماعية التي تولد هذه العاميات وتستعملها ، يمكن الافتراض ان المعجمية العامية (التي يمكن اعتبارها كمعجمية متخصصة : عدوان ، سرقة ، إخفاء ، قوادة ، حياة جنسية ، فسق ، نهم ، اشغال شاقة وسجون الخ) ان تعمل أولاً ، مع نحو واشكال وصواته وعلم اصوات الالوان اللسانية غير المعقونة وغير المطبعة ، مع الالوان الشعبية ، اللهجات الإقليمية ، وفي اوضاع الثنائية اللغوية واللهجات المحلية الخ . ولكن ، من الوجهة اللسانية المحض ، لا شيء يتعارض مع إمكان استعمال هذه المعجمية مع القواعد (النحو والصرف) ومع وحدات النطق الثاني لأي لون كان ، بما فيه اللون المتداول او حتى اللون المطبوع ، وهذا في الواقع ما يمكن حدوثه اليوم في نطاق المعاجم اللغوية (انظر III/١٦) .

إن المعجمية المكوّنة للون العامي تستفيد من موارد ومناهل - لها اهداف العامية الترميزية ذاتها - تستعملها الالوان اللغوية في أماكن أخرى . وعلى غرار اللغات الخاصة ببعض المجتمعات الموسومة بالبدائية ، وه اللغات السرية الخاصة بالمريدين ، (Phi- lipp, Guide, p. 399) يمكن للعامية استعمال التشويه المنظومي لدالّ وحدات تفتسب إلى الإرث الدلالي المشترك ، وذلك بتكرار البدايات والداخلات أو اللاحقات ، وبمضاعفة ونقل أو بتر بعض المقاطع ، الخ . زد على ذلك ان العامية تمارس كل أنواع التدخل في

العلاقة الموحدة بين الدالات والمدلولات (Denise Francais, Les argots, p. 631 et s.)

III/ ١١ - الألوان الطفيلية : المصطلحات التقنية والعلمية

غير أنَّ العامية، في المجتمعات المركبة، ليست اللون الطفيلي الوحيد الممكن ، كما أنها ليست الوحيدة التي يمكنها ان تمت بصلة القرابة (إن من حيث الموارد اللغوية التي تنهل منها ، ام من حيث الوظائف الاجتماعية المعزوة اليها) ، الى اللغات الخاصة المشهودة في المجتمعات المسعاة بسيطة . وعليه ، فإن اللغات التقنية هي حقاً ، على غرار العامية واللغات الخاصة ، الوان لغوية مطبوعة بشكل رئيسي بطابع المستوى المعجمي المتخصص ، اللازم لبعض اصناف المهن ، او لبعض فروع التقنية والانتاج والاقتصاد في مجتمع مركب . ويمكن لجماعة إجتماعية ان ترتبط بانتاج/ باقتصاد إقليمي ، عندئذ يكون من الطبيعي تماماً ان تكون للفتها التقنية صوارة وقواعد. لهجات المنطقة حيث الجماعة مقيمة ، او ان تكون لها صوارة وقواعد اللهجة المحلية في مناطق الثنائية اللغوية . ويمكن الافتراض ان المصطلح التقني لأرباب حرفة ، مثل مصطلح البرازين ، او المصطلح المتخصص الذي يستعمله صيوان الدكاكين ، اي العاملون في المحلات التجارية (Denise Francais, Les argots, p. 622 et 623) يمكن استعماله مع صوارة وقواعد لهجات إقليمية او محلية شتى ، ولكن ايضاً مع صوارة وقواعد اللون الشعبي او حتى اللون المتداول ، حسب الوضع الجغرافي والاجتماعي للمتكلمين الذين كانوا يستعملونه .

من المناسب التشديد على إمكان أن يكون لبعض هذه المصطلحات التقنية إشتراك مع العامية واللغات الخاصة، لجهة

استعمالها ، هي أيضاً ، لأهداف ترميزية . وبكيفية عامة ، يمكن لكل جماعة اجتماعية ان تصطنع ، بالضرورة أو باللعب ، معجمية هرمسية (باطنية) تهدف الى استبعاد كل متكلم / مستمع لا ينتميان إلى المتحد الذي تكونه الجماعة . وغالباً ما يكون الحال هكذا بالنسبة إلى جماعات الشبان والشابات : وقد سبق ان كانت معجمية المدارس أو طلاب المدارس الكبرى ، مثلاً ، موضوع دراسات وصفية .

من ناحية ثانية ، هناك ألوان لسانية محصورة ، هي أيضاً ، في مصطلحات متخصصة ، وتتشترك غالباً في صواتة وقواعد اللون المطبوع . وقد يكون كذلك حال مصطلحات شتى العلوم . وبسبب كل احتمال ، يعود هذا الأمر . أولاً ، إلى كيفية الاكتساب المدرسي أو الجامعي لهذه المصطلحات . يبيّن أن العلاقة القائمة بين المصطلحات العلمية وصواتة اللون المطبوع وقواعده ، ليست العلاقة الوحيدة الممكنة . فبإمكان كيميائي أن يمارس مصطلح اختصاصه باضافته إلى صواتة وقواعد اللون المتداول أو إلى ألوان اللهجات الاقليمية التي يتكلمها . وعلى غرار العامية والألوان التقنية أو اللغات المتخصصة ، يمكن استعمال معجمية علمية لغايات ترميزية أيضاً . فالطبيب ، مهما تكن دوافعه الحقيقية ، حين يتكلم على (Autolyse) مع معاونيه وبمضور أسرة شخص أقدم على الانقصار ، أو حين يتحدث عن (Nés du Colon) أمام مريضه المصاب بسرطان معوي ، إنما يستعمل تماماً معجمية اختصاصه لأهداف ترميزية .

المعايير (الأعراف)

III/ ١٢ - المعيار وما فوق المعيار

إن القوينة والتطبيع المعيلري ، حين يطبقان على لون

لساني، إنما يشكّلان ما يسميه فيشمان معالجة اجتماعية نموذجية تضيف ، من خلال امتدادها ، إلى اللون المطيع نتاجاً هو أيضاً إجتماعي نموذجي ويطلق عليه تقليدياً إسم حسن الاستعمال أو أيضاً المعيار (العُرف) ، إنه في الواقع نظام شكليّ يحدّد الاستعمال الصحيح (Fishman, Sociolinguistique, P.39) : إنه الاستعمال المفروض بوصفه الاستعمال الأصوب أو الاميز ، من جانب قسم من المجتمع (Mounin, Dictionnaire, P.235) : إنه نظام تعاليم يحدّد ما يتعيّن اختياره إذا أريد التقيّد بالمثال الجماليّ أو الثقافي/الاجتماعي لوسط ذي امتياز وسلطان . وأن وجود نظام التعاليم هذا يتضمن وجود استعمالات محظورة (Dubois, Dictionnaire, P. 342) ، وقد يكون من الأفضل تسمية نظام التعاليم هذا بوصفه ما فوق المعيار (المعيار الفوقي / الأعلى Sur-norme) . وما هو في الواقع إلاّ ثانياً ، لا يتضمّن الإكراه الفعلي الذي يكفل السير الحسن لكل منظومة لسانية بوصفها أداة إبلاغ واتصال . وأن هذا الإكراه لا يمكن تسويغه واعتباره ممثلاً للمعيار الوحيد المقبول في أن واحد بما فيه من ضرورة وكفاية ، إلاّ بقدر ما يكفل هذا السير الحسن للمنظومة بوصفها أداة إبلاغيّة .

قد يكون أكثر يسراً على المرء أن يجد ، في الوضع اللساني/الاجتماعي الفرنسي ، أمثلة عدّة تبرز تعارض المعيار وما فوق المعيار . فالمحظورات التي يطرحها المعيار الفوقي في مادّة المعجميات ، عديدة ؛ ومن المألوف جداً أن تخالفها أكثرية المتكلمين الذين لا يستطيعون ، مثلاً ، التصميم على أن يطردوا من مصطلحهم فعلاً منزوعاً جيداً مثل (Se suicider) (المحكوم عليه في المعيار الفوقي : إذ أنّ Se و Suicider تشكلان استعمالاً مزدوجاً ، ويكون من الأفضل استعمال عبارة (Se donner la mort) . وأن عبارة الخياطة : (Passe-moi le ciseau) هي جملة مُدانة ، أيضاً ، بقدر ما

تحتقر التضاد : Le ciseau les ciseaux ، الخ . لكن الكتاب الجيدين
يحتقرون أحياناً الأوامر المعجمية للمعيار الفوقي . ومثال ذلك ما
كتبه ميشليه (Michelet) ذات يوم :

L'événement l'a placé entre deux alternatives... (Histoire de
France, XII, II, cité par le dictionnaire Robert, P.391, t.6)

على الرغم من المعيار الفوقي التقعيدي الذي يحاول دائماً
فرض :

...Bien qu'il n'en ait pas envie

ou: Je m'en suis allé

فإن أي متكلم فرنسي (ومن ضمنه المعيلري ، المفاجأة)
قادر في كل حين على القول :

- Il viendra malgré qu'il n'en a/ait pas envie.

ou: Je me suis en allé, etc.

غير أن المنظومة اللسانية ومعيارها هما كأداة إبلاغ موجودة
في كل متحدث بشري ، مستقلان إلى أبعد حدٍ عن الأفراد ، كلٍ
بمفرده ، فالعادات اللغوية تُفرض على الفرد كمجموع داخل في
مجموع العادات الواجب اكتسابها في خلال التنشئة الاجتماعية ، تلك
العادات التي يتعين على الطفل الأخذ بها لكي ينتقل من البيولوجي
إلى الاجتماعي ، ويفدو عضواً كامل العضوية في الجماعة . إذن
ليس المعيار والمعيار الفوقي من طبيعة متباينة : فكلاهما مؤسسة
اجتماعية ، وبالتالي إكراه اجتماعي . غير أن المعيار يُحفظ
بالضرورة في كل متحد ، بينما المعيار الفوقي لا يتعلّق من ناحيته إلا
ببعض المجتمعات ، وليس فيه شيء محتوم.

(T) بالنسبة إلى الامثلة على تعارض المعيار/ المعيار الفوقي ، في مادة الصوات ،
انظر لاحقاً : 25/III .

إن منظومة لسانية كمنظومة جيوادجا^(٤) التي يتكلمها ما مجموعه ٥٥ صياداً بدوياً في منطقة صحراوية نائية ، إنما تمثل معياراً بالضرورة . إنها مجموعة من المعنى الصوتية والنحوية والمعجمية ، يستحيل الإخلال بقواعدها الأساسية دون إلحاق الأذى بعملها كأداة اتصال وإبلاغ . ولكن ، بالنظر إلى البنية الاجتماعية التي يعمل فيها هذا النظم ، لا يمكن أبداً المصادرة على وجود معيار فوقي لهذا النظم ، مؤسس على لون مُطْبَع ، ولا على وجود معيار فوقي لالوان جغرافية أو اجتماعية متميزة جداً . مع ذلك ، فإن كل انحراف في الجيوادجا كما في سواها ، لا يدخل في العدد الصغير من الفوارق المعروفة من الجميع والمقبولة منهم (ما من منظومة متألّفة بشكل مطلق) . إن كل انحراف غير مُرْتَقِب ، قد ينتج عنه حتماً خلق الالتباس أو عدم الفهم ، ولو كان ذلك لأمَدٍ قصير جداً . وقد يجد المسؤول عن إخلال كهذا بالمعيار ، في حال الجيوادجا ، ٥٤ شخصاً على الأقل ، مستعدين للردّ بطريقة أو بأخرى على الالتباس أو عدم الفهم الذي يفرضه عليهم الإخلال بالأعراف ؛ ٥٤ شخصاً مستعدون كلهم لالاندهاش ، للهزء ، للاستياء ؛ وهم مستعدون ، إذا كان المذنب ولداً ، لقمعِ قلسٍ نسبياً .

III/١٣ - المعيار الفاعل والمعيار المنفعل :

إن إكراه المعيار القوسي ، المتولّد من قوينةٍ يعتبرها المسؤولون عنها كأنها نهائية ، بيدوذا صلابة كبيرة ، خاصة عندما يُقارن بمرونة المعيار وحده . وتعود هذه المرونة الحقيقية للمعيار ،

(٤) الـ jwadjé محكية ، أو كلنت محكية في شمال أستراليا ، ذكرها جوزيف فرجان : (J. Verguin: La situation dans le monde, p. 1129) .

الى شروط اكتسابها الى حد كبير.

وبالتالي ، فإن المعيار يفرضه الإكراه الاجتماعي ، غير أن اكتسابه لا يتم أبداً في محيط لغوي ذي تالف مطلق ، ويكون حصوله في المجتمعات المركبة أقل بكثير من حصوله في مجتمعات أخرى ، لذا ، فإن العضو المقبل في المجتمع المركب سيكون عليه ، حتى يقيم معياره الفاعل ، ذلك الذي سينظم زجرياً استعماله الشخصي للغة (Martinet, *Eléments*, P. 149 et 150) ، أن يأخذ أولاً بالطرق اللغوية المعمول بها في محيطه بشكل شامل ، الطرق التي لا يمكن التخل منها دون أن يصطدم بعدم الفهم وأن يتعرض لقمع الجماعة . ولكن ، ما من طريقة من الطرق اللغوية التي سيتعرض لها العضو المقبل في المجتمع المركب ، طيلة فترة اكتسابه اللغة ، ستبدو له ، لاحقاً ، غير سوية ، وإن يدركها كأنها مخالفة لا يمكن قبولها إطلاقاً . إن هذا التسامح غير الطوعي ، المكتسب جنياً إلى جنب مع العادات اللغوية ، هو القاعدة لمعيار مفهول (Martinet, *Elément* 5.6).

إن وجود المعيار المنفعل ، بما يمثل من ألفة غير واعية في الغالب ، مع عدد معين من الطرق اللغوية ، سيكون حسب كل احتمال ، ذا أهمية أولى بالنسبة الى المستقبل اللغوي للمتكلم الفتى . وعليه ، هناك في عداد الطرق اللغوية غير الشمولية في الجماعة ، المتوافرة أو شبه المتوافرة بالنسبة إلى المنظومة ، والداخلة في نطاق المعيار المنفعل ، بعض الطرق التي ستبقى دائماً بالنسبة إلى المتكلم مرتبطة بسياقات غير لغوية علمته جماعته الاجتماعية أن يرفضها ، ومما لا شك فيه أن هذا يجبر الطرق اللغوية بشكل نهائي ، على أن لا تستعمل أبداً من جانب المتكلم الا استعمالاً سلبياً ، متفعلاً ، وفي المقابل ، فإن بعضاً آخر من الطرق اللغوية الداخلة في المعيار المنفعل ، المطبوعة من الناحية

الاجتماعية بشكل متدنٍ أو لا مجال ، سيتمكن استخدامه قاعدةً للاكتساب ، ثم للاستعمال السلبي ، وحتى للاستعمال الايجابي للوان جغرافية أو اجتماعية من اللغة المسماة مشتركة ، غير اللون المكتسب الأول ، بما في ذلك اللون المطبوع معيارياً . وسواء اكان الاكتساب - إذا تم - والممارسة اللاحقة لهذه الالوان المكتسبة في الدرجة الثانية ، كاملين أم ظلأ جزئيين فقط ، فإن عليهما تتوقف جوهرياً السهولة التي سيتمكن المتكلم بواسطتها من الاستعمال التالي للعبة معاجم لغته أو سجلاتها ، (انظر لاحقاً ، III / ١٦) .

III / ١٤ - اكتساب المعيار الفوقي

يمكن لاكتساب المعيار أن يحدث في محيط لساني تسوده ممارسة اللون المتداول ، أو بالحري ممارسة لهجة إقليمية ، أو ايضاً ممارسة اللون الشعبي . ولكن ليس من المستحيل تماماً أن يتمكن العضو المقبل في مجتمع مركب أن يتعرض في وقت مبكر للقاء مع اللون المطبوع من اللغة المشتركة ، وهو اللون الذي يستطيع أن يكون مستعملاً - ولو بكيفية فردية جداً - في الوسيط العائلي أو في محيط مباشر أوسع بقليل .

غير أن اكتساب اللون المطبوع يجري ، عموماً ، في وسط مدرسي ، ويبدأ فرضه منهجياً على الولد منذ سنة دراسته الأولى . إن جوهر الجهود التي يبذلها مطبوعو اللغة ، وبالتالي مدرسوها ، سيرمي في الحقيقة إلى تمرير المعيار الفوقي واللون المطبوع الذي يستندها ويؤسسها على الأقل في المعجم الشفهي المنفصل ، وإذا أمكن في المعجم الشفهي الفاعل . ومن الواضح تماماً أن نجاح هذه الجهود سيتوقف على نوعية المعيار الفوقي وعلى العلاقات التي يمكن وجودها بينها وبين المعيار .

سيكون اكتساب اللون المطبوع واحتمال دخوله في المعجم

الشطوي الفاعل لفرد ما ، من مجال الممكن ، وسيظهر المعيارُ الفوقي وسيكون أكثر تفانولاً من الناحية الموضوعية إذا كان نظام تعاليم هذا المعيار الفوقي لا يصف سوى قليل من الطرق اللغوية المتأصلة تماماً في المعيار.

في المقابل ، سيكون بإمكان اللون المطبوع أن يظل وفقاً على مجال المعجم السليبي ، وسيبدو المعيارُ الفوقي المرتبط بهذا اللون كأنه قليل التناول في بعض الظروف . وسيكون الحال هكذا عندما سيحاول نظام تعاليم المعيار الفوقي أن يستبعد حداً أقصى من طرق لغوية متأصلة بقوة في المعيار ذاته . وإذا كان المعيار الفوقي يرمي ، علاوة على ذلك ، إلى فرض طرق لم تعد مطبقة إلا في أقلية محصورة جداً ، لو لم تعد ملحوظة إلا في مدونة أدوات التطبيع والتععيد (كتب قواعد ، قواعد ، قواعد ، الخ .) ، فإن هذا المعيار الفوقي ستتاح له كل الفرص لكي يُعتبر إكراهاً ضاعطاً ، واستطراداً ، إكراهاً لا جدوى منه تماماً .

III/١٥ - المعيار ، المعيار الفوقي

والتلون اللغوي

بما أن مستعملي منظومة لسانية سيحاولون دائماً تكييف هذه المنظومة مع تنوع حاجاتهم الإبلاغية ، وبما أنهم سيتوصلون إلى ذلك بوصفهم جماعات (المحاولة الفردية في هذا المجال تكون بشكل عام معرضة للفشل ، اللهم إلا إذا استأنفتها الجماعة وكفلتها) ، فإن المعيار (المعقد : Norme) لا يمكنه أن يتضمن التآلف المطلق للمنظومة اللسانية . بل يتضمن ، بخلاف ذلك ، أن تمتلك المنظومة موارد سيفيد منها التلون اللغوي المتساوق والتبديل اللغوي أيضاً ، وفي المقابل ، ينزع المعيار الفوقي (الأبعد (Sur-norme) إلى أن يجعل من اللون المطبوع لوناً متآلفاً ومستقراً ،

مزوداً بوظائف مرجعية وتعليمية ، وفي هذه الشروط ، لا يستطيع مجموع الفوارق إلا النزوع إلى التزايد بين اللون العطب المتعلق بالمعيار الفوقي والألوان التي تواصل العمل بشكل أساسي وفقاً لمستلزمات المعيار. لذا فإن عمل مقونني اللغة ومطبّعيها ، عمل حافظي المعيار الفوقي ، يبدو كأنه مهمة بلا انتهاء . إنه مشروع لا يستطيع إلا أن يسجل ، الى جانب نجاحاته ، عدداً معيناً من الانتكاسات التي لا يكون بعضها صغيراً.

ومنننذ يشكل لحظاً انتكاسات المقوننين والمطبّعين أو المقعدين بالذات جزءاً من عملهم . ونادرة هي الاكاديميات أو المعاهد ، مهما بلغت سلفيتها ، التي لا يتعين عليها أن تتراجع ذات يوم ، وعندها سيفسحون المجال - ضيقاً قدر الإمكان ، في الحقيقة - في فصول كتب قواعدهم أو في اعمدة قواميسهم ، لما يسمونه السمات المألوفة أو المعليات المستعملة استعمالاً مألوفاً جداً . وفي الواقع تصدر هذه الطرق اللغوية عن اللون المتداول ، اللون الشعبي أو اللهجات الإقليمية ، وبهذا الثمن يتحقق توحيد المطبّع (المقعد) ثم الحفاظ على وحدته واستقراره.

على أنّ القول إن الألوان اللغوية غير المقوننة أو غير المطبّعة في لغة ما تظل تعمل بشكل رئيسي وفقاً لمستلزمات المعيار ، لا يعني أن استعمال هذه الألوان لا يعود يتحمل أبداً ، إكراهاً اجتماعياً لا مناس من لضمان حسن سير المنظومة بوصفها أداة إبلاغية ، وهذا لا يعني أنّ لهجة إقليمية أو لوناً شعبياً ، أو أيضاً لوناً محلياً ، لا تؤسس كلها في أوضاع ثنائية اللغة ، منظومة تعاليم تحدّد ما يتعين اختياره إذا شئنا الامتثال للمثال والمعاداة الاجتماعية / الثقافية لدى الجماعات التي تمارس هذه الألوان ، وإذا شئنا أن نكون عضواً كامل العضوية في هذه الجماعات . عندها ، لا شيء يسمح

بالافتراض أن هذه المنظومة من التعاليم لا تتضمن ، هي أيضاً ، وجود استعمالات مظلورة ، ستقوم الجماعة بقمعها كاستعمالات ممنوعة .

لقد لاحظ ويليام لايوف (Labov) إن عمال نيويورك يعطون للونهم اللغوي وبكل طيبة خاطر «تضمينات تحسينية» ، رجولية» (Marcellesi et Gardin, Linguistique sociale, p. 139) . وإذا كان الحال كذلك حقاً ، فلا بد من ارتقاب إمكانية نزوع الجماعة الفرعية الاجتماعية التي يكوّنها رجال الطبقة العاملة النيويوركية ، إلى قمع استعمال المعاجم والسجلات (انظر III/16) التابعة للون المطبوع ، وكذلك قمع ألوان اجتماعية أو إقليمية أخرى من الانكليزية الأميركية ، وفي هذه الحالة ، يتحدث مارسيلشي وثماردان عن وجود معيار معاكس (Contre - norme) في الطبقة العاملة النيويوركية ، وليس من المؤكد إطلاقاً أن المعيار المعاكس الذي وضعت هذه الطبقة الاجتماعية كان متعارضاً فحسب مع المعيار الفوقي المرتبط باللون المطبوع .

إن الحالة التي يذكرها جورج مونان (Mounin, Répression, p.65- 70) تبدو ذات دلالة في هذا الموضوع . فالمتحد الصناعي في روان القديمة ، المتأصل في منطقة ريفية ، على حدود البيكاردي والنورماندي ، كان يمارس ما بين 1920 و 1928 لوناً لغوياً يدعو المؤلف نوعاً من الفرنسية المؤقلمة (Un Français patoisé) . وكان يتمين على هذا اللون أن يمثل بشكل حسن حالة لغوية مرتبطة بمسار من التقاطع الجاري بين اللون المحلي من المنظومة الفرنسية ولهجة محلية قريبة منه بنسبياً . وحين نفحص الوضع عن كثب أكثر ، نكتشف أنه في الواقع أعقد بكثير . فاللهجة المحلية العميقة في روان القديمة كانت هي ذاتها لوناً نورماندياً ملوناً بالبيكارديّة إلى حد

بعيد . إنها إذن حالة لغوية تُعلن هي أيضاً مساراً تقاطعياً بين لهجة محلية نورماندية ولهجة محلية بيكارديّة.

على الرغم من طابع هذه الفرنسية المؤقلمة (الذي قد يقول عنه البعض إنه طابع خلاسي) ، فإن الجماعة التي كانت تمارسه ، إنما كانت تكافح في كل لحظة ، كما يقول مونان ، كل ما كان يتهدّد التفاهم الداخلي أو يحقّقه ، كانت تكافح كل ما كان يتعارض مع تماسكها اللغوي ، وهو عنصر أساسي في تماسكها كجماعة اجتماعية . وكانت هذه الجماعة تمارس في مادة اللغة نشاطاً تطبيعياً وقمعياً عفويّاً في مواجهة كل ما كان يمكنه خفض المسافة اللغوية الفاصلة لونها الخاص بها عن الألوان المجاورة.

إذن تستطيع كل جماعة أو كل جماعة فرعية اجتماعية أن تربط بلونها اللغوي ثقلاً إضافياً من الإكراه الاجتماعي الذي يقترب ، مع أخذ كل شيء في الحسبان ، من المعيار الفوقي المرتبط باللون المطبّع أكثر مما يقترب من المعيار الكافي لحسن سير المنظومة بوصفها أداة إبلاغيّة.

إن الاعتراض ، المُعلن أو المُضمّر ، الذي تظهره بعض الجماعات الاجتماعية في وجه المعيار الفوقي ، وكذلك الاعتراضات القائمة بين الشحنات الإضافية من الإكراه الاجتماعي التي تربطها كل جماعة بلونها اللغوي الخاص ، إن كل هذه الاعتراضات يمكنها تسويغ التعريف الذي يعطيه مارسيلشي وشاردان (Linguistique sociale, p.146) للمتحد اللساني تسويفاً كافياً: إنه مجموعة جماعات اجتماعية تدخل في علاقات جدليّة في سياق إبداعي واحد لجملة معايير يسودها معيار الطبقة المهيمنة ، لكنّها مجموعة موضوعة على المشرحة بلا انقطاع.

المواقف والتلونات اللسانية

III/١٦- المواقف (المواضع) والسجلات

عندما يبني متكلم قولاً ، يمكن أن يكون اختيار السمات اللغوية ، وشكلها ووظيفتها ، مشروطاً بجملة المعطيات غير اللسانية ، تلك الماثلة في الواقع الخارجي ، والماثلة أيضاً في فكرة المتكلم أو في مشاعره ذاتها ، وتشكل جملة المعطيات غير اللسانية هذه ما سنطلق عليه تسمية الوضع الفوري لفعل الكلام . وبالعكس ، عندما لا يمكن عزو أي دور واضح للوضع الفوري في اشتراط قول ما ، يُقال عادةً إن هذا القول خُرج الوضع (الموقف) . في الواقع ، وحتى عندما لا يستطيع الوضع الفوري أن يرى نفسه منوطاً بدور في اشتراط قول ما (ملفوظ منطوق = Enoncé) ، ليس من الصحيح تماماً القول إن هذا الملفوظ هو خارج الوضع ، فكل ملفوظ موجود أيضاً في وضع علم هو خلاصة التاريخ المشترك بين لغة ومجتمع . وخلاصة التاريخ الشخصي للفرد المتكلم ، إذن . في هذا المقياس ، يكون قول ما دائماً في وضع ما ، وفي حال الأقوال المكتوبة ، مثلاً ، التي تعتبر ، بوجه عام جداً ، كأنها أقوال خارج الوضع ، فإن استعمال الراموز (Code) المكتوب يسيطر وحده ، وإلى حد بعيد ، بشرطية الوقائع اللغوية المستعملة واختيارها وشكلها ووظيفتها ، إن هذا الاستعمال للراموز المكتوب هو في الواقع الوضع الفوري الوحيد ، في هذه الحالة ، وعليه ، فإن هذا الاستعمال غير ممكن إلا بقدر ما يكون الوضع العام وتاريخه جامعين اللغة والكتابة .

إن المتكلمين الحائزين على عدة ألوان في معجمهم الشفهي

يستطيعون الانتقال من اللغة إلى الكتابة . فهم يقترضون مميزات من شتى الألوان لصياغة المنشط اللغوي الجاري . وإن متكلماً لا يملك سوى لون لغوي واحد، يجري مع ذلك اختيارات للطرق التي في متناوله . كل ذلك يتم وفقاً للموضع الفوري لفعل الكلام . وهذا يحدث بكل وضوح لكي يكون الخطاب متكيفاً اجتماعياً مع واقع هذا الوضع الفوري أو مع الوعي الذي يكوّنه المتكلمون عن هذا الوضع ، ومع التقدير الذي يضعونه لهذا الوضع ، ومع التأويل الذي يتخذونه لأنفسهم و/ أو يريدون إعطائه للمستمع الفردي أو الجماعي ، الخ . إن تكيفات الخطاب هذه مع معطيات الوضع المباشر ، جرى التبدل عليها كأنها أساليب الخطاب ، أساليب الكلام ، ولكننا نستطيع تفضيل مفردة سجلات / معلج ، بقدر ما تجنّبنا هذه المفردة التضمينات والأحكام القيمة المتعلقة بكلمة أسلوب ، وتجنّبنا أيضاً التضمينات والأحكام المتعلقة بتسمية مستويات الاستعمال ، الملحوظة هي أيضاً ، وفي هذا المعنى ذاته ، في الأدبيات المخصّصة لهذا الموضوع .

III/17 - التفعيل والسياق اللساني

كلما حمل الوضع المباشر مزيداً من المعلومات ، قلّت ضرورة استعمال الطرق اللسانية (Frédéric François, Contexte, p. 69) . هذا هو الأمر الذي يصنع الفرق بين الأقوال التي من خلالها يستطيع المتخاطبون الاستفادة من هذه المعلومات التي يمدّهم بها الوضع المباشر ، وبين المتخاطبين بأقوال سيكون هذا الأمر ممتنعاً بالنسبة إليها . وعلى الرغم من عدم وجود القوال خارج وضع بالمعنى الدقيق للكلمة ، فإن هذه التسمية تخصص عموماً للمناشط اللسانية التي لا يكون من المعتاد عليها الاستفادة من المعلومات التي يقدّمها الوضع الفوري / المباشر لأجل تفعيل الوحدات الواردة في

الرسالة . وإن تفعيلها معناه نقل هذه الوحدات من المعنى اللامحدود الذي يكون لها عندما تكون معزولة إلى المعنى الدقيق الذي يتعين عليها اكتسابه في السياق اللساني . الا وهو كل رسالة خاصة (Fran- çois, Contexte, p. 70) . وكتب هيمز من ناحيته : إن استعمال شكل لغوي يحدّد ماهية سلسلة من المعاني : فيمكن لوضع (فوري) قبول سلسلة معانٍ : وعندما يظهر شكل في وضع ، فإن الشكل يصنّف المعاني الممكنة في هذا الوضع ، غير تلك المعاني التي يمكن للشكل ذاته أن يشخص هويّتها : وعندئذٍ يصنّف الوضع المعاني المحتملة بالنسبة إلى الشكل اللغوي ، غير تلك التي يمكن لهذا الوضع ذاته قبولها : يتوقّف المعنى الحقيقي على تفاعل الشكل اللغوي والوضع (Hymes, Speaking, p. 105) ، والحال ، فإن الوضع الفوري إذا كان لا يقوم بالدور المناط به ، فإن هذا الدور في تفعيل الوحدات اللغوية لن يمكن توفيره إلا بالسياق اللغوي ذاته ، وهو السياق الذي يتعين عليه ، وقتئذٍ ، أن يكتسب إتماماً ووضوحاً خاصين .

III/18 - الإبلاغ ضمن الموقف

في المواجهة بين المتكلم والمستمع ، إذا كان المنشط اللساني بكل معنى الكلمة يستطيع الإفادة مما يشكّل المسلك غير الشفهي للمتخاطبين (مواقف ، حركات ، إيماءات ، أو غيابها ...) وأيضاً مما يشكّل العناصر ما فوق الجزئية أو الفردية العرافة للسرّد الكلامي ، وفوق ذلك كله الإفادة من كل معطوية تقدمها بقية الوضع المباشر ، سيجري الكلام في هذه الحالة على إبلاغ لغوي ضمن موقف . وعندئذٍ سيحدث أقصى اقتصاد في الطرق اللغوية ، وسيمكن أن يخسر وضع السياق اللغوي من أهميته ، وستكتسب الرسالة من ذلك سمات ومزايا خاصة .

إن التواتر المقدر بشكل عام تقديراً ناقصاً ، للأقوال غير المكتملة ، يبرهن كفايةً كيف أن القول الذي يفيد إفادةً قصوى من المعطيات التي يقدمها وضعه المباشر ، يقتصدُ اقتصاداً جذرياً بوسائله المعجمية والقواعدية والصوتية ، وفي هذه الحالة ، يبرهن تواتر هذه الأقوال غير المكتملة ، على أن المتكلمين هم قليلو الانشغال وقليلو الاحتياج إلى سياق لغوي واسع ودقيق.

إن الأقوال غير النحوية التي تظهر في الإبلاغ الشفهي ، الموقفى ، تمثل هي أيضاً تخفيضاً كبيراً لاستعمال الطرق اللغوية ، وهو التخفيض الذي لا يعوّضه سوى اللجوء إلى معطيات الوضع المباشر . ففي الفرنسية ، لا يمكن لمفوفٍ مثل /iii/ حتى وإن كان مصحوباً بعدد للصانته غير مألوف ، أن يبلغ هدفه إلا إذا كان ، مثلاً ملفوظاً إسمياً صادراً عن شخص في عمله (خياطة ، معماري ، جراح ...) أو أيضاً إذا كان مصحوباً بحركة من المتكلم نحو المستمع (File- moi ça, j'en ai besoin) أو نحو الباب (file, je t'ai assez vu...).

III/ ١٩- قواعد الإبلاغ الشفهي

في أغلب الأحيان ، تدينُ قواعدُ الإبلاغ الشفهي بجوهر مزاياها وسماتها في الواقع . إلى كون الأقوال المستندة إلى الوضع المباشر، لا تستعمل سوى جزء من الإمكانيات التي تملكها المنظومة اللغوية . ومن بين طرق توسع المنطوق الفرنسي ، غالباً ما تبرز قواعدُ الإبلاغ الشفهي الموقفى ، التراكب المحض أو الترابط ، وتقلل من استعمال طريقة التوسع بالإلحاق . ومثال ذلك أن المتكلم يستطيع ، في : *i-vient, i-m raconte, des vrais caucous* : /vi...imrakôt... devre kākā/

استعمال الملفوظ الأوفر ، وذلك بتحقيقه من خلال أجوبة

محاورة ومسلك ، أن الملقوظ (المنطوق / القول) قد بلغ هدفه حقاً وأنه قد فهم : إن الشخص الثالث المعني بهذه المسألة ، لم يكن قد جاء إلا بهدف نقل وقائع تشكّل في نظره إتهاماً للمستمع . والمتكلم يجعله يعلم ، سواء باختياراته اللغوية أم بسلوكه غير الشفهي ، أنه لم يعط ما كان يقصده سوى رصيد محدود . ففي قول كهذا ، يعتمد المتكلم بكل وضوح ، على الوضع المباشر بقدر ما يعتمد ، على الأقل ، على السياق اللغوي ليبدّل على العلاقات القائمة بين الأجزاء المحدودة فقط بالوقفات في القول ذاته .

يمكن للطرق اللغوية المستعملة استعمالاً ناقصاً في قواعد الإبلاغ الشفهي الموقفي ، أن تكون في عداد تلك الطرق التي تدخل في تعارضات المنظومة الأكثر ثباتاً واستقراراً ، ومثاله يمكن في الفرنسية أن تُستعمل استعمالاً ناقصاً صيغ زمنياً مندمجة إندماجاً قوياً في المنظومة كصيغة الماضي وصيغة المستقبل . عندئذ يكون الحاضر هو المميّز ، أو بكلام أدق يكون واحداً من مدلولات الحاضر الممكنة ، مدلول « غياب الزمن » . إن ملفوظات ، مثل :

[I- vient, i-m'raconte; j'en ai besoin, tu me le rapportes quand tu viens]

هي أقوالٌ تبلغ هدفها تماماً ، على الأقل باستنادها إلى الوضع المباشر والسيّاق اللغوي على حدٍ سواء . وإنها لتبلغ أهدافها حتى في غياب كُليمات / مثل Hier أو Aujourd'hui / قد يمكنها على الدوام الاندماج في السياق اللغوي لكي تصاحب أو تحل محل صيغ لفظية جرى إقتصادها في مستوى التركيب التعبيري الشفهي ذاته :

[Hier il vient / il est venu, i-m raconte / i-m'a raconté, j'en ai / j'en aurai besoin demain, tu me le rapportes / tu me le rapportera quand tu viens / viendras...]

إنّ تستطيع ملفوظات الإبلاغ الشفهي التي تفيد إقادة

قصوى من وضعها الفوري ، أن تكون ناقصة ، لا نهوية ، أو أنها لا تستعمل الاحتياطي من الطرق اللغوية التي تمثلها المنظومة . وهي لا تستطيع فحسب ، بل يتعين عليها أحياناً أن تكون غير قواعدية ، لكي تتكيف على نحو أفضل مع الوضع المباشر الذي هو وضعها : وكان هيمز قد شدد بقوله :

[A person who chooses occasion and sentences suitably, but is master only of fully grammatical sentences is at best a bit odd, some occasions call for being appropriately ungrammatical (Communicative competence, p.227⁽⁵⁾).

VI/٢٠- الإبلاغ خارج الموقف والتلون المطبوع

عندما لا تكون المعلومات التي يقدمها الوضع المباشر ، قابلة للاستعمال لأجل تفعيل الوحدات اللغوية ، يتعين حينئذٍ الالتجاء إلى إرضان أكبر للسياق اللغوي ، فهذا الأخير يتعين عليه أن يكتسب مدى كافيًا للتعويض عن عدم فعالية الوضع المباشر . ولإرضان هذا السياق التعويضي ، سيكون على المتكلم أن يستعين بعدد أكبر من الطرق التي يمكن أن يوفرها له اللون الذي يتكلمه عموماً ، لكنه يستطيع أيضاً الاستعانة بالاحتياطي الذي يمثلّه اللون المطبوع . وبالطبع هذا الأمر غير ممكن إلا للمتكلمين المعتادين على هذا اللون ، وعندما يكون الحال هكذا ، يمكن لهذا الأمر أن يتضمن أيضاً

(٥) يبدو إن إن الإبلاغ الشفهي الموقفي وفواعده يتجهلان نحو التعارض مع الإبلاغ المسمى خارج الوضع ، خصوصاً في علاقاته التي يقيمها مع اللون المطبوع (انظر 20/III إلى 25/III) . غير أنه قد يكون من غير المسوّغ جعل هذا التعارض مطابقاً للعلاقات القائمة بين الرموز المصنوع والرموز المصنوع كما حثها بازيل برنشتاين (Langage et classes sociales, p. 70-77, et P.91-118) . ففي الواقع يدخل في تعريف هذه الرموز معطيات اجتماعية ، نفسية ولغوية أيضاً ، لم تؤخذ هنا ، كلها في الاعتبار .

استعمال طرق لغوية يفسح نواترها الاستعمالي المنخفض جداً ،
المجال للافتراض بانها في الواقع طرق خارجة من المنظومة الحالية
بالمعنى الدقيق . وفي هذا الحال ، يجري الكلام على معجم مدعوم ،
وحتى ماثور (كلاسيكي) أو حتى قديم .

إن الوظيفة الاحتياطية للطرق اللغوية التي يحتفظ بها اللون
المطبع في اللغة المسماة مشتركة ، هي من البيئات في مستوى
المعجمية ، وإن لمظها واستنتاجها من الأمور العدية المتأهية ، لكنها
من البيئات أيضاً في مستوى النحو والمباني ، ولا يخلو من الفائدة
النظر إليها في لغة كالفرنسية جرت قوتنتها مطولاً وبدقة متناهية ،
ويحظى تطبيعيها المعياري (تقيدها) منذ أميد بعيد بوسائل قوية
وفاعلة . إن اللون المطبع من الفرنسية يؤدي ، اليوم ، وظائفه
المرجعية والتعليقية إن لم نقل على مستوى الإرضاء العام . فعلى
الأقل على صعيد إرضاء المطبعين أنفسهم وما يتنزل منهم من
طبقات وجماعات اجتماعية .

وخلافاً لما يجري في الموقف ، من الصعب خلال الإبلاغ
خارج الموقف ، إنكار بعض طرق المنظومة ، كذلك في الفرنسية ،
ودون إنكار التوسع بالتراكب أو بالترابط ، سيفيد نحو الإبلاغ خارج
الموقف ، إفاة كبيرة من التوسع بالإلحاق والاستتباع . ويرتبط
الاستعمال الأقصى والدقيق للتوسع بالإلحاق ، في اللون المطبع من
الفرنسية ، يرتبط بعيد معين من الاستعدادات القواعدية التي بدأ
الإبلاغ الشفهي الموقفي والألوان غير المطبوعة ، يتحرر منها ، منذ
أميد بعيد . يمكن لهذه الاستعدادات أن تفرض اشكالا ، لا يتوصل
إلى الحفاظ على استعمالها استعمالاً فردياً سوى قوتنة دائية وتطبيع
مثار ومكابر . وإن ظهور بعض صيغ نصب الفعل (Subjonctifs)
يثير لدى المستمع ردود فعل تبدأ من الاحترام أو التواطؤ نحو
مستعملها ، وصولاً إلى الانزعاج منه ، مروراً بالاندهاش والهزل أو

التضليق ، وهذا ما يطلق عليه مارتان جوز (Martin Joos) أحياناً إسم
شكلائية مزعجة وإعرجاج معاكس للمجتمع تملأ.
(Joos, Isolation of styles, p.189- 190).

III/ ٢١ - المنظومة الشفوية للفرنسية المتداولة

إن الألوان غير المطبعة في الفرنسية تستبعد ، من جانبها ،
هذه الأشكال وتمتلك منظومة شفوية تختلف اختلافاً كبيراً عن
منظومة اللون المطبوع . وإنتا لندينُ لاندريه مارتينه (De l'économie
des formes verbales en français parlé, le français sans fard, p.91-
121) .

بالوصف الأكثر واقعية لهذه المنظومة . إن المنظومة
الشفوية للفرنسية المحكية ، الفرنسية المألوفة ، الفرنسية ، في
بوابيجها ، ، الفرنسية التي يجيد جميع المتكلمين الراشدين
استعمالها والتي يستعملونها بون خوف من الانخداع (Martinet, lan-
gue et fonction, p.151) - بخلاف منظومة اللون المطبوع -
قد يكون من غير المجدي بالنسبة إليها طرح وجود تصريفات شتى .
فيمكن الكلام على منظومة شفوية بلا تصريف ، بمقدار ما تكون
جميع الأفعال فيها متراخية بالكيفية نفسها ، بإضافة الحركات
الإعرابية (أواخر الكلمات : Désinences) ذاتها لموضوع ما ،
عندها يكون التباين الأساسي للدال هو تباين الموضوع ، ولكن
بالنسبة الى قلة من المعجمات الشفوية (Lexèmes) فقط ، في حين
أن أغلبيتها تحقق المثال ألا وهو وحدة الجذر (Radical) . في هذه
الشروط ، قد يكون من غير الحكمة التقليل من قيمة الفوارق القائمة
في مستوى المنظومة الشفهية . بين ألوان الفرنسية المطبوعة
والوانها غير المطبوعة ، خصوصاً إذا تناولنا أعمالاً تستعمل ما يسميه
لابوف (Labov) (Sociolinguistique, p. 200) مُشير الخطر اللغوي ،

ذلك الذي يسمح بقياس التعارض الذي يحدثه متكلم بين استعماله الشخصي والاستعمال الذي يعتبره صحيحاً .

III/ ٢٢ - العُرف الكتابي والتلونات اللسانية

إن استعمال الرموز الكتابي أو المكتوب يحرم الوضع المباشر من مساهمة فعالة في تفعيل الوحدات اللغوية ، وبالتالي يجبر السياق على تقديم مساهمة قصوى . لهذا يجري عموماً اعتبار المنشط اللغوي المكتوب كواحدٍ من الإبلاغات خارج الموقف ، سيستمر إلى أبعد حدٍ ممكن ، مساهمةً احتياطي الطرق الذي يمثله اللون المطبوع .

غير أن عدداً معيناً من الحالات يفصل المنشط اللغوي المكتوب واللون المطبوع ، أقله لدى المتكلمين الذين لم يكتسبوا أبداً استعمالاً فعالاً للون المطبوع . كما يحصل أن يكون مقبولاً من الوجهة الاجتماعية ضمُّ المنشط المكتوب إلى ألوان غير مطبوعة . واليوم يمكن بشكل مألوف جداً طبع اللون الدارج من الفرنسية ، وإن بعض المنشورات تجلب إليها ، على هذا النحو ، قسماً من قرأتها . وفي ناحية أخرى ، لا يكون هذا الضمُّ مقبولاً ، ومثال العربية ذو دلالة في هذا المجال ، فكتابة أو طبع ألوان غير مطبوعة من هذه اللغة لا يزال يطرح عدداً من المشاكل ، ويواجه كثيراً من المقاومات الاجتماعية . وإن واحدة من الصعوبات الأولى التي يلاقيها ضمُّ الرموز المكتوب إلى ألوان غير مطبوعة ، ناشئة عن عدم مناسبة التقاليد الإملائية المرتبطة منذ أمدٍ بعيد باللون المطبوع (المقعد) . ويكفي أن نلاحظ تقريباً النتائج التي يؤول إليها مجهود كتاب يحاولون كتابة حوار يمكن عزوه إلى اللون الشعبي أو إلى اللون العلمي من الفرنسية . وإن المحاولات الجارية لكتابة العاميات العربية ستفقد

اولئك الذين يتحملون مسؤوليتها إلى ابتكارات إعلانية في معظم الأحيان .

حتى في المجتمعات التي يبدو فيها مقبولاً ضم الرموز المكتوب إلى الألوان غير المطبوعة ، لا يكون هذا الاختيار سهلاً ، بالضرورة ، ويريئاً اجتماعياً . إن ضم الرموز المكتوب إلى لون غير مطبوع ، يمكنه ان يكون واحدة من الكيفيات للإعلان عن تضامن معين مع الجماعات الاجتماعية الناطقة بهذا اللون ، وبالتالي عدم التضامن مع المتمسكين باللون المطبوع .

III/ ٢٣ - الإبلاغ الشفهي خارج الموضوع

عندما لا يستطيع المنشط الشفهي الإفادة من المعلومات التي يقدمها الوضع المباشر ، يقدو هو أيضاً إبلاغاً خارج الوضع (الموقف) وصبب كل احتمال سيتعين عليه الالتجاء إلى اللون المطبوع ومميزاته . ويلفت فيشمان (Sociolinguistique, p. 46) الى ان الشكل الصحيح للغة ما ، اللغة العامة الصحيحة ، هو الوسيلة الإبلاغية الأضمن للتواصل مع المستمعين الذين لا يعرف المتكلم عددهم ولا تنوعهم . إنها الوسيلة الأضمن المتداولة بين جماعات ليس بينها علاقات أخرى ، الجماعات التي تطال بواسطة الإعلام الجماهيري ... إنها اللون الإبلاغي المستقل عن المتكلم والمستمع والذي يمكن التوقع بأنه سيكون فهمه ممكناً الى حد كبير . وهكذا يقترح فيشمان تعريفه الخاص بالإبلاغ الشفهي خارج الوضع ، ويشدد في وقت واحد على العلاقات التي يقيمها هذا الإبلاغ واللون المطبوع . فلا شيء يسمح بالافتراض أن هذا اللون المطبوع لا يؤمن عندئذ الوظيفة الاحتياطية للطرق المعجمية والقواعدية التي يؤمنها في خلال استعمال الرموز المكتوب .

ولكن بلوغ الطرق القواعدية والمعجمية للون المطبوع ، في أثناء الإبلاغ الشفهي ، غالباً ما يظل أقل يسراً مما هو عليه الحال في الإبلاغ المكتوب ، حتى بالنسبة إلى طرق المتكلمين المعتادين منذ أمد طويل على هذا اللون . وفي الوضع الاجتماعي / اللغوي الفرنسي الزامن ، يستطيع المتكلمون المنتصبون حتى إلى البورجوازية العليا أو الوسطى ، الإعلان عن خطر لغوي كبير ، يُترجم بـ « معايير شديدة التقلب في السياقات الشكلية ، وبمجهود تصويبي واع » .

(Labov, Sociolinguistique, p. 183- 184 et 203)

وفي أثناء ندوة صحافية متلفزة ، أمكننا ان نسمع من فم واحد من كبار المسؤولين في الدولة الفرنسية :

«Cela ne signifie pas que nous entrons dans... que nous entri...

qu'en entrant dans ce processus, nous avons...»

لا بد هنا من أن نلاحظ جيداً ، قلقاً لغوياً بيناً ، بشكل خاص في مواجهة الاستعمادات النحوية التي تفرضها طريقة التوسع باللاحق ، في اللون المطبوع من المنظومة الفرنسية . ونظراً لعدم تمكن المتكلم من التوصل ، في شروط الإبلاغ الشفهي وخارج الوضع ، إلى الطرق القواعدية التي كان ينوي أولاً الإفادة منها ، يبدو أنه اضطر إلى إجراء تعديل جزئي في المعنى الذي كان يتوقعه لقوله ، مما جعله يتوصل عندئذٍ إلى سلسلة أقوال ناقصة ، وحتى لا قواعدية .

III / ٢٤ - صوارة الإبلاغ الشفهي خارج الموضع

عندما يكون شفهيًا الإبلاغ خارج الموضع ، يمكن ان نتساءل أخيراً ما هي صواتته ؟ واية طرق استطاع المقعدون أن يأخذوا بها

في هذا المستوى لأجل اللون المُطْبِع ، وما هي الوسائل التي يملكون
لفرضها ، وما النتائج التي توصلوا اليها ؟

يشدّد فيشمان (Sociolinguistique, p. 44) على أن بعض الوان
المعجم الشفهي يجري اكتسابها ، في المجتمعات المركّبة ، أولاً
وان استعمالها يجري من ثم في الاتصالات اللغوية الفعلية
والمتواصلة داخل الجماعة الاجتماعية . وبالعكس لا يجري اكتساب
الوان اخرى إلا لاحقاً في حياة المتكلمين ، ويكون استعمالها
مدفوعاً ، أساساً ، بدافع إرادة الاندماج في جماعة مرجعية لا توجد
إلا نادراً ، وقد لا توجد أبداً ، بالمعنى الحرفي للكلمة . وربما تمثل
الامة متحداً لغوياً من هذا الطراز الأخير ، وعندئذ تمثل اللغة
المُطْبِعَة اللون المقابل لهذا المتحد .

في هذه الشروط ، لن نحظى ابداً بالميزات الصوتية للون
المُطْبِع إلا باكتساب تبليغي متأخر ، ومن بين الوسائل التي يملكها
المقصدون لفرض هذا الكسب المتأخر لمميزات اللون المُطْبِع
الصوتية ، لا يمكن تناسي التقاليد الإملائية وتأويلها ، التي تقضي
إلى ما سمي أحياناً صوارة قرآنية . ومن المعترف به عموماً أن
الفرنسية هي لغة لعب فيها الإملاء (ضبط الكتابة) دوراً كبيراً ،
ولا يزال يؤثر في النطق بلا ريب . ومثال ذلك أن التقليد المكتوب
يعطي لبعض الصوامت ترسيماً مزدوجاً ، في حين أن تعارض
الحروف البسيطة أو القصيرة مع المزدوجات أو الحروف الطويلة
ليس له ، حتى الساعة ، وجود صوتي حقيقي في منظومة الصوامت
الفرنسية . وعندها ، يكثر بعض المتكلمين من أشكال التردد
والتأخر : نادرون هم مذيعو التلفزيون الوطني الذين لا يذهبون في
لحظة أو في اخرى ، الى مد حرف الـ / m أو آل / لـ في / Collusion
/ Commenter / أو / Pollution / وبشكل أقل وريداً وانتظاماً بالنسبة
الى كلمات / Collage / Commission / أو / Collimateur / .

ومهما تكن أو مهما كانت الوسائل التي اختارها التقعيد لكي يفرض على الاستعمال الشفهي للون الفرنسي المُطْبَع ، صواتة خاصة ، موحدة ومستقرّة ، يمكن التساؤل عما إذا كانت الاهداف المنشودة قد تحققت . هناك ٦٦ ضابطاً من الجيش الفرنسي ، ولدوا جميعهم وترعرعوا في باريس ، يشكلون جماعة فرعية يمكن اعتبارها ممثلة للمتكلمين تعوّنوا باكراً على اللون المُطْبَع من الفرنسية ، سواء في استعمالها الشفهي أم في استعمالها المكتوب . ويبيّن استطلاع ميداني أجري على هؤلاء المتكلمين (Martinet, phonology as functional phonetics, London, 1949) ان من أصل هؤلاء المتكلمين الستة والستين لا يوجد إثنان يملكان منظومة صوتية متماثلة في كل نقطة . في هذه الشروط ، يبدو المعيار الفوقي أقلّ فعاليةً واستقراراً وتوحيداً في مستوى الصواتة مما هو عليه في مستويات القواعد أو المعجزة . وقد يكون مفيداً ، في السبيل الذي فتحه مارتينه (Pronon-ciations, p. 223- 235) ، التعرف الأفضل على السلوك الصوتي للجماعة المهنية / الاجتماعية التي يشكلها المدرسون ، وذلك باعتبارهم جماعة من أهم الجماعات الاجتماعية التي تحاول الطبقة السائدة استعمالها لاجل التطبيع أو التقعيد اللغوي . لكن لا شيء يسمح ، من وجهة قَبَلِيَّة ، بأن نعرز إلى المدرسين صواتة أكثر وحدة من صواتات الجماعة الاجتماعية التي وصفها مارتينه .

III/٢٥ - التنافر المعياري والتصويب اللغوي الفوقي

جرى التشديد غالباً على أنّ اللغة كانت مجموعة عادات ، كان سيرها يُعتبر مُرضياً بقدر ما كان ينأى عن رقابة المتكلم وضبطه الواعي . وبشكل خاص تُبرّر الملاحظة في مستوى العادات النطقية التي يتضمنها النظام الصوتي . وإذا تمكنت العادات النطقية الأولى

المكتسبة من النأي عن رقابة المتكلم وضبطه الواعي ، فإن هذا يفسر إلى حد بعيد جداً طابعها المستقر والمضمون ، وبالتالي يفسر الصعوبة القائمة وراء الرغبة في معارضتها . وهذا يفسر عنادها الذي يسير غالباً في اتجاه معاكس حتى لإرادة المتكلمين . إن مهمة القيمين على معيار فوقى في مادة الصَوَاتة ، ستكون صعبة بقدر ما تصادف أولاً لا وعي المتكلمين ، وبقدر ما تصادف أيضاً لا وعي المقعدين انفسهم . وللاقتناع بذلك ، قد يكفي النظر ، على سبيل المثال ، في موقف مقعدي الفرنسية ومطبعيها من الفعالية الجارية في راتوب (Ordre) الصَوَامت الحنكية لهذا اللسان .

نادرة كانت الانتقادات المعيارية للالتباس المكتسب منذ أمد بعيد بين الصامت الحنكي الجانبي / ʎ / والزمرة / ʎ / وبين الصامت الحنكي الأخرى في التوضع بين / ʎ / و / nʃ / . وحتى يردّ القيمون على المعيار ، تعيّن أن تنزع الزمرة / ʎ / ذاتها إلى الاندماج مع / ʎ / . اندماجاً ظاهراً مثلاً عندما تُلفظ / Suje /soulier / و / escalier /eskajɛ/ . إن قوة الرّد المعيارى أسهمت في جعل الالتباس يتراجع اليوم ، ذلك الالتباس الذي لم يطلّ ، ربّما ، إلا بعض أجزاء الأراضي الفرنسية . (Martine, Festschrift Onishi, P. 341-348).

يعتبر لاجوف أنّ التدخّل التقعيدي يمكنه أن يناقض المنظومة اللغوية وفعاليتها لدرجة التوجّه إلى شكل لغوي مصوّب يغدو لا منظومياً ، بعد استعماله في الأوضاع القاهرة . (System in creole, P. 452) . هذه الحالة الواقعية لا تنعكس في الخطر اللغوي الصريح لدى الكثيرين من المتكلمين فحسب ، بل تنعكس أيضاً في التصويب اللساني الفوقي الذي لا يمكن فصله عن هذا الخطر ، والذي يميّز خطاب الجماعات الممارسة ، في البدء ، لونا غير مطّبع ، والمعتادة ، بالتالي ، قليلاً على اللون المطّبع .

(Labov, Sociolinguistique, P. 193 et S.)

III/٢٦ - الميادين :

يقدرُ فيشمان أن ثمة فائدة كبرى من فحص الانتظامات المشتركة القائمة على صعيد كبير بين الألوان والوظائف المعترف بها اجتماعياً لهذه الألوان إنطلاقاً من مفهوم الميادين (domains) . إن الميادين (المجالات / الحقول) هي بناءات اجتماعية مستفادة من تحليل ومن تلخيص دقيق لمواقف مناسبة بكل وضوح^(٦) . إن الميادين متعددة وكثيرة ... المدرسة . الكنيسة . الأسرة . جماعة الحي ، مجموعة التسلية . البعض لا يقبل إلا الاستعمال المكتوب للمنظومة اللغوية ، والبعض الآخر يقبل استعمالها الشفهي لا أكثر . بعض الميادين تتحدد بوصفها تفالسية ، لأن عدّة منظومات أو عدّة ألوان تظل ماثلة فيها ؛ وبعضها الآخر يُعتبر حصرياً وذلك بقدر ما تتقبل فقط منظومة واحدة أو لوناً واحداً ، ومهما يكن الأمر ، يمكن للميدان أن يظهر كمفهوم مناسب ، بمقدار ما يرسم ، بين وضع عام ووضع مباشر ، وحدة قياسية وسطى وبالتالي يسر على الاستعمال في بعض مستويات البحث أو الوصف . وهناك تيارات أخرى من البحث الاجتماعي/ اللغوي تفضّل على مفهوم الميدان ، فحص المنشط اللغوي للجماعات أو لفروعها الاجتماعية وذلك من خلال

(٦) بالنسبة إلى اللسان الاجتماعية التقاطعية ، وفي المستوى الجزئي لتحليلها ، الموقف الاجتماعي المناسب بكل وضوح هو ذلك الذي تندمج فيه ، بالطريقة المأمولة حسب النمط الثقافي ، المعطيات الثلاثة التالية : إتجاز علاقة التور ، اللعظة ، ومكان العلاقة .

(Fishman, Sociolinguistique, P.61) . بعبارة أخرى ، يكون الموقف المباشر مناسباً بكل وضوح عندما يتطابق نطاقاً كلياً مع معطيات الوضع العام ، حتى لا يكون ثمة مفاجأة من اكتشافنا فيها : من يتكلم أية لغة أولون ، مع من يتكلم ، أين ، ومنى .

العلاقات التي يتعهد بها هذا المنشط مع المناشط الانتاجية ،
المناشطة الرامية إلى صون العلاقات أو إلى تغييرها ، أو أيضاً تلك
الرامية إلى معاودة انتاج قوة العمل أو الى ترميمها .

III/ ٢٧ - الميادين والسجلات :

يمكن أن نتوقع من العلاقة القائمة تاريخياً بين ميدان ولون أو
عدة ألوان من اللغة المشتركة ، أنْ تشترط السجلات داخل هذا
الميدان . وعندما شدّد فيشمان (Sociolinguistique, P.58) على أن
بعض التطابق يجب أن يوجد بين لون ما وخصائص المحيط
الاجتماعي قبل أن يكون ممكناً استعمال لون آخر لأغراض الكناية ،
قبل أن يكون ممكناً انتقال الكناية وظليفاً (معبراً عن تعارض بارز
بين الهزلي والجدّي ، بين الموافق وغير الموافق ، بين المهمل
والمهم ، في تبادل لغوي جار) ، لم يقدّم فيشمان بغير التشديد على
ضرورة هذا الاشتراط للسجلات بواسطة العلاقة بين :
الميدان/ اللون (الألوان) . وهكذا ، سيتعيّن على المنشط اللغوي
الممارس في ميدان التعليم ان يأخذ في الاعتبار العلاقة القائمة من قبل ،
بين : التعليم / اللون المطبوع . لكنّ المتكلم سيمكّنه أيضاً أن يختار في هذا
الميدان استعمال لهجة إقليمية ، اللون العامي ، اللون الشعبي من اللغة
المسمّاة مشتركة ، أو أيضاً ، لهجة محلية ، في مواضع الثنائية اللغوية .
وبذلك سيعترف فقط بأنّ الوضع المباشر (فرصة ، تبادل لغوي مع
مستمع معروف كمتكلم بهذه اللهجة الإقليمية أو المحلية ...) كان
موضوعياً لا يحتل سوى الاستعانة بلون غير مطبوع ، يسمع وحده
بتكليف السجل (المعجم) والوضع المباشر .

ولكنّ عندما يختار متكلم ما سجلاً ، وبما أنّ الأوضاع

المباشرة والسجلات تدخل في علاقات ترايبوية ناشطة^(٧) (Joos, Isolation, P.189) ، يمكنه باختياره هذا ، أن يحدّد ، سواء بالنسبة إليه أم بالنسبة الى المستمع ، الوضع المباشر كما يناسبه أن يكون ، أكثر مما هو معطى له موضوعياً ، وبالتعارض مع العلاقة : تعليم / لون مقعد ، يختار متعلّم ناطق بالعربية استعمال لهجة محلية في ميدان التعليم ، وسيحوّل الوضع المباشر الأشدّ إكراهاً (برهان علمي ، نقاش فلسفي ...) الى وضع يُراد منه أن يكون غير إكراهي (راحة ، تسلية ، فرصة ...) أو بالعكس ، يُراد منه أن يكون وضع توتر ، تعارض نظري أو شخصي مع التعليم أو مع المعلم . إن استعمال لهجة محلية عربية في ميدان التعليم يمكنه أن يظهر ، بين أمور أخرى ، إرادة خلق ما يسمّيه جوز وضعاً مباشراً معارضاً للمجتمع . ومنذئذٍ ، يكون واضحاً أنّ السجلات لا تتكيف مع المعطيات الموضوعية للوضع المباشر وحسب ، بل تتكيف أيضاً ، وعلى الأقل ، مع المعطيات النفسية لهذا الوضع : ما يعلمه المتكلم أو يظنّ أنّه يعلمه عن معطيات الوضع ، والتفسير الذي يعطيه لنفسه أو يريد أن يعطيه لنفسه عنه ، والتفسير الذي يعطيه له أو يريد أن يعطيه للمستمع الفردي أو الجماعي ...

III/ ٢٨ - الكفاية الإبلاغية :

إن حسن اختيار اللون اللغوي الذي سيستعمل وفقاً للمستمع ، للمكان ، للزمان أو بمقتضى المنشط اللساني ، هو ما أطلق عليه هيمز ، في منظار قريب من القواعد التحويلية والتوليدية ، الكفاية أو الكفاءة الإبلاغية (Hymes, on Communicative compe-

(٧) يستعمل جوز (الفرصة الاجتماعية والاسلوب) ، بينما نقترح نحن (الوضع المباشر والسجل) .

(tence, P. 277-278) . بالمعاقلة مع الكفاية النحوية ، وهي هذه المعرفة الضمنية التي يملكها المتكلم عن بُنى اللغة والتي تسمح له بأن يفهم ويفتح عدداً لا يتناهي من الجمل ، فإن الكفاية الإبلاغية هي تلك التي تسمح بإدراك الجمل ، لا بوصفها وقائع لغوية وحسب ، بل أيضاً بوصفها وقائع مناسبة إجتماعياً ، ويفضل اكتساب هذه الكفاية ، يصبح الطفل قادراً على تمييز اللحظات التي يتعين فيها الكلام أو عدمه ، ويتعلم ما يلزم الكلام فيه وما لا يلزم ، وابن يتكلم وكيف يتكلم . وهكذا ، يغدو قادراً على المشاركة بنفسه في مناسبات الجماعة اللغوية ، وتقويم قيام الآخرين بهذه المناشط . ويوضح هيمز أنه لا يجوز اعتبار كسب الكفاية الإبلاغية بوصفها تلقياً متأخراً أو زرعاً في معارف الولد ، فعلى العكس ، أظهرت معطيات متعلقة بالسنوات الأولى لكسب القواعد الانكليزية أن الأولاد يطوِّرون استعمال فوارق الشكل في شتى المواقف والمواضع . وفي الوقت الذي اكتشف فيه شاب أروكاني (Araucan) من تشيلي ، قواعد الاستفهام في المنظومة اللغوية التي اكتسبها ، اكتشف واقعة أن تكرار ملفوظ استفهامي هو ، من جانب المستمع ، إهانة للمتكلم . إذن ، يصح التشديد على وجود قواعد استعمال قد تكون قواعد النحو والصرف ، من دونها ، غير قابلة للاستعمال تماماً .

III/ ٢٩ - تصنيف السجلات :

• ليس الكلام على مستويات بدلاً من سجلات ،
طريقة دفامية في الكلام .

[جورج موان]

على غرار مفردة لون/ تكون ، يفترض بمفردة سجل أن تكون مصطلحاً فنياً ، منزهاً عن كل عاطفة ، لا يتضمن أي حكم قيمي ، ولا

ينطوي على أي تراتب . وإثنا إذ نصفُ مستوىً واستعمالاً أو أسلوباً بأنه مبتذل ، عامي ، شعبي ، عادي ، شائع ، مسنود أو نبيل ... إنما نقترح مرةً أخرى سلمَ قيمٍ وتصنيفاً هو في الواقع النقي عينه للسجل المعترف كأنه تكييفٌ للمنشط اللغوي مع وضعه المباشر . هناك بعض المستويات والاستعمالات أو الأساليب تعتبر كأنها ممكن أن يوصى بها اجتماعياً ، وأخرى تعتبر محايدة ، وأخرى أيضاً تعتبر قابلة للإدانة تماماً . إن الاستناد إلى المعيار الفوقي ، وإن كان ضمنياً ، ليس هو مع ذلك أقلُّ ثباتاً ، ولا يمكنه إلا أن يضيفي السواد على كل محاولة وصف .

يقترح جوز في مقاله الصادر عام ١٩٥٩ ، تصنيفاً في خمس وحدات : السجل الحميم (Intimate Style) ، السجل الدارج (Causal Style) ، السجل غير العميّر (Consultative Style) ، السجل الشكلي (Formal Style) والسجل المعجمد (Frozen Style)^(٨) . ويتصور جوز نفسه هذا التصنيف كأنه سلم ، لكنّه سلمٌ قائمٌ أولاً على المعطيات النفسية للموقف المباشر ، وبالأخص تلك المعطيات التي تصنع العلاقات بين المتكلمين ، فتجعلها علاقات حرة كثيراً بالنسبة إلى العلاقات الأكثر قسراً وإكراهاً :

«We Can say that «styles» belong with is called «set» in psychology, not descriptive linguistics, Joos, Isolation, p. 187-191).

وبكل تحفظ ، يضيف جوز أن بعض السجلات تبدو له محبوبكة الصياغة لدرجة أنه يعتبرها ، في الوقت الحاضر ، كأنها غير قابلة للتحليل ، ويعطي البعد الاجتماعي للمسائل حين يوضح أن

(٨) أي بالفرنسية : Le Registre intime, le registre courant, non-marqué, formel et gelé.

ومن الواضح أننا اعتمدنا في تعريفنا هذا المقابل الفرنسي ، لا الانكليزي .

فرضيته المتعلقة بوجود خمسة أساليب (سجلات) ربما لا تصلح إلا بالنسبة إلى اللغات القومية ، وبعبارة أخرى بالنسبة إلى اللغات المشتركة التي تكون ، في المجتمعات المركبة ، منظومات تلوّنات حقيقية .

III / ٣٠ - التسجيلات والتلوّنات

يبقى من غير العيسور إيجاد معايير تصنيفية للمواقف المباشرة التي تتكيف السجلات معها . فالمواقف التي تتقبل أو تفرض المنشط اللغوي لا تتناهى عدداً ، ومكوّناتها لا تكون قابلة دائماً للتوقع ، كما أنها لا تكون قابلةً للتحليل بكل وضوح . وعليه ، فإن وضع تصنيف للسجلات على أساس تصنيف مواقعها المباشرة ، قد لا يمثل سوى فوائد قليلة . دون ابتسار لوجود سمات تصيدية غير لسانية ، بالنسبة إلى سجلات الخطاب ، يبقى من الممكن أن نتصورها من زاوية علاقات تبعيتها مع لون أو عدة ألوان تؤلف اللغة المسماة مشتركة . ويمكن لسجل أن يكون تابعاً للون العامي ، بقدر ما يمكنه أن يضع في لعبة المشاركة عدداً من المميّزات المنتمية إلى هذا اللون ، أكبر من عدد المميّزات المنتمية إلى أي لون آخر من اللغة المشتركة . ويمكن للسجلات التابعة لهجة إقليمية أن تدخل في لعبة المشاركة عدداً من مميّزات هذا اللون أكبر من عدد المميّزات المنتمية إلى اللون المطبّع ، المتداول ، الخ ، وقد تتبع للون المتداول السجلات التي يمكن للمتكلّم بها أن يتجنّب استعمال المميّزات الأكثر وضوحاً في لهجته الإقليمية في اللون الشعبي في اللون المطبّع والمقعد ، ولكن يمكنه أيضاً أن يتجنّب استعمال مميّزات اللون التقني أو العلمي الذي يمكنه أن يمارسه في مجال آخر ، الخ ، يستطيع المتكلّمون أن يختاروا سجلاً تابعاً للون

المتداول ، عندما لا يعرفون كل معطيات الوضع المباشر او عندما يريدون اجتناب تعريفه كما هو او كما يناسبهم ان يكون . وإن المتكلم إذ يختار سجلاً تابعاً للون المتداول ، يترك للمستمع ، بكيفية ما ، مبادرة تقديم الوضع المباشر ومبادرة تحديده كما سيناسبه عندما سيفقدون متكلماً بدوره . كما يمكن للمتكلم ان يكون مهتماً بعدم لفت انتباه المستمع إلى أصله الشخصي ، الاجتماعي او الجغرافي . إن قولاً مثل (Mon père a fait flic) قد يذكر المستمع ، حكماً وضرورة ، بأصل المتكلم الاجتماعي ، سواء من حيث معنى القول أم من حيث شكله . إن قولاً مثل (Qu'est - ce que je mets pour dîner?) مع قيمة (Qu'est - ce que je prépare pour déjeuner?) (المقتطف من مدونة جرى جمعها في المنطقة البيتروازية) قد يحمل مخاطر عدم الإشارة إلى أصل المتكلم الجغرافي ، عندئذ يمكن للمتكلم ان يختار سجلاً تابعاً للون المتداول . وأنه يفعل ذلك حتى لا يستوقف انتباه المستمع ، وذلك بإبعاده عما قيل ، لصالح الطريقة التي قيل فيها ؛ ويكون الهدف الأول لهذا الاختيار هو أن يوفر بشكل أيسر الإبلاغ على مستوى التداخل الجماعي . هذه بلا شك هي الوظيفة الاجتماعية التي تعدد على أفضل نحو لونا تداولياً وما يتبعه من سجلات . وقد يكون اللون المتداول وسجلاته ، قبل كل شيء ، هذا الواقع اللغوي الذي تؤول إليه الجهود التي يبذلها المتكلمون ، بلا كلل ، لكي يردوا أفضل رد على مستلزمات الإبلاغ بين الجماعات ، فيصنّفوا بقدر الإمكان وفي مجرى المنشط اللغوي ذاته ، المميزات التي تصنع من جهة ثانية اللون الممارس أو الألوان الممارسة .

III/ ٣١ - السجلات المركبة

إلى جانب السجلات التي يمكن تسميتها بسيطة بقدر ما تتبع

بشكل خاص جداً للون لغوي ، لا بد من تصور وجود سجلات مركبة حيث يظهر ، على الرغم من الهيمنة المسبقة لمميزات تنتمي إلى لون A ، عدد لا يمكن إنكاره من مميزات صادرة عن لون B أو عن لون C ، أو عن اللونين معاً . كذلك ، لا بد من التصور ، في سجل واحد ، إمكان توازن مجمل مميزات A ومجمل مميزات B أو C الخ. دون أن يكون هناك ، حقاً ، هيمنة مسبقة ، لهذا المجمل أو لذاك . كم يلزم من المميزات من لون B لكي يغدو السجل البسيط أولاً ، والتابع للون A ، سجلاً مركباً ؟ عندما يمتلك اللون B مميزات صوتية قواعدية ومعجمية في وقت واحد ، ما هي المميزات التي ستكون الأفعال لتمرير سجل تابع لـ A ، إلى سجل مركب A-B ؟ على هذا النحو جرى التساؤل : ما هي مميزات اللون BEV^(٩) التي ينبغي لمتكلم أميركي أسود ، إقتراضها من هذا اللون لكي يستطيع خطابه ، الدائر في لون آخر من ألوان الانكليزية الاميركية ، ان يجد سجله (معجمه) المتكئف مع الأوضاع المباشرة التي يخلقها دخوله مجدداً في الجماعة العائلية / جماعة الحي ، أو جماعة التسليات ، عندما تكون هذه الجماعات قد جرى هجرها منذ أمم بعيد .

وكما يوجد في اللغات القومية المعاصرة تشكيلة كاملة من الأشكال (الألوان) المتباينة ، القائمة تدريجياً والمنصهرة في بعضها البعض (Martinet, langue et fonction, p. 139 - 140) ، يوجد في خطاب معين ، تشكيلة كاملة من السجلات المختلفة . ويمكن للسجلات التي لا تشكل وحدات متألفة ولا متفاصلة ، ان تنتقل

(٩) Black English Vernacular (اللهجة المطية الانكليزية السوداء) : لتسويغ هذه التسمية . ولأجل مدخل وجيز إلى الوقائع اللغوية التي تشتمل عليها ، يمكن مراجعة : Peter TRUDGILL, Sociolinguistics, Penguin Books, 1974, P.65
et s.

تدرجياً من السجل البسيط إلى السجل المركب ، وبالعكس . إن وجود تواصل خطابي (Continuum de discours) مصطلح وضعه دافيد دكمب لوضع جامايكا ، انظر لاحقاً IV/ ٢٩) يقوم إنطلاقاً من شتى ألوان لغة واحدة ، لا يعود بعدئذٍ فرضية ينبغي استبعادها بلا فحص وتمحيص .

III/ ٣٢ - الوظائف الثانوية للغة

في نظر رومان جاكوبسون (Essais, p. 207- 241) ، العوامل التي لا يمكن التنازل عنها في كل إبلاغ شفهي هي : المرسل إليه ، المرتبط بالوظيفة الصوتية التبادلية (Fonction conative) : السماعي ، المرتبط بالوظيفة المرجعية : الرسالة ، المرتبطة بالوظيفة الشعرية : الإتصال المرتبط بالوظيفة (Phatique) ، وعامل الراموز (Code) المرتبط بوظيفة اللغة التقعيدية (ما فوق اللسانية) . ويكون المتكلم أو المرسل مرتبطاً ، من جهة ، بالوظيفة التعبيرية . وعندما يكون الخطابُ مُركّزاً على المرسل ويرمي إلى التعبير المباشر عن موقف الفاعل تجاه ما يتكلم عنه ، عندئذٍ تعمل الوظيفة الثانوية للغة ، ألا وهي الوظيفة التعبيرية . كذلك ، فإن هدف الرسالة كرسالة أي التشديد على الرسالة لحسابها الخاص بها ، إنما يُظهر الوظيفة الشعرية للغة ، الخ .

غالباً ما جرى التعليقُ على فرضية جاكوبسون ، ويبقى تعليق هيمز (Speaking, p. 99- 138) واحداً من أهم التعليقات ، لأنه يندرج بكيفية انتقادية منظورات جاكوبسون ذاته . هذا التعليق يناقش أولاً عدد وتنوع العوامل والوظائف المميزة في فرضيات جاكوبسون . إن وظيفة قابلة للتحدد في متحدٍ ما ، يمكن غيابها في متحدٍ آخر ، وحتى وإن ظهرت بعض الوظائف كأنها ملحوظة عالمياً ، فمن الأفضل أيضاً

البحث عن تحديد ما هي الوظائف الخاصة بكل حالة معينة . لقد سبق لجاكوبسون أن كان متحفظاً في التشديد على أن تنوع الرسائل لا يكمن في احتكار هذه الوظيفة أو تلك ، بل يكمن في الفوارق التراتبية بين هذه الوظائف في كل رسالة ، عندها ، تكون بنية الرسالة تابعة قبل كل شيء للوظيفة السائدة من ذي قبل . اما هيمز فيعتبر من جانبه ان الميزة المعنوية لبعض الرسائل قد لا تكون الهيمنة المسبقة لواحدة من الوظائف الثانوية للغة ، بل تكون بالأولى التوازن التناغمي أو التغلبي بين عدد من هذه الوظائف . أخيراً يؤكد هيمز على أن الوضع المباشر ، المُهمل في فرضية جاكوبسون ، هو عامل من المرتبة الأولى ، وأنه كامن وراء معظم العوامل الأخرى . يقول : من الارتجال إبراز وتمييز عدد صغير من العوامل لإقامة الوظائف الثانوية للغة وتأسيسها ، دون إعطاء مكانة لمعطيات الوضع المباشر الأخرى ، أو للوضع المباشر ذاته بوصفه معطى كلياً .

في الحقيقة ، من حقنا التساؤل عما إذا كان من الضروري ، لتبرير تنوع الرسائل ، إصدار فرضية وجود ستة عوامل لا يمكن التنازل عنها في الإبلاغ الشفهي ، وست وظائف ثانوية للغة . اليس تنوع الرسائل هذا يمكن تفسيره وبشكل كافٍ ، بضرورة تكييف الخطاب مع كل أو بعض وضعه المباشر؟ وإذا أخذنا بثانية هذه الفرضيات ، فإننا سنأخذ أيضاً بملاحظتين لهيمز (Speaking, p. 120) . الأولى هي ان وجود عدد صغير جداً من السمات اللغوية يكفي لكي يُعزى خطابٌ إلى سجلٍ ما بدلاً من عزوه إلى آخر ، أو إلى لونٍ ما بدلاً من لونٍ آخر .

وملاحظة هيمز المهمة الثانية (ibid., p. 112) هي أن عامل اللغة هو أيضاً عامل متغاير في بعض المتحدات . وهذا معطى لا تتناوله فرضيات جاكوبسون .

III/٣٣- السجلات والتباين بين اللغات

وهكذا يمكن أن يتم تكيف الخطاب مع معطيات الوضع المباشر ، باستعمال مميّزات تنتمي الى ألوان مختلفة في منظومة واحدة ، وكذلك بالانتقال من منظومة لغوية الى منظومة أخرى . بالنسبة إلى بعض الناطقين بالعربية ، سيؤدي الانتقال من التعليق على حدث عائلي الى التعليق على حدث من الحياة المهنية أو السياسية مثلاً ، إلى إبدال لهجة عربية اقليمية من الإنكليزية أو الفرنسية ، وإن إبدال الاسبانية من الإنكليزية ، لدى المتكلمين المنتمين إلى المتحدّ البورتوريكي النيويوركي يمكنه أن يكون مرتبطاً بتغير في معطيات المتكلمين النفسية ، ومثاله أن الانتقال من التوافق إلى التنازع بين المتكلمين قد يكون كافياً لذلك (Fishman, Sociolin- guistique, p.55) . عندها ، سيتعيّن على تعريف صحيح للخطاب أن يأخذ في الاعتبار ليس التباين ضمن اللغة وحسب ، بل أيضاً الإفادة الممكنة من التباين بين اللغات في المتحدات المتعددة اللغات.

III/٣٤- إعداد الرسالة والمقومات الموقفية

عندما يوضع الخطاب بكيفية يكون التشديد فيها على الرسالة لصالح الخطاب بالذات وعندما يكون الخطاب مستهدفاً من حيث هو خطاب وتتغلب الوظيفة الشعرية للغة ، حسب جاكوبسون ، على كل ما عداها ، لا يكون من المستحيل اعتبار ذلك بمثابة تكيف للمنشط اللغوي مع وضعه المباشر ، وإذا كان الحال كذلك ، فعاداً ستكون مقومات هذا الموقف التي سيكيف المتكلم خطابها معها بشكل خاص ؟ إن الباحثين الذين أثاروا مسألة وضع الرسالة كرسالة إنما يعطون الأوليّة ، عموماً ، للمكونات النفسية الممكن عزوها الى المرسل ذاته . تأتي في المقام الأول مفاهيم الاختيار ، الإرادة ،

النّية لدى المرسل ، وهكذا . يعتبر كونراد بيرو (Conrad Bureau, Sty-
listique, p.109) أنّ وضع الرسالة كرسالة هو عمل طوعي على اللغة
وباللغة . ويقدر ما يكون المتكلم هو مُفْعَلُ المنطومة ، سيكون
الشاعر أو الكاتب ، كلاهما ، اللذين يبحثان عن تفعيل اللفّة في
أقصى حدودها ؛ وينظرهما يكون هذا التفعيل الأقصى هو المبرّر
الأول لطريقة استعمالها اللفّة (ibid., p.20).

لقد أمكن في بعض الأحيان الزعمُ بخفض مفهوم الأسلوب
إلى مفهوم الاختيار ، واعتبارهما متماثلين . غير أنّ بعض الباحثين
يروون أنّ من الأصوب عدم إدخال مفهوم الاختيار إلّا بوصفه شرطاً
للأسلوب . وعليه ، فإن لويس بوييتو يعتبر أنّ الأسلوب هو الكيفية
التي تتمّ بها عملية ما بالفعل ، وذلك على قدر ما تكون هذه الكيفية
ليست هي الوحيدة الممكنة ، وإنها كانت بالتالي موضوع اختيار
الفاعل (Prieto, Langue et Style, p.5) . وفي إطار ما يتعلّق بالنحو في
خلال وضع الأسلوب، يعتبر بيرو أنّ كل جملة هي نتيجة عملية
إجرائية أجبرت الكاتب على أن يختار ، ليس جملةً بين عدّة جعل
واقعية (اللغة لا تقدّم سوى إمكانات نظرية للجعل) ، بل بعض
قواعد بناء بدلاً من قواعد أخرى ، لكي يتوصل إلى إنتاج جعل
واقعية مميزة بهذا الفائض بالنسبة إلى اللغة التي هي الأسلوب . إن
وجود القواعد واستعمالها يرجعان إلى اللغة ، لكن اختيار القواعد
وطرق استعمالها يرجعان إلى الأسلوب. من بين الإمكانيات النظرية
للجمل التي تقدّمها الفرنسية وعدد معين من لغات أخرى (مُسند
إليه + جملة تابعة : فاعل + مسند إليه : فاعل + جملة تابعة +
مسند إليه + جملة تابعة أولية + جملة تابعة غير أولية ، الخ.) ،
سيكون الاختيارُ الواقع على هذه الامكانية أو تلك ، هو الذي سيتعلّق
عندئذٍ بالأسلوب وبعده النصوي .
(Bureau, Stylistique, p.21).

III/٣٥- الرواميز العليا

(المتصنيفات : Surcodes)

إن الاستعمال الفعلي لمنظومة اللغة لا يدير سوى جزء من الرسالة ، وإن المتكلم يمكنه أن يسمح لنفسه باستعمال تباينات البنى على المستوى الصوتي أو المعناني للوحدات الدلالية ، أو في راتوب هذه الوحدات وترتيبها في المنطوق . ويمكنه أن يمارس حرية اختيار معينة لكي يعطي وجوداً حقيقياً لاحتمالات المنظومة (Bureau, Stylistique, p.19) . لقد سبق لبعض احتمالات المنظومة هذه أن استفادت منها التقاليد الأدبية لتأسيس سلسلة منظومات تنضاف إلى الإكراه الذي تمثله المنظومة اللغوية ذاتها . إن الإكراهات القياسية أو الإكراهات التي تحدّد الأنواع الأدبية المختلفة ، الخ . هي التي يسميها بيرو الرواميز العليا القبليّة (Surcodes à priori) . وفي أثناء عملية الترميز الفوقي الأسلوبي ، وخارج الرواميز العليا القبليّة ، ستعمل إمكانية الاختيار الممنوحة للمُرْسِل ، بخلق رواميز عليا تمكن قراءتها لاحقاً وحسب في الخطاب . إن تنظيم احتمالات المنظومة اللغوية في إيقاعات وتماتلات أو تعارضات نحوية ، معنائية ، الخ. سيفضي إلى منظومات حرّة ومكوّنة ظرفياً ، وإلى تجديدات وابتكارات متسلوقة ومتعلّقة بالفرد المُرْسِل وحده : إنها الرواميز العليا البغدئية . وبهذه الرواميز العليا يغدو الترميز الأسلوبي الفوقي استدماجاً للفردّي ، لقرادة المُرْسِل ، في عمل الانبناء اللغوي . إن الأسلوب ، أكان هدفه جمالياً أم غير جمالي ، هو اختلاف في استعمال الرموز المقابل لاختلاف في اكتناه الواقع ، والمطابق لرؤية الوجود رؤية مخالفة (Bureau, Stylistique, p.30-31) . والحصيلة هي ان لا شيء يمكنه أن يتعارض مع اعتبار الترميز الأسلوبي الفوقي بوصفه مسجلاً للخطاب وتكيفاً مع وضع

مباشرة قد يكون أحد مكوناته المميزة هو المرسل ذاته في علاقاته مع الراموز ومع المرجع ، المرسل بوصفه فرداً يحمل ، بكيفية ما ، نظرة فريدة الى بعض الوقائع الاختبارية (Ibid., p.17) . ومما لا شك فيه أنّ الترميز الأسلوبى الفوقى ، يُظهر بشكل أفضل من كل سجل آخر للخطاب ، أنّ التباينات الممكنة لدى مستعمل ما للمنظومة اللغوية ، ليست ممكنة بالضرورة لدى مستعمل آخر ، وأنها تستطيع أيضاً ان تختلف عن تباينات خاصة بالجماعة كجماعة .

III/36- الترميز الأسلوبى الفوقى

والتباين اللغوى

إذا كان الترميز الأسلوبى الفوقى يظهر إرادة المبدع في جعل اختلاف خطابى يطابق رؤية للعالم مختلفة ، لا بد من التوقع أنّ بإمكان هذا الترميز الفوقى جعل كل الألوان التي تصنع اللغة المشتركة ، ألواناً مساهمة ومشاركة . ومن الواضح تماماً ان الترميز الفوقى لن يستطيع إعمال الاحتياطي من الأساليب اللغوية الذي يمثله اللون المُطْبَع والاحتمالات التي تظهرها المنظومة من خلاله وفيه . إن العلاقات المعقدة منذ أمدٍ طويل بين الترميز الأسلوبى الفوقى واللون المُطْبَع والمعيار الفوقى ، تميز إنتاجاً فائضاً جداً . ففي كثير من المتحدثات اللغوية ، سارعت الجماعات الاجتماعية السائدة إلى الاستيلاء على هذا الإنتاج واستدماجه في الثقافة الرسمية . وفي نطاق الميدان الفرنسى ، مثلاً ، كان لإنتاج سلان - جون بوس ، قبلياً على الأقل ، حظ أوفر لكي يندمج في الثقافة الرسمية من إنتاج غاستون كوتي أو أرسيتيد بريان .

غير أنّ العلاقات المميزة اجتماعياً بين ترميز أسلوبى فوقى ولون مُطْبَع (مُقَد) ، لا يجوز لها ان تُنسبنا ان الترميز الأسلوبى الفوقى لم يعد مرتبطاً باللون المُطْبَع وحده ، أكثر مما هو مرتبط بأي

لون اخر من اللغة المشتركة . من العُسلْم به ، وحتى من الشائع ، ان اللون المطبوع واللون المتداول ولهجة إقليمية أو عدة لهجات إقليمية ، تسهم جميعها وتتشترك ، لغايات اسلوبية ، في خطاب واحد . وهكذا ، وعلى الرّغم من التراث الثقافي الاجتماعي المعارض ، أخذ التردد يتضائل اليوم ، شيئاً فشيئاً ، في العالم العربي إزاء إشراك اللون المقعد والألوان غير المقعدة ، في أهداف الترميز الاسلوبي الفوقي .

في الهدف ذاته ، يمكنُ لمميّزات اللون العامي من الفرنسية ان تتعايش مع مميّزات اللون المطبوع أو المتداول : فميّزتها التخريبية ، ومزاياها الرمزية - اللغوية ، واستعمالها لاحتمالات المنظومة تقرب العامية من الصياغة الاسلوبية ويمكنها أن تجعل منها ذروة اللعبة اللغوية (Denise François, Les Argots, p.620- 646) . وعندما لا يوجد لون مطبوع ، يمكن للترميز الاسلوبي الفوقي ان يفيد من التلون ما بين العاميات وحده ، أي من مجموع الألوان غير المطبوعة .

هكذا يبدو تماماً حال الخطاب الذي يحلّه جامس ج. فوكس (FOX, Rotinese wiew of language, p.65- 88) . ويتعلّق الأمر بنصوص مجموعة من روتي (Roti) ، وهي جزيرة في الأرخيبيل الأندونيسي . إنها نصوص طقسية تُقال ، تُرثل أو تُغنى في مناسبات التفاعل الاجتماعي الشكلي ؛ تسمى (Binis) وهي تقابل رواميز فوقية قبلية ، متشددة جداً ، فتركيبها قائم على توازي المقاطع الطويلة نسبياً ؛ والمعجمية الضرورية لهذا التوازي / العدد الأكبر من الكلمات المترادفة / توفرها مختلفُ عاميات روتي ، والمستمعون وَاعون لواقع أن في أزواج الكلمات المترادفة ، تأتي احدي المعجمات من زمرة العاميات الغربية ، وتأتي المعجمة الأخرى من زمرة العاميات الشرقية . يضيف فوكس ان الشعور الناتج لدى

المستمعين هو شعور بالغرابة . وإن المبدع (هو بلا شك جماعي أكثر مما هو فردي في حالة هذه النصوص بالتحديد) إذ يستفيد على هذا النحو من التباين بين العاميات ، إنما يبدو حينئذٍ كأنه بلغ غاية الترميز الأسلوبية الفوقية وأنه قام على هذا النحو بواسطة فروقات في استعمال الرموز ، بإبلاغ فرقٍ ما في اكتناه الواقع . ويضيف المؤلف أن الاستثمار المنهجي للتباين العامي لغايات أسلوبية ليس خاصاً بالتراث الروتي وحده ، وأنه ملحوظ في أماكن أخرى . في الإبداعات الطقسية للبورنيو (Bornéo) ، في بعض متحدثات المايا ، وفي الشعر العبراني في العهد القديم ، الخ .

إن استعمال التباين بين اللغات ، أي الانتقال من منظومة لغوية إلى أخرى ، جرت دراسته كتكليف للخطاب مع المرجع ، مع المرسل إليه ، مع المكان أو لحظة الخطاب . ولكنه دُرِسَ على نحو أقل من حيث هو مساهمة ممكنة في الترميز الأسلوبية الفوقية ، ومن زاوية الإمكانيات التي يقدمها للمرسل لكي يبلغ فرقا في اكتناه الواقع ، باستعمال شخصي لشئى الرواميز التي بحوزته . لماذا لا تكون اللحظة أو وتيرة الانتقالات من لغة إلى أخرى في خطاب متكلم متعدّد اللغات ، قابلة للاستعمال لغايات الترميز الأسلوبية الفوقية ؟ وكما كان صعباً تحديد السجل (المعجم) دون الإحاطة في وقت واحد بالتباين ضمن اللغات وبين اللغات ، سيكون بلا شك هذا العمل مجردة ناقصة لموارد الترميز الأسلوبية الفوقية ، بقدر ما يكون تناسياً للموارد التي يقدمها التباين بين اللغات في المتحدثات المتعدّدة اللغات .

المواقف
اللغوية المتعددة

التعددية اللغوية والمجتمعات « البسيطة »

IV / ١ - الثنائية اللغوية ،

التعددية اللغوية ، الاحتكاكات اللغوية

ليس التباين ضمن اللغة هو الوحيد القادر على طبع النشاط الخطابي لمتحدٍ ما . فالتباين بين اللغات ، ذلك الذي يُلحظ بين المنظومات ذاتها ، يمكنه أيضاً أن يطبع هذا النشاط . إن الثنائية اللغوية أو التعددية اللغوية ، أي أن استعمال منظومتين أو أكثر ، من جانب المتكلمين في متحد واحد^(١) ، لا يمكنه إلا أن يبدل معطيات التباين ضمن اللغات ، الخاص بكل منظومة من المنظومات المعنية ، لكنه لا يتعارض مع وجود هذا التباين ذاته .

إن التعريفات وتوجيهات البحث التي يقترحها أوديبيل فاينريخ (Uriel Weinreich, Contact) ، بالنسبة لاحتكاك اللغات والمواقف

(١) بما أن الثنائية اللغوية ليست سوى حالة قصوى من التعددية اللغوية ، فإن هذا المصطلح الأخير ، الأعم ، سيستعمل هنا . إلا إذا كان من الضروري أن نوضح أن المقصود هو استعمال لغتين فقط .

اللسانية الاجتماعية المتعلقة بها ، لا تزال على الرغم من قدمها ذات سلطان مرجعي دائم . يُقال إن لغتين أو أكثر هما على اتصال واحتكاك ، إذا كانتا مستعملتين استعمالاً تعاقبياً من قبل الأشخاص أنفسهم . والأفراد الذين يستعملون هذه اللغات هم ، عندئذٍ ، مجال الاحتكاك . وأمثلة الانحرافات بالنسبة الى معيار كل لغة ، التي تنتج في خطاب الناطقين بعدة لغات ، كنتيجة لاعتيادهم على غير لغة ، أي كنتيجة لاحتكاك اللغات ، ستجري الإشارة اليها كوقائع تبادلية . ويوضح هليغريخ أنّ المسألة ذات الفائدة العظمى في التداخل اللغوي هي تفاعل العوامل البنوية واللابنوية التي تحرك التبادل أو تحول دونه . ويضيف : كذلك ليس من الممكن الاحاطة تماماً بوقائع تبادلية ، بهذه الوقائع الخطابية وتأثيرها على معيار كل من اللغات المعرضة للاحتكاك ، إلا إذا كان اللساني قد أخذ في اعتباره العوامل غير اللغوية . إن هذه العوامل النفسية والاجتماعية الثقافية ، تشكل الوضع العام والأوضاع المباشرة لاحتكاك اللغات واتصالها . وهذا يعني أنّ المواقف اللغوية المتعددة ستكون ، حسب كل احتمال ، بين أكثر المواضيع تركيبياً وتعقيداً ، التي سيكون على اللساني واللساني الاجتماعي أن يفحصاها .

IV/2 - اتصال اللغات والمجتمعات ، البسيطة ،

إن تجمعا بشريا ، قليلاً عددياً ، معزولاً نسبياً ، وبعيد التمايز اجتماعياً ، يمكنه بكل وضوح أن لا يستعمل سوى منظومة لغوية واحدة ، لكن كثافة سكانية مرتفعة جداً وعدداً كبيراً من المتكلمين بلسان واحد ، ليسا في الظاهر شروطاً أولية لوجود متحدات ذات خطاب متعدد اللغات (Jackson, Colombian Vaupès p.50-64) ، ذلك ان المجتمعات المسماة بسيطة يمكنها أيضاً أن تقدم أوضاعاً مكثفة من التعددية اللغوية . وإن واحداً من أهم الأمثلة التي وصفها

وشرحها علماء الإناسة اللغوية ، يمكنه حقاً ان يكون مثال مجتمع
هنود فوبييس (Vaupès) . (Sorensen, Amazon, p.78-93) .

IV/ ٣ - مثال فوبييس : موقف عام

في وسط بلاد الأمازون الشمالية الغربية ، ما بين حدود
كولومبيا والبرازيل المشتركة ، هناك مدار من مدارات التعدد اللغوي
يتطابق تقريباً مع وحدة جغرافية ، وحدة حوض نهر فوبييس وروافده
- يصب نهر فوبييس في الريبونجرو ، وهو من روافد الأمازون
(Sorensen, Amazon, p.78) . من المناسب ان تشير إلى ان هذا
التعدد اللغوي البلدي يبدو أنه استثناء ، على الأقل بالنسبة إلى
البلاد الكولومبية . فالأغلبية العظمى من القبائل الكولومبية هي
بكيتها ذات لسان واحد ، باستثناء بعض الأفراد الذين يعلمون من
الاسبانية ما يكفيهم للخدمة كترجمين لدى السلطات أو الزائرين .
وكثيرة أيضاً هي الجماعات المعزولة التي لا تملك أية وسيلة إتصال
لغوي خارج متحدثها (Condmont, Colombie, p.1197) .

يعطي الكتاب الأميركيون الشماليون لمنطقة فوبييس مساحةً
تساوي مساحة إنجلترا الجديدة ، ويحدّدن سكانها الهنود بوصفهم
جماعة ثقافية ذات إيلاف أو تكلف عظيم جداً . إن هنود فوبييس هم
عشرة آلاف تقريباً . أكثر من نصفهم بقليل يعيش في الأراضي
الكولومبية ، لكن مفهوم السولة / الأمة هو مفهوم بلا وزن . بالنسبة
إلى المجتمع الهنودي وثقافته (Sorensen, Amazon, p.81) . وهذا
الامر يُرى على نحو افضل عندما يُعلم ، مثلاً ، ان التشريع
الكولومبي لا يمنح صفة مواطن لأي هندي إلا إذا كان يتكلم
الإسبانية ويجيد كتابة اسمه (Condmont, Colombie, p.1198) .
وتبقى نسبة السكان ضعيفة : ٠,٢ نسمة / كلم^٢ . والسكنى مبعثرة ،
ذاك ان الهنود يقيمون منازلهم فوق أراضٍ متصلة وغير محدودة على

طول الأنهر ، بالقرب من الأنهر السريعة ، هناك حيث تكون الظروف مؤاتية أكثر لصيد الأسماك الذي يظل بالنسبة إليهم واحداً من النشاط الاقتصادية الأساسية . وبوجه عام ، يعتبر هؤلاء السكان الهنود حضريين ، على الرغم من أنهم يتنقلون غالباً وبسهولة انطلاقاً من مختلف المنازل المشتركة .

فالمنزل المشترك ، كوحدة سياسية واجتماعية أساسية ، ووحدة لمعاودة التوزيع الاقتصادي ، هو مجموعة نوى عائلية ، ويمكنه أن يحتوي منها على ثمانية . وإن منزلاً مشتركاً ينعم ببعض الاستقرار عبر الزمان ، ينتهي به المطافُ إلى أن يكون شبكة حقيقية لخطوط القرابة الأبوية . هناك وحدات أخرى ، أوسع من المنزل المشترك ، تبني المجتمع الهنودي . فالعشيرة هي وحدة تضم عدداً معيناً من السلالات الأبوية ؛ إنها وحدة سياسية واجتماعية ، ذات إسم وموقع ، وتشغل مكانة مركزية في المجتمع الشامل .

IV/ ٤ - القبيلة ، الوحدة الزوجية

الخارجية ، الجماعة اللسانية

يوجد في فويس وحدة اجتماعية تضم عدة عشائر ، لا يتردد البعض في تسميتها قبيلة ، لكن باحثين آخرين يرفضون إطلاق هذه التسمية عليها ، لأنها ليست وحدة إقليمية ولا وحدة حربية . كما أنها لا تملك مزايا ثقافية خاصة بها ، وهي تُحدّد جوهرياً بوحدتها اللسانية . ولا يشير إليها ج. جاكسون إلا بوصفها رُكناً لغوياً (Langage aggregate) . وفي منطقة فويس ، يعدّ جاكسون أكثر من ٢٠ من هذه الوحدات اللسانية التي تتطابق . هي البنية الاجتماعية ، تمام التطابق مع وحدات الزواج الخارجي من خط الأب . ويكتب سورنسن من جانبه: للقبيلة الاتساع ذاته الذي للجماعة اللسانية

المؤلفة من أفراد استعملوا اللغة كلغة أساسية أو لغة الأب^(٢) في طفولتهم ، داخل النواة العائلية . فاللغة التي تعطي الهوية للجماعة اللغوية / القبيلة هي في وقت واحد لغة الأب ، لغة المنزل المشترك واللغة القبلية لكل فرد من أفرادها . وهي ، تعريفاً ، لغة أخرى ، غير اللغة التي تُهدد بها هوية جماعة الأم . ويعترف الهنود بمجموع المنازل المشتركة الناطقة بلغة الأب ذاتها ، بأنها الوحدة الاجتماعية القصوى ؛ إنها القبيلة ، وهي أيضاً الوحدة الزوجية الخارجية . وبموجب التعريف الخاص بثقافتهم ، يتضمن معيار التمايز بين القبيلة عدم التفاهم بين اللغات في نظر الهنود . إن هندية أو هندية لا يمكنهما الزواج من داخل جماعتهما اللغوية / القبيلة دون ارتكاب مُنكر (inceste) . وعلى هذا المنوال قد تتزوج هي أخاها ، وقد يتزوج هو اخته بالتالي .

IV / ٥ - اللغات المتواصلة واكتسابها

بولادته ، ينتسب الهنديُّ الفتى - أكان صبياً أم صبياً - إلى جماعة والده اللغوية / القبيلة ويسكن حكماً في المنزل المشترك حيث يعيش الأب . والأم تنسب ، من جانبها ، وبشكل دائم إلى جماعة لغوية / قبيلة / مختلفة ، وهو انتساب لا يمكن للزواج أن يسقطه . وعندما تخاطب امرأة أولادها ، تستعمل باستمرار لغة المنزل المشترك ، لغة زوجها . لكنّها بوجه عام ليست المرأة الوحيدة من جماعتها اللغوية في المنزل المشترك ، وغالباً ما يمكنها إيجاد محاورات لكي تستعمل معهن لغتها الخاصة بها . إن في ذلك مناسبة

(٢) ثمة تردّد هنا في استعمال تعبيرات « لغة أبوية » أو « أمومية » نظراً للتضمينات العاطفية التي كُنت متعلقة بها ، ولعدم الوضوح الناتج عنها من الوجهة العلمية . وبدلاً من الأفضل من حيث اللغة الوصفية استعمال لغة الأب ولغة الأم .

للأولاد لكي يكتسبوا أيضاً لغة أمهم . وفوق ذلك ، إن عادة تزويج صبي من ابنة خاله ، أي من امرأة من جماعة أمه اللغوية / القبيلة / نفسها ، تشجع بالتالي الأم على تعليم ولدها لغة الجماعة التي تنقسم إليها . علاوة على ذلك ، هناك في المنزل المشترك جماعة أو عدة جماعات نسائية من قبيلة (قبائل) مختلفة في وقت واحد عن قبيلة الأب وعن قبيلة الأم ، وعندئذ ينقاد الفتيان إلى استماع ، وربما إلى اكتساب لغة ثلاثة ، لغة رابعة ...، حتى في حرم المنزل المشترك الواحد .

تنتمي اللغات المحكية في هذا للمدار اللغوي التعددي ، إلى عائلات مختلفة : عائلة التوكانوان الشرقي ، الأراواك ، وبشكل أساسي عائلة بيررا - بارانا . وإن عائلة توكانوان هي العائلة الأكثر عدداً وكذلك الأكثر شهرة . واللغات المختلفة الممثلة لهذه العائلة ، يعتبرها الناطقون بها أنفسهم كأنها لغات غير مفهومة على التوالي . وأن أقرب لغتين في هذه الجماعة هما أبعد من بعضهما ، مما هو حال التباعد بين الدانيمركية المقولية واللون المحكي في جوتلند ، كما يوضح سورنسن (Amazon, p.91) . فالقوارق بين هذه اللغات تتعلق بالمعجمية وبالقواعد وبمقدار أقل بالصواتة . أخيراً ، لا بد من الإضافة أن هذا المدار اللغوي التعددي يتطابق مع ذلك المدار حيث تستعمل التوكانوا - وهي اللغة الأهم في عائلة توكانوان الشرقية - كلغة علاقات بين القبائل .

عندما لا يمتلك الفتى الهندي التوكانوا كلغة الأب أو كلغة الأم ، وعندما لا يكون قد تعلمها في الاتصال مع إحدى جماعات النساء في منزله المشترك ، فسوف يتعلمها بالاحتكاك مع الزائرين الكثيرين الذين يترددون على هذا المنزل . ولكنها نادرة هي المنازل المشتركة التي لا تضم في عداد قاطنيها أي فرد من الجماعة اللغوية / قبيلة توكانوا . واليوم لا تزال هذه الجماعة هي الأكبر عددياً .

وقد أثرت تأثيراً كبيراً في تاريخ المنطقة ، حتى وإن كان الامتياز الذي لا تزال تنعم به في هرم القبائل لم يعد فيه أي شيء عدواني حالياً . إن التوكانو ، كلغة قبليّة ، تملك عدداً وافراً من المتكلمين بها ، وامتداداً جغرافياً ، كافيين على الأقل ليكون فيها ستة ألوان عاميّة . وهي كلغة علاقات بين القبائل ، يجري اكتسابها في صورة من صور عاميّاتها (Sorensen, Amazon, p. 88) .

IV/٦ - التصنُّع الوظيفي في اللغات المتواصلة

لا يتفاخر الهنود أيّ تفاخر بتعددتهم اللغوي ، بل يعتبرونه أمراً عادياً . فما من هندي يزعمُ معرفة لغة لا يعرفها في الواقع ، ويبدو تماماً أنّ الهنود لامبالون ، ومتقنّون ربما ، من تعدّدتهم اللغوي . إن هذا الموقف اللغوي الذي يعتبره سورنسن قابلاً للعزو إلى هنود فوييس ، يُستخلص من رصد سلوكهم الشفهي في معظم المواقف المباشرة . وإن الانتقال من لغة إلى أخرى ، أو استدخال ملفوظات تنتمي إلى لغة أخرى ، في خطاب منطوق بلغة معيّنة ، لا يتطابق عند المتكلمين الهنود مع إرادة وضع معاجم أو سجلّات مختلفة ، مثلاً . وعندما تدور محادثات بلغتين أو بأكثر من لغتين ، لا يلتفت أحدٌ إلى ذلك بوجه خاص . ففي هذا النوع من المحادثات ، يبدأ كل واحد الكلام بلغة الأب الخاصة حتى يؤكّد هويّته وانتسابه القبلي . ولكن بعد وقتٍ ما ، ينتقل المتكلمون الأكبر سناً ، ويلا تعليق أو تفسير ، إلى لغة المنزل المشترك حيث حصل التبادل اللغوي ، ظاهرياً من باب اللياقة مع الضيوف ، أو ينتقلون إلى لغة توكانو بوصفها لغة علاقة ، أو إلى لغةٍ أخرى ، بما يتوافق مع المتكلمين الآخرين من غير الضيوف ، الخ .

بين العشرين لغة الموجودة في فوييس ، لا ينطق بكلٍ منها

سوى عدد صغير من المتكلمين . فما من لغة تبدو ذات دور مميز في التراتب الاجتماعي . زد على ذلك ان بمستطاع جميع الهنود أن يتواصلوا بواسطة التوكانو . فتألف المنطقة ثقافياً هو من البيئات . ذات يوم ، سأل جاكسون مخبريه : لماذا تتكلمون كل هذه اللغات بدلاً من الاعتماد ، حصراً ، على التوكانو؟ فحصل على الإجابة التالية: إذا تكلمنا جميعنا التوكانو، فمن أين يمكن أن نحصل على نساءنا؟ في الحقيقة ، هذه بالذات هي وظيفة الجماعة اللغوية/ القبيلة ، كوحدة اجتماعية متكاملة حول توزيع النساء ، الذي هو الضمانة الحقيقية لاستقرار التعدد اللغوي في المنطقة . إن اللغة هي راية الجماعة ، وبالنسبة إلى كل متكلم ، التصنع الوظيفي الأول للغة التي يتكلمها ، هو أن تكون رمزاً للانتماء إلى الجماعة . إذن ، لكل هندي أسباب ممتازة (إجتماعية ، إن لم تكن دائماً لغوية) لإعلان عدم المعقولة المتبادلة بين لغات المنطقة .

٧/IV - سمات التعددية اللغوية الهندية

في وضع فوييس الاجتماعي/ اللغوي ، يمكنُ لباحث أن يفضل ، كموضوع دراسي ، الجماعة الاجتماعية الأصغر حجماً ، مجموعة النواة العائلية ، أو زمرة اجتماعية أكثر كثافة ، جماعة المنزل المشترك ، أو أيضاً على مستوى أعلى من التكثف ، مدار التعدد اللغوي بكامله . ومهما يكن اختياره ، سيجد نفسه ، بثبات ، أمام تعدد لغوي جماعي ، متميز باستقرار لا يبدو أنه قد تضرر جدياً في الماضي ، من جزاء الغزوات الأوروبية والتوسع (النسبي جداً في المنطقة) للبرتغالية والإسبانية بوصفهما من اللغات العلائقية الممكنة . وفي الظروف الحاضرة ، لا شيء يدعو للتوقع بأن هذا

الاستقرار يمكنه أن يتطور نمو سلسلة من تبدلات اللغات^(٢) . أي نحو وضع يمكن ، في مرحلة أولى ، لبعض من اللغات العشرين المحكية حالياً ، أن يزول لصالح عدد أصغر من بينها ، وأن يتطور على مدى أطول بلا شك ، نحو وضع من أحادية اللغة / توكانو . وأن واحداً من الاستنتاجات الأولى التي يمكن استخلاصها من دراسة الوضع في فوييس ، هو أن المجتمعات المكثفة ليست ، في الظاهر ، الضمانات الوحيدة الممكنة لاستقرار تعدد لغوي معين ، فمؤسسات التعدد اللغوي ، وأبعاده ، وكثافة السكان ، وبالتالي العدد المرتفع للمتكلمين الذي يمكن لهذه المؤسسات أن تقدمه لكل من اللغات الحاضرة ، الخ . ، ليست شروطاً أولية لوجود تعددية لغوية ولا لاستقرارها .

إن تعدد اللغات عند الهنود في فوييس يمكنه ، كماي تعدد لغوي ، أن يحل في منظار علمي تعددي ؛ وفضلاً عن وجهات النظر اللغوية والاجتماعية بحق ، يمكن تناوله أيضاً من وجهة اكتسابه ، بقدر ما يمكن تناوله من وجهة أوسع ، هي وجهة علم النفس . وبمقتضى الوجهة المختارة ، قد يكون من الممكن حينئذ أن تُعزى إلى هذا التعدد اللغوي سمات ومزايا شتى .

وإذا أخذنا في الاعتبار واقع أن متكلماً هندياً يكتسب على الأقل ثلاث لغات منذ طفولته الأولى ، فمن الممكن ، عقلياً ، أن نصف هذا المتكلم بأنه متعدد اللغات باكراً^(٤) . ولكن هل سيتوجب

(٢) تستعمل المصطلحات الانكليزية ، في هذا المعنى ، Language-Shift ، التي جرت ترجمتها غالباً بكلمة إبدال .

(٤) المصطلح المستعمل هنا هو ذلك الذي اقترحه ونالشته اندريه تابوريه - كيلر :
Andrée Tabouret-Keller, Plurilinguisme et interférences, Guide, p. 305-

310.

ايضاً اعتباره متعدد اللهجات (Diglotte) او متعدد اللغات ، متأخراً ،
أخذين في الاعتبار واقع أنه يكتسب ، بوجه عام ، لغةً رابعة ،
خامسة أو سادسة ... اعتباراً من مراهقته أو في وقت لاحق ايضاً
من أيام حياته ؟

إذا وقع الاختيار على تحليل نفسي لحالة هؤلاء المتعددي
اللغات ، فربما سيلاحظ أنهم يملكون إجابة متساوية ، تقريباً ، على
الأقل ، في كل من اللغات الثلاثة أو الأربعة ، المكتسبة أولاً ، الأمر
الذي من شأنه أن يسمح عندئذٍ بأن نرى فيهم متعددي لغاتٍ
متوازنين . ولكن ، إذ نفترض التوصل إلى تدقيق الوسائل ومنم
القياس ، ماذا سيكون الأمر عندما يصل إلى تحليل الإجابة اللغوية
بالنسبة إلى اللغة المحكية الخامسة ، السابعة أو العاشرة ؟

إن مسألة من الطبيعة ذاتها ستطرح نفسها عندما سيتعين
تقويم المعرفة التي يملكها المتكلم الهندي من كلٍ من لغاته
المختلفة . إن معرفة تعادلية لكل من لغاته الأولية ، الثلاث أو
الأربع ، أي أن معرفة تسمح له بإرسال ملفوظات بالسهولة نفسها
التي يتلقى بها الملفوظات في هذه اللغات ، يمكنها أن تجعل من
تعدده اللغوي تعدداً لغوياً متماثلاً . لكن ماذا يمكن أن يكشف تقويم
معرفة اللغات المكتسبة في الأخير ، والتعددية اللغوية الهندية الأ
تغدو بالمقدار نفسه تعددية لغوية لامتماثلة من بعض جوانبها
ومعالمها ؟ إلا يتعين وصف التعددية اللغوية المعاشة في المنطقة
بأنها أسلوبية ، وذلك على قدر عدم ارتسام هرمية نفوذ واضحة جداً
بين اللغات المحكية ، ولأن هذه اللغات تحظى كلها تقريباً بالمقام
الاجتماعي ذاته في نظر الهنود كافة ؟

التعددية اللغوية الهندية ، مبكرة / متوازنة ومتماثلة . ولهذا
السبب بالذات يتعين عليها أن تكون تعددية ثابتة / مستقرة ، بيد أن
بعض معطيات فوبيس الاجتماعية / اللسانية يمكنها حقاً أن تكون

عوامل قوية لعدم الثبات والاستقرار . ومثاله ، أن جميع اللغات العائلة في المتحد ، جرى اكتسابها من طرف الناطقين بها ، بالرجوع إلى وضع معناتي / ثقافي واحد . وإن كل التوصيفات المخصصة للمجتمع الهنودي ، إلا تمنحه في الواقع تالفاً كبيراً جداً من وجهة النظر هذه ؟ إذن ، يفترض بالهنود ألا يملكو سوى منظومة مدلولات واحدة في مقابل دالات لغاتهم المختلفة ، وعندها قد نكون أمام حالة نموذجية من التعددية اللغوية الموسومة بأنها مركبة . والحال ، فإن التعدديات اللغوية المركبة تمتاز ، بوجه عام جداً ، بنفوذيتها ، بقابليتها للاختراق أو النفوذ : ففي المسير اللغوي ، قد لا يمكن إلا بصعوبة ، أو قد يمكن أبدأ الفصل بين صوائتة كل من اللغات المتواصلة ، ونحوها وصرفها ومعجميتها . في هذه الشروط ، تغدو إمكانية التداخلات بين المنظومة الحاضرة ، إمكانية كبيرة جداً من الوجهة النظرية ، ولا محدودة إذا جاز القول . فإذا كانت شتى اللغات المتواصلة لا يمكن إبقاؤها منفصلة إلا بصعوبة ، فإن الوضع اللغوي التعددي يكون من الداخل ، مهدداً في استقراره وحتى وجوده ذاته . والحال ، مهما تكن التعددية اللغوية الهنودية مركبة وقابلة للنفوذ ، فما من شيء يسمع للباحثين بأن يقرروا أن هذا الأمر يطول استقرارها في المدى القريب .

IV/ ٨ - مسائل نظرية :

يبدو في الواقع أن الوصف والدراسة اللسانيين الاجتماعيين ، لوضع مثل وضع فوهريس ، يدعو إلى إثارة عدد معين من المسائل النظرية ، ويدعو أيضاً إلى معاودة التفكير فيها . إنطلاقاً من معطيات الوضع هذا ، وإذا لم يكن هذا الأمر قد سبق الشروع به في أماكن أخرى ، قد يكون من الملح أن يُعاد النظر

في فرضية كانت ، بالأمس ، لا تزال سائدة : لغة واحدة ، ثقافة واحدة . ففي هذه الحالة ، يشدد سورنسن (Amazon, P.91) على أن التآلف الثقافي لا يعني تآلفاً لغوياً ، وثقافة المنطقة الهندية ، المشتركة بين الجميع ، هي ثقافة واحدة ومؤتلفة ، في حين أن ما يعتبر بالنسبة إلى البعض لغة الأب ، يعتبر بالنسبة إلى الآخرين لغة الأم ، ويعتبر بالنسبة إلى آخرين أيضاً لغة مجهولة .

وفوق ذلك ، عندما يعمل بعض الباحثين في حلقات تهيمن عليها النظريات التحويلية والتوليدية ، وهم منشغلون بمسائل فوبيس ، إنما يصل الأمر بهم أحياناً إلى معلومة النظر في بعض المقدمات (Prémises) الكبرى والوسطى ، الأساسية لهذه النظريات . فإذا كانت النظرية اللسانية متعلقة بالمعرفة الضمنية التي يملكها فرد مُرسِل/مُستقبل نموذجي ، أحدي اللغة في متحد خطابي متآلف بذاته ، فلماذا سيحل بالفرد ، كما هو الحال في فوبيس ، الذي لا يكون مرسلأ/مستقبلاً نموذجياً ، إلا بشرط أن يكون متعدد اللغات ، لا أحدي اللغة ؟ إن العلاقة بين القواعد والكفاية اللسانية الفردية تطرح هي أيضاً بعض الأسئلة . فإذا افترضنا أن القواعد يتعين عليها أن تعكس ، بكيفية أو بأخرى ، الكفاية اللسانية الفردية ، فإن قواعد اللغات المختلفة لمتكلم من فوبيس لن تكون ملائمة (Jackson, Colombian Vaupès, P. 63) .

IV/ ٩ - الفصل الوظيفي بين اللغات :

يرى فيشمان (Sociolinguistique, P. 87-88) أن اللسانة الاجتماعية قد اكتشفت أن استعمال عدة روايز منفصلة داخل مجتمع ما ، وابقاها مستقرة ، كانا يتوقفان على الخدمات التي يقدمها بعض الروايز ، بشكل مختلف عن الوظائف المنسوبة إلى البعض الآخر . وأن المنظومات اللغوية الحاضرة قد تتوفر لها جميع

الفرص والحظوظ لكي تكون في وضع غير تنازعي ، وبالتالي ثابت ومستقر ، نظراً لأن تصنعاتها الوظيفية تختلف عن بعضها . ومن ثم لا يكون ثمة داع ، في مدة قصيرة ، لتصوّر إمكان إبدال اللغات وزوال لغة أو عدة لغات منها لصالح لغة (أو عدة) لغات (أخرى) ، وإمكان التطور في اتجاه وضع لغويّ أحدثي جديد .

حول هذه النقطة أيضاً ، يتطلب واقع فوهيس اللساني/ الاجتماعي أن يُعاد التفكير والتعمّن في القرارات النظرية ، إن استقرار هذه التعددية اللغوية واستمرارها غير التنازعي لا يدينان ، في الظاهر ، بشيء كبير لفصل وظيفي بين اللغات الحاضرة ، لأن التصنّع الوظيفي الأول ، بالنسبة إليها كلها ، هو ذلك الذي يجعل منها رمز الهوية الفردية والانتماء إلى الوحدة الاجتماعية/ الزوجية الخارجية . وفي هذا الوضع اللغوي التعددي ، ليست الفوارق ، بالمعنى الاجتماعي ولا بالمعنى الجغرافي ، موزّعة توزيعاً متكافئاً . وبالتالي من الصعب الرّد على السؤال ، في إطار تعدد اللغات في فوهيس : مَنْ يتكلّم أية لغة (أو لون) ، مع مَنْ ، أين ومتى ، بمقتضى الهدف المنشود ، وبحسب الموضوع المعالج الخ . بالصيغة التالية : إن متكلّماً L يستعمل اللغة X (أو لوناً من ألوانها) في الأوضاع المباشرة (مستمع ، مكان ، لحظة، موضوع مُعالج...) A وB، واللغة Y في الأوضاع C، D وE؛ الخ . إن صيغة مماثلة لا يمكنها واقعيّاً أن تحيط بالاختيار الذي يجريه المتكلم الهنودي المتعدد اللغات في بداية التبادل اللغوي ، بين المختلف اللغات التي في متناوله . كما أنّها لن تحيط ، وحدها ، بالانتقالات^(٥) من لغة إلى أخرى في مجرى النشاط الخطابي . من

(٥) تستعمل الانكليزية مفردات : Language-Switch أو Code Switching التي تترجم الى الفرنسية لحياناً بمفرده Commutation (إبدال) .

المستحيل التقليل من قيمة واقع أنّ كل وضع مباشر يرتسم في وضع عام يمكن لبعض معطياته أن تلعب ، قبل كل شيء ، على القواعد التي تتحكم مثلاً في الاختيار الصحيح للغة ما ، أو هي الانتقال الصحيح إلى هذه اللغة ، في هذه الحالة ، ليس الاعتبار الأساسي في فوبيس دائماً هو أن تكون اللغة المختارة مفهومة من الجميع أو على الأقل من جانب العدد الأكبر من المشاركين ، غير أنّ هذا لا يعني ، أيضاً ، أنّ الاختيار الأولي أو أن الانتقالات من لغة إلى أخرى تكون ، في ذاتها ، حاملة لمعلومات اجتماعية . ومع ذلك ، فإن المعلومات المنقولة لا يمكن تأويلها إلا بمقتضى حال لغة الأب عند كل من المشاركين .

لغة واحدة أم لغتان ؟

يبدو العالم كأنه محيط من التجاذبات المتناقضة ، مع ملتقيات تؤدي بعد مسافة قصيرة إلى مفترقات ، ويبدو كأنه محيط من مراكز التجاذب الجديدة المتطورة في كل مكان تقريباً والمهددة في كل آن بالإخلال بتوازن المجاميع القائمة ، .
A. Martinet (Langue et fonction, P. 128).

IV / ١٠ - المسافة بين اللغات :

معروفٌ قليلاً وبشكلٍ سيء تاريخ اللغات الحاضرة في فوبيس ، وفوق ذلك ، لا يزال عددٌ منها بمنأى عن أي وصفٍ تساوي . كذلك لكي يعالج الباحثون المعطيات التي يملكونها عن هذا الوضع اللغوي التعددي ، إنما يتقادون عادةً إلى طرح مسألة اختيار المعايير الواجب استعمالها لتقرير ما إذا كان واقعان أو أكثر من واقعين لغويين هما لغتان (أو لغات) مختلفة ، أو بالعكس ، ما إذا كان يجب اعتبارها فحسب كأنها الواو لغة واحدة . اعتباراً من أية فوارق في البنى ، واعتباراً من أي عدد من هذه الفوارق ، توجد

مسافة حقيقية بين اللغات ؟ وفي غياب البيّنات البنيوية ، ما هي العوامل غير اللسانية التي يتوجب تصريفها مع فوارق البنى لإقامة المسافة بين اللغات ؟ احديّة لغوية أم تعددية لغوية ، كيف نقرّر ، في بعض الأحوال ، نوعيّة الوضع المدروس ؟ إن فوارق البنى في بعض المنظومات المتواصلة في فوييس تزيل كل لبس وعموض ، لكنّ الحال ليس كذلك دائماً . ففي خلال استطلاعه العيداني ، تعيّن على سورنسن أن يستعمل كمعيار للتفريق بين بعض اللغات المائلة هنالك ، ما أسماء لامحقوقيتها المتبادلة ، نظراً لعدم وجود تفاهم بين المتكلمين يضمن وجود لغات متباينة ، وليس عدم وجود من لغة واحدة ، وكانت الطريقة المستعملة في سياق الاستطلاع تقوم على تربص الفرص حيث كان هنديّ يعلن أنّه لم يفهم شخصاً ما ، في خلال مناقشة تستعمل فيها عدّة لغات (Sorensen, Amazon, P.81).

بناءً على تصريح أولئك الذين أعلّوا ، بعد سورنسن وبيجام كافي ، اللامعقولية المتبادلة بين العشرين لغة المحكية في فوييس ، يبدو من المناسب التشديد على أن براهين عدم الفهم هذا ، يفترض أنّ تكون صعبة الإثبات . فالتعدّد اللغويّ عامّ في فوييس ، والهنود الذين لا يتشابه معجمهم الشفهي هم الاستثناء (خاصة إذا أخذنا في الاعتبار وجود التوكانو كلفة علاقات) ، فلا توجد حدود جغرافية ولا حدود من أي نوعٍ كان بين اللغات الحاضرة ، وليس بالإمكان توقّع تراكيب اللغات في المعجم الشفهي (إذ كلها ممكنة نظرياً) لفردٍ ما ، أو في المعجم الشفهي لعائلة ، أو ايضاً في المعجم الشفهي لمثل مشترك (Jackson, Colombian Vaupès, P. 55-57) . وفي هذه الشروط والظروف ، لا يفترض أن يكون من المهمات الميسورة ، التقريرُ بعدم وجود تفاهم بين متكلمي اللغة A ومتكلمي اللغة B ، أو بين متكلمي اللغة B ومتكلمي اللغة C ، وايضاً بين متكلمي اللغة B ومتكلمي اللغة C ، الخ ، ولا التقرير بعدم

وجود معقولة متبادلة بين اللغات المتواصلة في شوبيس . ففي القرار الذي اتخذه الباحثون بهذا الصدد ، من الممكن ان يُكتشف مُجدداً إنعكاس مطابق كثيراً للموقف اللغوي للمتكلمين الهنود أنفسهم .

في الواقع ، إن عدم الفهم كميّار لوجود لغات متباينة يعادل تماماً ما يعادله التفاهم المتبادل كميّار لوجود لغة وحيدة ، واحدة . كتب مارتييه : علينا القول بوجود لغة منذ ان يقوم إتصال وإبلاغ في إطار نطق مزدوج من الطراز الشفهي ، وبأننا امام لغة وحيدة ، واحدة ، طالما انّ الإبلاغ متوافر عملياً . والمؤسف هو أن معيار التفاهم المتبادل ليس حاسماً دائماً ، إذ بوجه عام توجد جميع الدرجات الممكنة بين الفهم المباشر/ الفوري وعدم الفهم المطلق (Martinet, Eléments, P.147) . فوجود تفاهم متبادل لا يعني إذن أننا أمام لغة واحدة ، وحيدة ، فبعد مرور مفاجأة الاحتكاك الأول بين دانيماركي ونرويجي ، وبعد مرور وقت على ما يسميه هوجن شعبه الإبلاغ⁽⁶⁾ ، من الممكن ان يقوم بين المتكلمين تفاهم مقبول بقدر ما يكون هذا التفاهم كافياً في الأوضاع المباشرة لتلبية حاجات العيش المشترك بين هؤلاء المتكلمين .

بالعكس ، لا يمكن لعدم التفاهم بين المتكلمين أن يكفي وحده لتعيين ما إذا كنا أمام منظومات مختلفة ، ومثال ذلك ، في سلسلة التلونات الجغرافية A ، B ، C و D ... من لغة معينة X ، يمكن وجود عدم تفاهم ، دون مشكلات كبرى بين متكلمي A و B ؛ B و C ؛ C و D ، الخ . وحتى أحياناً بين متكلمي A و C ، أو متكلمي C و E ... ، في حين لا يوجد سوى عدم التفاهم بين متكلمي A و E . وفي

(6) E. Haugen, Semicommunication, the language gap in Scandinavia Sociological Inquiry, Vol. VI, 1966, P. 260-297.

الواقع ، يمكن لعدم التقاهم أن يزول إذا قام تفاعل اجتماعي متواصل بين متكليفي A و E . فإذا كان اللونان A و E غير قابلين للفهم المتبادل ، فهل يتعين عليهما دائماً أن يُعتبرا كلونين من اللغة X ذاتها أو كمنظومتين متباينتين ؟

IV/ ١١ - المقومات البنيوية

إن الإجابة الوحيدة الصالحة علمياً ، التي يمكنُ للصانين أن يردُّ بها على هذه المسألة ، هي وصف تباينتي يشدُّه نقطة فنقطة على الفوارق البنيوية بين A و E . بيد أن المسافة بين اللغات تكون ذات تحليل رديء إذا وقفنا عند الفوارق البنيوية وحدها . وفي ما يتعدى الدراسة التباينية للمنظومات ، ستلزم الإحاطة بتفاعل الوقائع البنيوية مع المقومات غير اللغوية .

ومن المناسب فحص الفوارق البنيوية التي تسهم في المسافة بين اللغات^(٧) ، وتمحيصها من الوجهتين الكمية والنوعية : كم يلزم

(٧) نشير هنا إلى معالجة جان سيغي (La dialectométrie, P. 1-21) للوقائع البنيوية . المتخيلة في هذا الإطار ، فبعد استخلاص نتائج العمل الذي قام به في كتابه (L'Atlas linguistique de la gascogne) ، وضع (Séguy) سيغي طريقة منهجية تسمح بتكوير المسافة اللغوية الفاصلة بين مواضع الميدان المدروس ، إن هذه الطريقة ، كتطبيق لمسافة هامينغ (Hamming) ، تكُم فقط التشابه (Séguy, Ibid., R.2 et 19) بون صياغة أحكام تشخيصية (Ibid., P. 19 et 23) . والمقصود هو معالجة إحصائية للمقومات الكمية ، إلى حدِّ تشكيلها النهائي والضروري رياضياً (Ibid., P. 2) سيغي يستخلص إذن ٥ مكوّنات ، ٥ ثوابت كمية (Paramètres) للمسافة اللغوية (معجمية ، صوتية تعاقبية ، صوتية ، صوتية ، لاشكال شفوية ، قواعدية) ، ثم يبيّن ٥ مشبكات / مقويات (Matrices) ، واحدة لكل ثلثة كمية ، مقيماً العلاقات بين الوقائع اللغوية (وعددها ٤٢٦ في الميدان المدروس) والمواضع الجغرافية . وتُحسب نقطاً ، كلما حملت الخانات المتساوية لموضوع واحد ، بالنسبة إلى الموضوعين الجغرافيين ، علامات متباينة . ومجموع هذه النقاط سيشير إلى المسافة اللغوية بين المواضع الجغرافية (Ibid., P.11) .

من الفوارق البنيوية حتى تُعتبر منظومتان كأنهما متباينتان ، وأين يتوجب تحديد موقع هذه الفوارق : في الأصوات ، الأشكال ، النُحو والصرف ، المعجم؟

يقرّر مارتينه ان الاستعمال المتعلقين لمنظومتين صوتيتين متباينتين ، من المرجح أن يكون المعيار الأقل التباساً لوضع لغوي ثنائي ؛ ويقرّر أيضاً أن الثنائية اللغوية ، بأوسع معنى للكلمة ، هي استعمال الأشخاص أنفسهم لمنظومتين صوتيتين وقواعديتين متباينتين ، بتباين المتخاطبين الذين نتوجه اليهم (Martinet, Langue et fonction, p.131- 135) . من الممكن إذن الاستنتاج مما تقدّم أن الفوارق المتجلية في مستوى الصّواتات والمنظومات القواعدية هي التي تسهم ، على نحو أفضل ، في إقامة المسافة بين اللغات .

IV/ ١٢ - التعددية اللغوية وتقارب المنظومات

تبدو النتائج التي توصل اليها جون ج. غومبرز وروبرت ويلسون في أثناء وصفهما وضع كوپوار (Kupwar) اللغوي المتعدد (Convergence, p.151- 167) ، سائرة في هذا الاتجاه ، وبخاصة فيما يتعلّق بالمنظومات القواعدية . ان كوپوار هي متحد قروي في إقليم سانقلي ، في ولاية مهاراشترا في الهند . تتواصل ثلاث لغات في هذا المتعد البالغ عدد متكلميّه ٢٠٠٠ . فمنذ ستة قرون تقريباً ، تتعايش الكانّادا (Kannada) ، لغة درافيدية ، والماراثي (Marathi) ، لغة هندية / آرية . أما الأوردو (Urdu) ، وهي أيضاً منظومة هندية / آرية ، فقد وصلت مع الهيمنة المونغولية ، واستقرت في المنطقة منذ أكثر من ثلاثة قرون . إذن ، الوضع في كوپوار هو وضع تعددية لغوية مستقرة ، متواصلة مع اللغات غير المتقاربة كلها توالدياً . إن هذه التعددية اللغوية هي أيضاً تعددية لغوية اجتماعية ، حيث جميع اللغات المائلة أمامنا ، ليس لها المكانة ذاتها بالنسبة الى جميع

افراد المتحدّ ، لكنها تتراكمُ في المقابل وفقاً للفئات الاجتماعية .
ويمكننا أن نعتبر أن استقرار هذا الوضع اللغوي المتعدّد يعودُ إلى
فصل وظيفي واضح بين اللغات : فكل متكلّم يكتسب (ومن ثمّ
يعارس) لغةً واحدةً في النواة العائلية ، في مجال الحياة الخاصّة .
ثمّ ، يفدو متعدّد اللغات منذ أن يشارك في التفاعل الاجتماعي خارج
الأسرة ، في المجال العام . فبقدر ما سيكون الفصل بين الإثنيات
(الأعراف القومية) هو القاعدة بالنسبة إلى الحياة العائلية في
كوبوار ، وبقدر ما ستظل اللغات مرتبطة بهذا الفصل ، لن يكون ثمة
أسبابٌ موجبة لزوال هذه التعددية اللغوية . (إلا قليلاً Gumperz et
Wilson, Convergence, p.154)

تمثّل التغييرات التي طرأت على اللغات الثلاث المتواصلة ،
تكييفاً تدرجياً للفوارق القواعدية ، وتقارباً لغوياً بحيث أنّ اللغات
المستعملة في انتقالات متواصلة من لغة إلى أخرى لا يعود لها
سوى ، بنية سطحية وحيدة ، واحدة (Ibid., p.154- 155) . من
الميسور قياس هذا التقارب بين الأورديو والكأنادا والماراثي المحكية
في كوبوار . وبالتالي يوجد بالنسبة إلى كل من هذه اللغات ، لورن
مقونن ، مكتوب ، ومُستعمل في المجال الديني وفي المجال التعليمي
الذي لا يزال بعيداً عن الشمول والعموم ، وفي الواقع تمثّل هذه
الألوان المدوّنة أو المقوننة حالات لغوية قديمة ، وإنّ مقارنتها مع
حالة الألوان المقابلة المحكية اليوم في كوبوار تعطي المقياس
الصحيح لنتائج التقارب مع هذه الأخيرة . وربما تكون هذه الألوان
المحكية قد بلغت ليس فقط وحدة كبيرة في بُناها النحوية ، بل أيضاً
درجةً رفيعةً من إمكانية ترجمتها المتبادلة (Gumperz et Wilson,
Convergence, p.155)

IV/ ١٣ - التقارب والكلمات

عندما يبلغ التقاربُ النَّحْوُ والمعجمية على هذا الوجه ، لا يعود ثمة مجال للاندھاش من كون المسافة بين اللغات تقوم ، في قسم كبير جداً ، على الفوارق بين منظومات الوحدات القواعدية الصغرى (Monèmes) غير أن منظومات الكلمات هذه ليست بمنأى عن التقارب ، والوضع في كوهوار يبيِّنُ تماماً الفرضية القائلة بعدم وجود حدود وقيود على تداخل هذه المنظومات وتناقذها (Interpénétration). ويجري هذا التناقذ حتى باقتراض لغة لمادة أخرى (Petrovici, Interpénétration, p. 1- 18) وبعبارة أخرى ينقل كلمات ممكن عزلها، من لغة إلى لغة أخرى. ويعتبر فاينريخ (Contact, p.29-31) أنَّ من المناسب في إطار التداخل القواعدي التمييز بين وحدات قابلة للفصل ووحدات غير قابلة للفصل^(٨) ، لكنَّه يضيف إذا كان من السهل إجراء تمييز مطلق بين النوعين من الوحدات في بعض الأنماط اللغوية ، فمن الأفضل في أنماط أخرى معالجة درجة حرية الكلمات النحوية بوصفها متغيراً.

على الرَّغم من كون نقل الوحدات القواعدية غير القابلة للفصل ، غير مألوف إلا قليلاً ، فإن غومبيرز وويلسون يلحظان وجود افتراضات كهذه ، ثابتة اليوم بشكل نهائي ، في منظومات الاستقبال . وهكذا ، بينما تملك الأوردو المقعدة ، لأجل بناءات مماثلة لبناء الانكليزية (فعل + Can) : (جذر فعلي + Sak) ،

(٨) تعتبر قليلة للفصل الواصلات ، حروف الجر ، حروف العطف ... في منظومات كالفرنسية وبعدي معين من لغات أخرى ، في حين أن الكيفيات أو الصيغ الفعلية (لزمنة ، صيغ ، أوجه ...) تعتبر فيها كلمات صرفية غير قابلة للفصل (Wer-neich, Contact, P. 29-31)

وتملك الماراثي المقعدة : (جذر فطلي + u + (Sök) ، فإن الأوردو
والماراثي وكذلك الكانادا المحكية اليوم ، تستعمل جميعها البناء مع
. u

الى جانب اقتراض الكلمات الصرفية غير القابلة للفصل ،
المثبوتة اليوم في منظومات الاستقبال ، هناك عدة إقتراضات من
هذا النوع لا تزال غير مثبتة في مستوى المنظومات وتظل مجرد
وقائع خطابية . وهكذا ، في ملفوظ مثل : Aw bi yahr matac- ya ،
تقترض الكانادا من الأوردو المقطع ya- ، الذي يدل على الماضي .
وكذلك الحال ، في : hwa siham-na bulaneko pawae ، تقترض
الأوردو من الماراثي الدال na- الإضافي . لكن هذه ما هي إلا وقائع
خطابية ، وحتى وإن كانت هذه الإقتراضات لا تختلف نوعياً عن تلك
المثبوتة سابقاً في منظومات الاستقبال ، فإن المستمعين يعتبرونها
بمثابة أغلاط ، وتكون موضوعاً للهزة والسخرية ولا تُكزّر أبداً من
جانب المستمعين بشكل طوعي (Gumperz et Wilson, Convergence
p.161- 162) . إذن ، يلعب هنا عمل الوقائع غير اللغوية ، لصالح
الحفاظ على المسافة بين اللغات ، وعندما يغدو الضغط الاجتماعي
عاملاً يؤخر التقارب بين المنظومات الحاضرة.

IV / ١٤ - الوظيفة الاجتماعية للكلمات الصرفية

مع ذلك لا يزال صحيحاً القول إن عدداً محدوداً من الكلمات
الصرفية ، حتى وإن كان التقارب اللغوي لا يزال يعمل على خفضه ،
يمكنه أحياناً أن يكفي لتكوين النواة التي ينطلق منها المتكلمون في
إسراكم اللغات كلغات متباينة . وهذه الكلمات ، فضلاً عن وظائفها
اللغوية الخاصة داخل كل من المنظومات القائمة ، ترى نفسها
عندئذٍ مفروضاً عليها وظيفة محض اجتماعية ، هي وظيفة تسجيل

الفصل الذي يريده المتكلمون ، بين لغتين أو أكثر . وفي بعض الحالات ، لا يبقى سوى هذه الكلمات لمواجهة تبدل اللغات ذاته (Gumperz et Wilson, Convergence, p.162) . وعندما تستفيد المعايير الإجتماعية - كواجب الحفاظ على هوية إثنية في كويوار - من الوقائع اللغوية ، يمكنها الإكتفاء بمجموع مخفوض من الفوارق القواعدية والصوتية أيضاً بلا شك ، ويبدو أن هذا المجموع سيتمكنه أن يكون مخفوضاً بقدر ما تكون المستلزمات الإجتماعية زجرية . ولذا لا يمكن الرد على مسألة : لغة واحدة أم لغتان ؟ بجواب لغوي محض . ويمكن فقط لاعتبار التفاعل بين العوامل البنيوية وغير البنيوية ، أن يقرّر ويحسم هذا الأمر .

IV/ ١٥ - العوامل البنائية وغير البنائية

حين فحص جاكسون مقومات الوضع اللساني/ الإجتماعي في منطقة فوييس ، إنما بيّن هذا التفاعل بين العوامل البنائية وغير اللغوية في إقامة المسافات بين اللغات (Jackson, Colombian Vaupès, P. 59-60) وعندما تعيش جماعات تفاعلاً اجتماعياً كثيفاً ، تنزع الفوارق التي تفصل بينها ، إلى القلوب والتنمذج . ويصل الأمر بالجماعات إلى أن تتشابه وتتعاقل لدرجة أنها لا تعود تختلف إلا ببعض العلامات (Diacritique) البالغة الوضوح . ومع انخفاض الجردة الإجمالية للفوارق الإجتماعية/ الثقافية ، لا تكتسب هذه العلامات إلا مزيداً من الأهمية ، فتغدو رموز هوية يستعملها الأفراد لكي يميزوا هم أنفسهم ، ويمرتبوا الآخرين .

وهذه ليست فقط السمات المساهمة في تمييز الرموز من بعضها البعض ، الرموز التي ترتدي عندئذ أهمية خاصة ، بل هناك أيضاً البعد الذي تجري فيه هذه السمات . في فوييس ، هذا البعد

هو ميدانُ اللغة ، والسّمات الرمزِيّة هي المقوّمات اللغويّة التي تجعل ، في نظر الهنود ، لغات المنطقة غير قابلة للتساقل (Inintelligible) أو التفاهم . وأن ما تعلمه عن موقف الهنود اللغويّ يبدو مؤكداً لهذه النتائج : فالهنود يعتبرون أنهم بحاجة إلى سنتين ، على الأقل ، لكي يتعلموا لغةً جديدة بطريقتهم المقبولة ، فهم لا يتكلمون لغةً طالما أنهم لا يجيدونها حقّ الإجابة . وعندما تسنحُ فرصةٌ وضعٍ مناسب ، يجرون تجارباً للتكلم بلغة في طور الاكتساب ، ولكنهم لا يواصلونها إذا لم تكن النتائج مقبولة وكافية في نظرهم ، الخ . فعندما يتكلم هنديّ لغتين متقاربتين بشكل وثيق جداً - التيوكا Tuyuka واليوروتي Yuruti ، مثلاً - إنما يبقونهما منفصلتين بكل اعتناء ووعي . وكان سورنسن (Amazon, P.82 et 89) قد استنتج : لقد خطر في بالي أنّ مؤسسة الزواج الخارجي كان يمكنها ممارسة ضغطٍ يحض المتكلمين على فصل لغاتٍ شديدة القرابة ، وذلك ، ولو بكيفيةٍ مصطنعةٍ ؛ غير أنّني لم أتمكن ، حتى الوقت الحاضر ، من استنتاج ابتكارات لغوية تسير في هذا الاتجاه .

إن الإرادة التي تنزع لدى المتكلمين إلى الإبقاء على مسافات بين اللغات ، إنما تعود بكل وضوح إلى مجال الوقائع غير اللغوية . هذه الإرادة تواصل ، في كويوار ، التلاعب على المقوّمات اللغوية المحض ، بكبحها تقارب المنظومات . أما في فوييس ، فهذه الإرادة - وإن كان من غير المثبوت أنها تعمل على تباعد المقوّمات اللغوية - هي ذات فعالية كبيرة ، وتسهم على هذا النحو في الاستقرار العام للوضع اللغوي التعددي ذاته . بيد أنّ هذه الإرادة لا يمكنها أن تكون العامل غير البنوي الوحيد ، القادر على دخول اللعبة ، وغالباً ما تكون هي ذاتها مرتبطة وظليفاً بعدة مقوّمات غير لغوية أخرى . وعليه ، فإن تقارب المنظومات وحتى تبدلات اللغات في فوييس قد يكون من الصعب إجتناؤها ، وقد ينهار الاستقرار في

مواجهة المستجدات الاجتماعية / الاقتصادية القابلة لأن تؤدي إلى التفكير القبلي للمجتمع الهندي . وقد سبق لسورنسن أن لاحظ في أطراف منطقة فوهيس ، أن الكابوكلو (Caboclos) أي الهنود المنحمن عن قبائلهم والفلاسيين ، هم عادة نولغة واحدة .

التعددية اللغوية والمجتمعات المركبة

IV/١٦ - الدولة واستقرار تعددية لغوية

لا يرقى أي شك إلى كثافة المجتمع الذي يندرج في نطاقه متحد كوهوار (انظر IV/١٢ ، و IV/١٣) ، حتى وإن كانت تختلف في عدة نقاط عن الكثافة المعزوة ، بعامة ، الى مجتمعات كتك التي يقال إنها غربية ، ولكن لا يجوز التسرع في الاستنتاج من هذا المثل أن جميع الأوضاع اللغوية التعددية المرتبطة بمجتمعات مركبة ، تنزع إلى الاستقرار ، ولا أن فعاليتها تخضع للكيفيات ذاتها التي تخضع لها في كوهوار .

إن استقرار وضع لغوي تعددي في مجتمع مركب يتوقف ، أيضاً ، على المنظومات اللغوية القائمة وعلى عدة عوامل غير بنائية ، في وقت واحد . ومن بين هذه الأخيرة ، لا يمكن التقليل من اعتبار خيارات الدولة تجاه التعددية اللغوية ، والوسائل الاقتصادية التي تملكها لتجسيد خياراتها . فعندما تضع دولة ما التعدد اللغوي في دستورها ، فإن ذلك يمكنه الإسهام في استقرار الوضع اللغوي التعددي ، ولكنه لا يسهم فيه بالضرورة . إن الدولة الهندية تعترف بالتعددية اللغوية للأراضي التي تسيطر عليها ، لكنها لا تستطيع أن تتحمل النفقات الضرورية لتعميم تعليم اللغات المعنية ، ولتطبيق فعال للغات غالباً ما تكون مقعدة من قبل ، وبتزايد التباعد بين

الألوان المقوتنة والألوان المحكية ، ويزداد التقارب بين الألوان المحكية ذاتها . ويقال الشيء ذاته عن تثبيت وضع لغوي تعددي يمكنه أيضاً ارتداء طابع مسار اقتصادي تحدد الدولة كلفته بكل سهولة ، دون أن تتمكن دائماً من دفعها ، عندما يظل الوضع اللغوي المتعدد وضعاً واقعياً أكثر وله وضعاً تدرجه الدولة في مستوى المؤسسات ، يكون أمامه كثير من فرص عدم الاستقرار ، حتى وإن كان نطاقه الاقتصادي ليس بالضبط نطاق تخلف ميؤوس منه . وإنه سيفقد توازنه بشكل مؤكد ، على قدر ما تختار الدولة لغة رسمية لوقومية وتفرضها على اللغات القائمة .

IV/17 - المركزية واللهجات المحلية :

يبدو بوجه عام أن سلطة الدولة كلما طوّرت نزعاتها المركزية تناقص تكيفها مع وضع لغوي تعددي في المجتمع الذي تسوده . إن كثيراً من الفوارق القائمة بين الأوضاع اللغوية الثنائية التي أمكن وجودها في المجتمعات الإيطالية ، الألمانية ، الإسبانية والفرنسية ، هي في الواقع فوارق يمكن عزوها لنشئ أنواع المركزية التي تحمكتها هذه المجتمعات ، والوحدة القومية الحديثة نسبياً في إيطاليا وألمانيا ، تركت فيهما مكانة للهجات المحلية ، لم تكن تمنحها لها المركزيات الأقدم في اسبانيا وفرنسا ، إن الوجود الذي عرفته اللهجات المحلية في اسبانيا حتى آخر المرحلة الفرانكوية نفسها ، ليس هو أيضاً كالبقاء الصعب لبعض « العاميات » في فرنسا .

دون الشروع بدراسة مقارنة للمركزيات الفرنسية والإسبانية ، سيُشدد مع ذلك على أن مركزية جمهورية جاءت في فرنسا لتحل محل المركزية الملكية ، وظهرت في كثير من الأمور ، بأنها أفعال من سابقتها ، فبينما كانت المركزية ، منذ بداية الجمهورية الفرنسية الأولى ، تخلخل بلا توقف كل الأوضاع والمواقف اللغوية الثنائية في

البلاد لصالح اللغة المشتركة ، ظهر تاريخ الكاتالانية ووضعها
الراهن في اسبانيا ، مثلاً ، أنهما نسبياً أقل تشجيعاً لاستمرار هذه
الرواية الأيبيرية . وفي عصر الجمهورية الاسبانية الثانية ، شهد
الوضع اللغوي المزيج في كاتالونيا محاولة استقرار وتثبيت جدية ،
واليوم تحاول الجفوالية ، التي اقامتها مرحلة ما بعد الفرانكوية ، أن
تشجع هي ايضاً هذا التثبيت . غير ان هذا لا يعني أن الفعالية
الحاضرة سيكون من السهل قلبها : ٤٤٪ من سكان كاتالونيا ولدوا
في اماكن أخرى من اسبانيا ولا يتكلمون الكاتالانية : ٧٠٪ من
المدرسين العاملين في المناطق لا يعرفون ، هم ايضاً ، الكاتالانية ،
وهذا الأمر أدل وذو نتائج أشد . فهناك نقر من الصحفيين اضطر ،
وهو يستعد لإصدار جريدة يومية ثانية بالكاتالانية ، الى العودة
للمدرسة لتعلم كتابة اللغة التي أخذ على عاتقه استعمالها بعد بضعة
اشهر . وإذا كان كثير من الكاتالانيين لا يزالون يتكلمون لغتهم
الكاتالانية الخاصة بهم ، فإنهم لا يكتبونها في الغالب إلا قليلاً^(٩) .

عندما لا يتجلى وضع لغوي تعدي إلا قليلاً ، أو حتى لا يظهر
في شيء على مستويات الدولة والمؤسسات ، وعندما تكون
السلطة ، المميزة بنزعات قديمة جداً نحو مركزية عميقة ، قد عرفت
كيف تزود بالوسائل الاقتصادية لأجل تطبيع لغوي فاعل ، فإن هذا
كله لا يعني أن الطبقات والجماعات الاجتماعية التي ترتبط الدولة
بها ، قادرة عندئذ على فرض لغتها على الجميع تقريباً . ويحصل
تخلخل شبه كامل في الوضع اللغوي التعدي ، تخلخل سيفضي ،
على مدى بعيد أو قريب نسبياً ، الى تبديل في اللغات ، والى أهلية
لغوية جديدة . إن انقلاب ميزان القوى بين الطبقات والجماعات
الاجتماعية ، كهل وحده بأن يغير ، في هذه الحالة ، ما أسماء

(9) Charles Vanhecke, Le Monde, 26 Octobre 1978.

فاينريخ القَدْر الخارجي للغات الخاسرة (Unilinguisme, P. 647-683) .
كذلك لابد الآ يأتي هذا الانقلاب متأخراً جداً . خشية أن يظل هو
ذاته عاجزاً تقريباً في مواجهة تبدل اللغات ، ان حالات هذه
الأوضاع اللغوية التعددية البالغة التخلخل ليست نادرة في
المجتمعات الأوروبية المركبة . إن وضع الايرلندية كلفة خاسرة أمام
الانكليزية هو وضع نموذجي ، ويمكنه أن يظهر غير قابل للرجوع
عنه ، على الرغم من تخطيط منتظم وحائز على وسائل اقتصادية
حقيقية .

الموقف الفرنسي

١٨/IV - اللهجات المحلية ، المدينة والريف

كثيراً من اللهجات المحلية في الموقف الفرنسي ، تجد نفسها
هي ايضاً في وضع اللغات الخاسرة . فالفرنسية اليوم هي اللغة
اليومية لثلاثة أرباع السكان ، ودرجة التنشئة المدرسية العالية
تنزع بثبات الى زيادة هذه النسبة ، كما كتب برنار هوتيه منذ اكثر
من عشر سنوات (B. Pottier, France, P. 1144-1161) . ودون الوقوف
هنا عند بعض العلامين من الشفيلة المهاجرين الذين لهم مشاكل
لغوية خاصة ، وحتى إذا لم يبق سوى ٢٠٪ من مزدوجي اللغة لدى
السكان المولودين والعاشين في فرنسا ، فقد يكون من المفيد
التساؤل : من هم هؤلاء المزدوجو اللغة ، أين ، متى ومع من
يتكلمون لهجاتهم المحلية ، وما هي مواقفهم اللغوية .

بوجه عام جداً ، هناك تواضع على الاعتراف بأن متكلمي
اللهجات المحلية في فرنسا هم اعضاء او متحدثون من جماعات
ريفية ، بينما سكان المدن يتكلمون اللون المتداول او لهجة إقليمية

من لهجات الفرنسية ، هكذا هو الحال في برست ، لوريان أو كامبر
في بريتانيا ؛ في مراكز بلاد الباسك السياحية ، في دانكرك ، برج ،
كاسل أو هاز بروك في الشمال ، الخ . وإذا كان تعارض المدينة/
الريف يحافظ على أهميته ، فإن ذلك ليس من دون بعض الخصائص
واللطائف . ومثله في الألزاس حيث المراكز الحضرية تنتمي يوماً
إلى المجال الجرمانى ، حتى وإن كانت ستراسبورغ ، ميلوز أو
كولمار تضم بضعة آلاف نسمة لا يتكلمون إلا الفرنسية (Pottier
.France, P. 1158-1160).

في المقابل ، إن أبناء فلأحي سيفين القادمين إلى ليون بحثاً
عن عمل ، والفلامانديون المقيمون في المدن الصناعية ذوات اللغة
الفرنسية مثل ليل أو روبيه ، أو العائلات الكورسيكية ، البرتونية أو
الأولرنية ، المقيمة في باريس ... تمكنوا من تكوين أصمّة ،
جماعات عائلية من متكلمي اللهجات المحلية في قلب المدن الكبرى
ذاتها . ومما لا شك فيه أنّ هؤلاء المتكلمين لا يستطيعون في
الحقيقة استعمال لهجاتهم المحلية مع ذوي اللغة الوحيدة المحيطين
بهم ، وأنهم لا تُسَنح لهم أبداً فرصة التحوّل اليومي بهذه اللهجات
إلا خارج نواح العمل ، الخ . ولتقويم وقت حوارهم العائلي بشكل
صحيح ، لابد من الإضافة أنّ هؤلاء المتكلمين غالباً ما تركوا
أسلافهم المباشرين في بلدهم ، وأنهم هم أنفسهم لا يرون من
الضروري دائماً أنّ يتكلم أحلافهم المباشرين وأن يتعلموا بلهجتهم
المحلية ، الأمر الذي سيجعلهم يزيدون من أعداد الفرنسيين ذوي
اللغة الوحيدة .

غير أنّ قسماً من هؤلاء الذين يلتزمون اليوم بالمطالبة
البريتونية أو الأوكسيتانية هم من الحضريين الذين لا يبدو عليهم
أنهم يعتبرون واقع جلاء اللهجات المحلية عن الحواضر ، أمراً لا
رجوع عنه . وغالباً ما يفتار الأكبر عمراً بينهم ، أنّ يتعلموا اللهجة

المحلية التي نسي نوروهم أن يعلموهم إيّاها في طفولتهم ، في الإطار العائلي . ففي نظرهم ، مصادر التعليم متنوّعة جداً ، وتنطلق من قواميس القرن الماضي إلى الطرق السمعية - البصرية الأكثر حداثة .

IV/ ١٩ - نحو تبديل اللغات

بيدّ أن كل ما يتجه نحو الحدّ من تعارض المدينة / الرّيف ، وكل ما يقرب مستوى وطريقة حياة سكان ريفيين من المتكلمين لهجة محلية ، من مستوى وطريقة حياة الحضرّيين ، لا يبقى ، ظاهرياً ، دون أثر في استقرار الأوضاع المتطابقة مع اللهجات المحليّة . سنة ١٩٦٢ ، أجرى استطلاع لساني / اجتماعي في ست بلدات من منطقة غاسكون في جبال البيرينيه العاليّة ، تناول أطلاقاً في سن الدراسة الابتدائيّة ، في إحدى هذه البلدات ، الواقعة بعيداً عن طرق المرور والسياحة الكبرى ، الخاليّة من الفنادق والمصنّعات والمصانع ، والبالغ عدد سكانها ٢٥٩ نسمة ، كان ٨٢٪ من الأطفال الخاضعين للاستطلاع ، يتكلمون في عائلاتهم اللّون المحلي من اللهجة الغاسكونيّة . وفي بلدة أخرى من هذه البلدات ، تقع في وادٍ سهل البلوغ ، وكان معظم سكانها يعملون في مصنع كيميائي قريب ، هناك ٢٠٪ فقط من تلاميذ المدارس كانوا لا يزالون يتكلمون الغاسكونيّة في الوسط العائلي . وفي معظم الأحيان كان كثير من التلاميذ الفتيان ، المستجوبين ، يترنّدون في تصميه ما كانوا يتكلمونه في بيوتهم ، « فرنسية » أو « لهجة عاميّة » (Tabouret-Kel, Observations, p. 2-13) . ومع ازدياد وتيرة الانتقالات من لغة إلى أخرى ، وازدياد كميّة التفاعلات والتداخلات ، كانت المسافة بين اللغات تفقد من واقعها وحقيقتها في نظر هؤلاء المتكلمين الشبان . كما أنّ استطلاعاً أجري في (سل - سير - ديرو) سنة

١٩٧٥ (Dany Hadjadj; Parlers en contact) ، يسهم في تكوين فكرة صحيحة عما يمكن ان يكون حال لهجة محلية اليوم في فرنسا . تقع (سل - سير - ديرول) في دائرة تيبير ، في المجال الذي تمضي فيه الالوان الاوكسيتانية الشمالية جداً ، لعلاقة الفرانكو - بروفنسالية شرقاً والوان الاويل (OR) شمالاً : وهي بلدة يزيد عدد سكانها عن الالفين . من اصل ٩٦٥ متكلماً خضعوا للاستطلاع ، اعلن ٧٨٧ أنهم يفهمون اللهجة المحلية ، و أعلن ٤٦٩ أنهم يستعملونها بفعالية . هؤلاء المتكلمون هم مزدوجو اللغة ، ميكررون - اكتسبوا اللهجة المحلية والفرنسية قبل دخولهم في المنظومة المدرسية . من اصل هؤلاء المزدوجي اللغة الـ ٤٦٩ ، هناك ٤٥٨ يستعملون اللهجة المحلية في العائلة : ٤٠٢ يتكلمونها يومياً ، والباقيون بشكل دوري . لم يبق سوى ٤٢٩ ممن يستعملون يومياً اللهجة المحلية خارج الأسرة . غالباً ما جرى تصديد اللهجات المحلية كمنظومات لغوية مرتبطة بوحدة جغرافية ضيقة نسبياً : منطقة ، واد ، قرية ، الخ . وكان التفاعل الاجتماعي يسمح هناك باتصالات يومية أو مألوفة على الأقل ، لضمان وحدة المنظومة في مواجهة خلاف يظهر غالباً من واد إلى واد ومن قرية إلى قرية . وإذا كان المزدوجو اللغة قد اعتادوا على الانتقال من اللهجة المحلية إلى الفرنسية حين يخرجون من بيوتهم ، اي حين ينتقلون من المجال الخاص إلى المجال العام ، فإن العلاقة بين اللهجة المحلية والوحدة الجغرافية ستشهد انحساراً في فعاليتها بوصفها سمة مُحددة ، وعمّا قريب لن يبقى للهجة المحلية أي تصنع وظيفي آخر سوى التصنع اللغوي الحميم . الى هذا الاستنتاج بالذات توصلت دانيا حجاج عندما شددت على وجود « فصل وظيفي واضح نسبياً - في المتحدثات الموصوفة - بين استعمال الفرنسية واستعمال العامية ... التي هي لغة الحياة الجمعية بامتياز ، حياة المتحد المحلي » (Hadjadj, Parlers en con-

(tact, p. 387) ولكنّ اللهجة المحليّة لاتزال تفسر ميدانياً وبشكل له دلالة ، حتى في إطار الجماعة العائليّة . فإذا كان ٤٢٩ متكلماً يستعملونها مع ذويهم في الأسيرة . فلم يعد هناك سوى ١٤٤ يستخدمونها مع أطفالهم : « ما من متكلّم ولد بعد سنة ١٩٤٠ يتكلم العاميّة مع أولاده » (Ibid., p. 442) . عندما تكون منظومة من منظومات الاتصال والاحتكاك مرتبطة ارتباطاً خاصاً بالجماعة الأكبر سناً في المتحد ، يكون ثمة معيّر تعاقبي لتبدّل اللغات في طريق التطور ، كما كتب فاينريخ (Unilinguisme, p. 681) . ومن جهتها ، تتكلم دانيا حجاج على « المحكي المنتظم » في صدد « سل » « ديرويل » ؛ ولم يترنّد مارتينه إلا قليلاً في جعله توجه اللهجات العاميّة نحو الزوال ، سمة من السمات المحددة لها : فالعاميّة لا تستمر إلا بقدر ما يكون هناك أناس يجدون في بعض الظروف أنّ من الأسهل عليهم استعمالها بدلاً من اللغة القوميّة ؛ كما أن اللهجات العاميّة هي بتعريفها عرضة للزوال ، كما يُقال (Martinet, Eléments, p. 152) .

تنشئة مدرسية متطورة ، تفاوت مستوى وطريقة العيش بين الحضريين والريفيين . انتقال الريفيين الى المراكز الحضرية ، إنّما تعتبر كلها مسارات سلمية عموماً ، أدت إلى إثارة هذا التوجّه نحو زول بعض اللهجات المحليّة في الموقف الفرنسي . ولكنّ وكان هناك مسارات أخرى أقلّ سلماً . فقد كانت الحرب العالمية الأولى شؤماً على اللهجات المحليّة في عدّة مناطق ، ومن المحتمل ان تكون الحرب الثانية سبباً لاستمرار وبقاء قسم كبير من اللهجات المحليّة بعد الحرب الأولى (Martinet, langue et fonction p. 138-139) . ويُقدّر ان الحياة العائليّة كانت في زمن السلم كما في زمن الحرب ، فرصة لتقارب أناس قادمين من أفاق اجتماعية / جغرافية ولغوية بالغة التنوع ، وبالتالي كانت فرصة امام متكلمي اللهجات المحليّة لكي

يستعملوا بشكل مألوف اللهجة المتداولة أو اللهجة الاقليمية من الفرنسية . ويضاف إلى ذلك ، أن تلك الفرصة كانت في وقت واحد عامل تماسك قومي ولغوي . ومن الآن حتى يجري تحليل الزوال العادي لمتعددي اللغات بسبب من وقائع الحرب كعامل وحدة لسانية ، لانتزال المسافة بعيدة : فهذا الأمر كان يستلزم ، بالتالي ، واقعية في تحليل الوقائع والظواهر ، ووضوحاً كان مرفوضاً ومفتقداً بوجه عام . غير أن مفردة قتل العُشْر (Décimation) استعادت في بعض الأحيان معناها الأول ، وإن الدسكرة - اللانغدوكية ، مثلاً - البالغ عدد سكانها ١٥٠ نسمة ، والتي استطاعت ان تسجل ١٥ إسماً على نصب تذكاري الموتى في ساحتها ، ليست بلاشك دسكرة لا يمكن إيجادها . إذن ، من الوجهة الاجتماعية / اللغوية ، الحياة العسكرية والموت في ميدان القتال هما في التحليل الأخير مما يتوجب تصنيفه في عداد العوامل المحتملة لتبدلات اللغات .

IV / ٢٠ - استمرارُ اللهجات المحلية

لقد ساهم ولايزال يسهم كثيرٌ من العوامل في تفكيك استقرار العواقف والأوضاع اللغوية الثنائية في فرنسا ، لدرجة أن المرء قد يكون من حقّه ان يندهش من استمرار بعض هذه الأوضاع ، وإن يتساءل كيف استطاع تفاعل العوامل البنائية وغير البنائية أن يلعب أحياناً لصالح استمرار بعض اللهجات المحلية .

إن الألوان التي تصنع اليوم ما يسمى اللغة المشتركة هي ، على غرار « ألوان المحكي أويل Oil » (أي اللهجات المحلية في الوسط ، والغرب والشرق ، وفي النورماندي والبيكاردي) ، العمثلة الحالية للغة الغالية / الرومانية في الشمال ، كما أن التباينات البنوية محصورة نسبياً بين هذه الألوان وتلك من اللهجات المحلية . وهي أشد وضوحاً وعدداً بين اللغة المشتركة واللهجات الحالية

الممثلة للغالية / الرومانية في الجنوب ، ونعني اللهجات الفرنكية / البروفنسية ، الغاسكونية والاوكتانية ، وهي تباينات تظهر عندما تعارض الفرنسية مع الرومانية الأيبيرية في كاتالونيا ، ومع الألوان الكورسيكية (القريبة من التوسكانية في شمال الجزيرة ، ومن السردينية في جنوبها) . وفوق ذلك ، عندما يتم الاتصال مع المنظومات غير الرومانية (الجرمانية مثل الفلاماندية والألمانية ، والسلتية / البريتونية في بريطانيا ، غير الهندو / أوروبية في بلاد الباسك) .

في ما يطلق عليه بونيه تسمية الثنائية اللغوية الريفية في فرنسا (France, p. 1150- 1151) ، يميّز بين ثنائية لغوية فردية ، متفرقة (Sporadique) ، وثنائية لغوية مستعملة ، وثنائية لغوية مكثفة . وهو لا يعطي المعايير التي تؤسس هذا التمييز . ومن الواضح أنّ المقصود ، حول بعض النقاط ، هو حيوية الثنائية اللغوية أكثر من الانتماء إلى المجاميع التي حددها علماء العاميات . وعلى الخريطة ، يمكن ان نلف عند تعارض منطقة مين (Maine) الاحدية اللغة مع شامبانيا ، ومع منطقة ثنائية لغوية متفرقة من مناطق الشمال الغالية / الرومانية ، ومع منطقة ثنائية لغوية مستعملة في مناطق الجنوب ، وثنائية لغوية مكثفة هناك حيث يجري الاتصال مع الوان المحكي غير الغالية / الرومانية . وقد يستهويننا الاستنتاج من ذلك كله أنّ التوجه نحو زوال مُتَجَلِّ في لهجة مطية ، هو في المقابل توجه متناسب مع مجمل الفوارق البنوية التي تضمها في مواجهة اللغة المشتركة .

على أنّ هذه الاستنتاجات تستوجب التدقيق الجدّي . فهنا وإن توقّفنا عند معطيات الخريطة القليلة الإثارة للانتباه ، فإننا نكتشف في الشمال ثنائية لغوية دارجة في الكونتنتان . في حين أنّ الغاسكونية ترتبط في كل مكان آخر بثنائية لغوية مستعملة لا أكثر ،

وتغدو مكثفة لثنائية لغوية مكثفة في بعض أودية الپيرينه الوسطى .
يتعين الاستنتاج من ذلك أن بعض المعطيات الجغرافية تلعب بكل
وضوح لصالح استقرار الأوضاع اللغوية الثنائية . ان صعوبة
الوصول النسبية الى أودية الپيرينه العالية ، وجزيرة كورسيكا ،
وشبه جزيرة بريتانیا أو الكونتنتان ، وابتعادها عن منطقة الأحدية
اللغوية المركزية ، تعني باريس والإيل دي فرانس ، إن هذه كلها
حواجز جغرافية ، فعاليتها واضحة بمقدار فعالية الحواجز اللغوية
المتكوّنة بفعل التباينات البنيوية .

IV/ ٢١ - مواقف لغوية

من بين المقومات غير البنائية ، استطاع موقف المتكلمين
ولا يزال يستطيع ، هو أيضاً ، أن يكون حاجزاً دفاعياً فعالاً من
حواجز اللهجات المحلية . إن لهجة محلية يمكن إدراكها كإمكانية
اتصال مع الناس الذين لا يمكن الوصول إليهم بواسطة الفرنسية .
وهكذا ، تسمح الألزاسية ، الفلاماندية ، الكورسيكية ، الباسكية أو
الكاتالانية باتصالات مع متكلمين من التابعة الألمانية ، البلجيكية ،
الهولندية ، الإيطالية أو الإسبانية . إن في هذا حظاً إضافياً للإبقاء
على اللهجة المحلية ، وهذه تغدو بذلك أشد مقاومة لضغط الفرنسية
التفكيكية (Martinet, Langue et fonction, p. 143- 145) . وعندما تقوم
اتصالات بين جماعات اجتماعية تفصلها حدود سياسية غير متطابقة
مع حدود لغوية حقيقية ، فإن الاتصالات اللغوية ، الاجتماعية /
الثقافية ، الاقتصادية ، وحتى السياسية ، غالباً ما تسير جنباً إلى
جنب . وإن ما يبقى من وحدة اللغة الباسكية ، من طرفي جبال
الپيرينه مثلاً ، لا يمكنه إلا أن يخدم المناضلين بالسلاح في منظمة
ETA ، ويخدم معارضتهم للمركزية المدريدية . إن محكي فلاماندياً
في شمال فرنسا يظل عامية طالما أنه لا يدوم إلا بفعل جمود أولئك

الذين يتكلمونه ، لكنه يقدولوناً من اللغة الهولندية عند اولئك الذين يريدونه ، ويوعي ، بهذه الصفة : وإن هذا التباين في وجهة النظر سيؤدي سريعاً إلى فوارق كبيرة في السلوك اللغوي للأفراد الذين سيتجنبون بعض الكلمات وبعض الأشكال ، ويؤثرون عليها كلمات وأشكالاً أخرى (Martinet, Langue et fonction, p. 153) . وقد يكون من الصعب التشديد بوضوح أكبر على الفعالية التي يمكن أن يملكها أحياناً تفاعل العوامل البنائية وغير البنائية في الحفاظ على المواقف اللغوية الثنائية . فهناك وقائع بنيوية (تباين مخفوض بين بُنى لهجة محلية من الميدان الفرنسي وبُنَى منظومة خارج هذا الميدان) تلعب دورها في المستوى الاجتماعي : اتصالات بين جماعات من جنسيات متباينة ، استيعاء المتكلمين الفرنسيين لهجةً محليةً لانتمائهم للموضوعي إلى متحدٍ خارج الإطار القومي ، فتح . وفي المقابل تؤثر هذه المقومات الاجتماعية في المقومات اللغوية : ضرورة الحد من المسافة بين اللغات : فلامندية / منظومة هولندية ، وبالتالي الحفاظ على المسافة أو تشديدها : فلامندية / فرنسية ، عندئذ ترتبط النتائج بالتقارب والتباعد اللغويين .

إن وجود منظومات ، على حدود الميدان الفرنسي ، قريبة بنيوياً من لهجات هذا الميدان المحلية ، لم يعد يظهر اليوم ضرورياً في المطلق لكي تظهر ، لدى متكلمي هذه اللهجات المحلية ، إرادة الحفاظ على المسافة بين اللغات أو إرادة تشديدها : لهجة محلية / فرنسية ، من الصعب إنكار وجود هذه الإرادة لدى بعض متكلمي لهجات الأوكسيتانية ، الفاسكونية أو البريتونية . وفي المستوى السياسي ، كانت هذه الإرادة قد تجلّت في المطالبة بتعليم اللهجات المحلية رسمياً . فجرى التصويت على قانون في كانون الثاني / يناير ١٩٥١ ، لا يعكس ، في منظوره وفي منطوقه ، إلا قليلاً وبشكل رديء المتطلبات التي أدت إلى صدوره . يمكن تخصيص ساعة

اسبوعياً ، في التعليم الابتدائي ، لاكتساب مفاهيم أولية من ألوان المحكي المحليّة . ويؤنن للمعلمين بالاستعانة بالمصطلح المحلي كلما استطاعوا الإفادة منه في تعليمهم ، لاسيما في دراسة اللغة الفرنسيّة. ويفدو هذا التعليم لألوان المحكي المحليّة اختياريّاً في مستوى الدراسات الثانويّة ، ولا يوجد أيّ تأهيل خاص لأولئك الذين يأملون الإسهام في هذا التعليم.

IV/ ٢٢ - الديناميّة المعاصرة

اللهجات المحليّة في فرنسا

إذا كانت مطلبُ متكلّمي بعض اللهجات المحليّة قد استطاعت أن تطرح بعض المسائل على المركزيّة الفرنسيّة ، فإن هذا الأمر قد حصل أولاً ، هناك حيث ظلّ قائماً الإحساس بمحكي مرتبط بمجتمع معيّن : هناك مثلاً حيث كان يوجد مصطلح محليّ للدلالة على المحكي : الأوكيستاني ، الغاسكوني ، الخ . كان يمكن أن نتوقع من ألوان المحكي المسماة (OI)، الأقرب بنسبياً إلى ألوان اللغة المشتركة ، وغير المستفيدة شيعة الأوكيستانية والبريتونية أو الغاسكونيّة من دعم مصطلحات قريبة وراء الحدود القوميّة ، والواقعة على أطراف المنطقة اللغويّة الأهدية المركزيّة . كان يمكن أن نتوقع من هذه ألوان المحكيّة أن تُظهر حيويّة ضعيفة . وحين نضيفُ إلى ذلك بعض المقومات التاريخيّة ، تجتمع الشروط لكي لا تعود لدى المتكلّمين إرادةً قوية للحفاظ على المصانف بين اللغة الفرنسيّة ولهجاتهم المحليّة . ولا أيّ ظهور لهذه الإرادة في المستوى الثقافي والسياسي .

في المناسبة ، كلن الأمر أقلّ تعلقاً بسهولة الانتقال من اللهجة المحليّة إلى المشتركة ، والعكس بالعكس ، ويتعائل البنس اللغويّة لو

تباعدها ، من تعلقه بحضور أو غياب رغبة توكيد الذات . أن المحكيّات الفرنسية/ البيروفتسيّة المتميّزة تماماً ، من وجهة الصّواتة والقواعد والمعجميّة ، من الفرنسيّات المحليّة ، لم تسهم قطّ في تجديد الاهتمام باللّهجات المحليّة . وقد تلاشت بفعل الانطفاء ، والانقطاع في التنقل ، وليس البتّة ، كما هو حال كثير من اللّهجات المحليّة الأنثى شمالاً ، بفعل الانصهار الجومري (Coalescence) مع اللّهجات الإقليميّة على شكل من التواصل المنظومي (انظر لاحقاً : 29/TV إلى 31/TV) . وعلى الرّغم من الوضع الميسترالي ، يُلحظ وضعٌ مماثل في بروفتسا المنخفضة التي لا تصل إلّا على كاهل التجديد الأوكسيتاني .

من المحتمل جداً أن تكون الفوارق البنيويّة المؤسّسة للمسافة بين لهجة محلية سافوارديّة واللّهجة الإقليميّة من الفرنسيّة التي تشاركها مدارها الجغرافيّ ، موسومةً على الأقل ، بمقدار الفوارق الصّواتيّة والقواعديّة التي تقيم التمايز ، مثلاً ، بين لغتين هنوديتين في فوييس . وبينما يحكي المحكي السافواردي (نسبة إلى سافوا) أمام الفرنسيّة المحليّة ، يُحافظُ في فوييس وبدقة متناهية على التباينات البنائيّة التي يمكنها أن تصنع من المنظومتين القائمتين ، لغتين كاملتين لهما مكانة متعائلة .

صحيح أنّ الحصيلة الإجمالية للفوارق الاجتماعيّة / الثقافيّة بين الفرنسيين ذوي اللغة الواحدة وذوي اللغتين ، الممارسين لهجاتٍ محليّة ، قد انخفضت انخفاضاً كبيراً في مجرى التفاعل الاجتماعيّ المكثّف والمطول الذي عاشوه . ومع ذلك يمكن القول ، دون الوقوع في اللسانة الاجتماعيّة / المُخيلة ، إذا كانت معايير اجتماعية جديدة في سافوا أو في بروفتسا تستلزم الحفاظ على هويّة الجماعات ، فإنّ في مستطاع صواتة اللّهجات المحليّة وقواعدها أن تكفلا ، بلا مصاعب كبرى ، وظيفتها الاجتماعيّة في

تسجيل المصانف بين الجماعات ، فضلاً عن وظائفها اللغوية
الخالصة . إن قدر لغةً خاسرة غير مكتوب أبداً في بنيتها اللغوية
بالذات .

الثنائية اللغوية ، الازدواج اللغوي والتواصل الخطابي

IV/ ٢٣ - الازدواج اللغوي (Diglossie)

منذ أن قبلت اللهجات المحلية في مصانف المنظومات اللغوية
بصفة كاملة ومستقلة ، جرت عادةً الكلام على أوضاع لغوية ، في
معرض الكلام على الأوضاع التي كانت اللهجات المحلية من
مكوناتها . وفي عهد أحدث ، بدأ اعتبار هذه الأوضاع كأوضاع
ازدواج لغوي . وليس مصطلح ازدواج لغوي مصطلحاً بلا تاريخ .
في وقت أول ، ظل مجرد مرادف للثنائية اللغوية (Dubois, Diction-
naire, p. 155) . ثم ظهر مفهوم الثنائية الاجتماعية : كان يقصد
هكذا الوقوف خطأً ضد بعض الأفكار المتداولة التي كانت تجعل من
الثنائية اللغوية ظاهرة لا يمكنها أن تتضمن سوى لغتين لهما مكانة
اجتماعية متماثلة ، وبالتفضيل ، متميزة ، أو أيضاً ظاهرة فردية
تنتمي جوهرياً ، ولهذا السبب ، إلى علم النفس واللسانة النفسية
الخ . في المقابل ، كانت الثنائية اللغوية تميّز وضعاً تتراتب فيه
لغتان أو حالتان لغويتان ، وفقاً للفتات الاجتماعية (Tabouret - Keller,
Guide, p. 307) ، حيث كان استعمال إحدى اللغات المتنافسة يشير
في وقت واحد إلى تباين في المركز الاجتماعي بين المتكلمين الخ .
إن معظم تعريفات الازدواج اللغوي يسترجع تعريفات الثنائية اللغوية

الاجتماعية ، مع تدقيقها او توضيح بعض نقاطها . إن مصطلح ازدواج لغوي يدل على توزيع الاستعمالات في كل من اللغات حسب الظروف والموضوعات الخاصة ؛ ويتوافق هذا التوزيع ، عموماً ، مع انتشار استعمال احدي اللغات ، ومع فارق في الميزة (Tabouret - Keller, Guide, p. 308) إن الازدواج اللغوي هو وضع ثنائية لغوية شاملة متحدداً بكامله ، حيث يكون استعمال كل من اللغات مُقيداً بهذا الطرف الخاص أو ذاك : استعمال رسمي للفرنسية في كبريات المدن الإفريقية ، مقابل الاستعمال الدارج والعائلي من جانب المتكلمين أنفسهم للفتهم الأم (Mounin, Dictionnaire, p. 108) ، إن الازدواج اللغوي وضع لغوي ثنائي تكون فيه إحدى اللغتين ذات مركز اجتماعي سياسي أدنى ، وأن كل الأوضاع اللغوية الثنائية التي تُصادف في فرنسا هي ازدواجيات لغوية ، سواء في بلاد Oil ، في بلاد OC ، في بريتانيا ، الخ . (Dubois, Dictionnaire, p. 155)

في الواقع ، كان شارل فرغيسون قد أطلق منذ ١٩٥٩ مصطلح الازدواج اللغوي ، وحاول وصف الوقائع المقابلة (Diglossia, Word, Vol. 15, No2, p. 325- 340)

IV / ٢٤ - لونان في مقام اجتماعي مختلف

كتب فرغيسون : في عدة متحدات خطابية ، يجري استعمال لونين أو أكثر من ألوان اللغة الواحدة ، من قبل متكلمين في ظروف مختلفة ، حيث يتعين على كل لون أن يلعب دوراً محدداً . فأخذ هذه الألوان يكون الأول من حيث اكتسابه وتعلمه في الظروف الطبيعية لاكتساب لغة تسمى اللغة الأم ، ويكون مستعملاً في العائلة أو بين الأصدقاء . وهناك لونٌ آخر يسمى اللون المتراتب لأنه ليس الأول ، وعليه أن يكتسب بالإضافة إلى اللون المحلي الأول ، حتى يستعمل

لاحقاً في المناسبات العامة أو مع متكلمي لهجة عامية أخرى .
للرجوع بشكل مناسب إلى هذا اللون أو ذاك ، يقترح فرغيسون أن
يسمى اللون المتراتب باسم اللون (High) H، وأن يسمى L (Low)
اللون المكتسب أولاً والمستعمل إقليمياً (Diglossia, p. 327).
إن إحدى أهم مميزات الوضع الازدواجي اللغوي - كما يشدد
فرغيسون - هي تخصص وظائف H و L : ففي مجموعة أوضاع تكون
H وحدها مناسبة ، وفي مجموعة أخرى تكون L هي المناسبة . ولا
تتشابه المجموعتان إلا قليلاً جداً ، ولا يمكن التقليل من الأهمية
التي تستوجب استعمال اللون الصحيح في الوضع الذي يتطلبها ،
حتى وإن اعتبر المتكلمون أن H أعلى من L في كثير من الجوانب ،
وبالأخص عندما تكون H متعلقة بتراث أدبي قديم أو حتى حديث
(Diglossia, p. 328 - 331). ويدخل في تعريف الأوضاع اللغوية
الازدواجية ، حسب فرغيسون ، أن يكون للونين طرق وأوقات
اكتساب متباينة ، وبالأخص أن يكون لهما وظائف ومراكز اجتماعية
مختلفة .

IV / ٢٥ - لوان في منظومة واحدة

في المقالة نفسها ، كان فرغيسون قد أوضح أنه لا ينوي
تحديد الأوضاع ذات النقاط المشتركة مع الأوضاع اللغوية
الازدواجية ، بل ينوي تحديد الأوضاع التي تكون فيها اللغتان
القائمتان مختلفتين ، وكانت متقاربة نطقياً أم لم تكن . ويشدد
المؤلف على واقع أن الألوان الواردة في الأمثلة التي تناولها
(أوضاع العربية ، السويسرية ، اليونانية والهايتية) تنتمي إلى لغة
وحيدة واحدة ، حتى وإن كانت الفوارق مثيرة دوماً . خصوصاً في
مستوى (L/H) القواعدي . حتى أنه ليذهب إلى القول ، مع كل التحفظ

الضروري في الموضوع ، بإمكان اعتبار قواعد أي لون من ألوان L بوجه عام ، أبسط من قواعد اللون المقابل H (Diglossia, p.325, 333, H . 334) .

أما بخصوص المعجمية ، فيشدد فرغيسون على أن كتلة المصطلح مشتركة بين H و L حتى وإن كانت حقيقية ألوان الأشكال وفوارق الاستعمال . غير أن كل تعميم بشأن العلاقات بين صواتات H و L يبدو صعباً ، في تقدير المؤلف ، نظراً لتنوع المعطيات .

ومهما يكن الأمر ، فمن الثابت بوجه عام ، وكلما تعلق الأمر بتقرير ما إذا كان لوانان هما لغات مختلفة أو ليس هما كذلك ، أن تفاعل كل المقومات البنائية وغير البنائية هو الذي يتعين أخذه في الاعتبار . إن شعور المتكلمين المعيّنين ومواقفهم اللغوية يمكنها أيضاً أن تكون على الأقل حاسمة في الموضوع مثل وقائع البنى . ومعيار التسمية التقليدية للألوان لا يزيل شيئاً من الشبهات . ومثاله أن فرداً واحداً ناطقاً بالعربية لا يمكن أن يوجد ، بالنسبة إليه ، سوى لغة واحدة وحيدة لكل العالم العربي ، ولكن حسب الظروف والمتخاطبين (وإن تعوزه الحجج المظهرية الحصيفة لإسناد هذه الأطروحة) أو بالعكس سيكون في إمكانه أن يعارض لغتين عربيتين على الأقل . في هذه الحالة الأخيرة ، سيكون في متناول الناطق بالعربية ، إسمان لمعارضة واقعين : الفصحى ل (H) ، وبالنسبة ل (L) توجد العامية في مصر ، والدارجة في تونس ، الخ . وهناك حيث يعارض البعض الأوفرنيا بالبروفنسالية واللانغدوكية ، وكلاً من هذه الوقائع بالفرنسية ، نجد آخرين ما عادوا يريدون أن يعارضوا الفرنسية إلا باللغة الأوكسيتانية . وفي أي حال لا يستطيع جمع التسميات أو تفريدها أن يصنعا وحدهما القرار .

يختم فرغيسون مانحاً للأزواج اللغوي التعريف الذي يعتبره بمثابة التعريف الأكمل : إن الأزواج اللغوي هو وضع لغوي

مستقر نسبياً حيث يوجد أيضاً ، فضلاً عن اللون أو الألوان المكتسبة أولاً (الألوان التي يمكنها ان تشتعل على مقولب أو مقولبات إقليمية) ، لونٌ متراتبٌ ، بالغ التباعد ورفع التعقيد ، غالباً ما يكون أشد كثافةً وتركيباً في المستوى القواعدي ، ويكون حاصلاً لأدب عريض ، مكتوب وبارز ، وبعمامةٌ يكتسب هذا اللون في المنظومة التربوية ، ويُسْتعمل غالباً في الكتابة أو في المواضع الشكلية للخطاب . ولكن لا تستعمله أية جماعة من المتحد في الحديث الدارج (Diglossia, p.336).

IV/٢٦- دينامية المواضع اللغوية الازدواجية

غير أن فرغيسون ، بعدما سجّل في هذا التعريف الاستقرار النسبي للمواضع اللغوية الازدواجية ، وبعدما شدّد على أن الازدواج اللغوي يمكنه على امتداد قرون أحياناً ، ألا يطرح أية مشكلة على المتحدات التي يميّزها ، أخذ في اعتباره شتى الإمكانيات الدينامية . إن بعض التيارات الاجتماعية / الاقتصادية و / أو الاجتماعية / الثقافية (الحاجات المتزايدة لمحو الأمية وللتنشئة المدرسية ؛ تكثف الاتصال والإبلاغ بين الجماعات الاجتماعية والجغرافية ؛ الحاجة إلى لغة قومية تؤكد استقلالاً أو سيادة حديثة ، الخ) ، إذ اندمجت في وقت معين في وضع لغوي ازدواجي ، إنها طوّرت ديناميته ووجهتها (Diglossia, p.338-339). ويعتبر مارتينه من جهته (Rapport, p. 2) أن دينامية المواضع اللغوية الازدواجية (وبوجه أعم المواضع اللغوية التعددية في المتحد) هي المعيار الأوثق لتبويب هذه المواضع ، شرط الاستناد إلى ذبوع المصطلحات القائمة ، أكثر من الاستناد إلى تعارض H-L.

ومنذ الآن ، يمكن تقديم ثلاثة أنماط دينامية لهذه المواضع .

الدينامية الأولى هي دينامية الحفاظ على الإزدواج اللغوي ، عندما يكون هذا الإزدواج مُدرِكاً كسمةٍ قوميةٍ حقاً ، وكعلامة استقلال . هكذا كان الحال في النرويج في القرن التاسع عشر ، بعد حقبة الهيمنة الدانيماركية . ومما لا شك فيه هو أن الحال كذلك في سويسرا الألمانية ، اليوم . ومن جهة ثانية يمكن أن تكون النزعة نحو دينامية تقاربية ، تنطلق إلى توحيد الألوان اللغوية القائمة ، وهذا ما يميّز الوضع الزاهن في النرويج ، وما ترتسم ملامحه ، ربّما ، في اليونان اليوم . إن هذه الدينامية يمكن أن تفرض نفسها عندما يكون المتكلمون أنفسهم مقتنعين إلى حد كبير بأن الألوان القائمة هي فعلاً لغةً وحيدة/ واحدة ، وأيضاً عندما لا تتطور الصراعات الاجتماعية أو الإثنية الكبيرة جداً .

أخيراً ، يمكن أن تكون النزعة نحو إلغاء هذا اللون أو ذاك من الألوان القائمة . في الوضع الفرنسي الراهن ، تشهد الألوان الأقل شيوعاً (لهجات محلية وأيضاً لهجات إقليمية من الفرنسية) تناقصاً متزايداً في ذبوعها هذا . إن لوناً كبير الذبوع يظل يتوسع في متحدٍ ما ، إذا كان من قبل لغةً نموذجيةً في متحدٍ أو في عدّة متحدات أخرى (Ferguson, Diglossia, p.339) ، أو إذا كان الوضع يضعها في مواجهة عدّة ألوان أخرى أقل ذبوعاً : تفرض الفرنسية نفسها في بروكسل حيث تتعارض مع عدّة ألوان من الفلاماندية ؛ وتفرض نفسها في فرنسا في مواجهة عدّة ألوان من اللهجات المحلية والإقليمية ، الخ .

لكنّ الاتجاه يمكن أن يكون أحياناً نمو تصفية اللغة الأكثر ذبوعاً ، محلياً على الأقل . ومثال ذلك الفرنسية التي تفتت تصفيتها حالياً في المواقع الفلاماندية من نصف بلجيكا الشمالي .

IV/27- ازدواج اللغوي:

معاييره اللسانية والاجتماعية

يمكن اذن ، حسب فريغسون ، الكلام على ازدواج لغوي ، ومعارضته بالثنائية اللغوية بقدر ما يضم الوضع لوتين من لغة وحيدة/ واحدة ، مع مجابتهما بمراكز اجتماعية مختلفة .

بعد ذلك ، أمكن تمييز المقومات الاجتماعية الى أن جعلت السمات التحديدية الوحيدة للوضع اللغوي الازدواجي . هكذا هو الحال بالنسبة إلى فيشمان الذي كتب (Sociolinguistique, p.88) : في مجتمع يستعمل لغتين أو أكثر في سبيل اتصالاته الداخلية ، يجري هذا الاستعمال عادةً حسب اتجاهين : لغة H (high = رفيعة) مستعملة لأجل الدين والتعليم وجوانب أخرى من الثقافة ، ولغة L (low = مشتركة) يستعملها الفاعلون اليوميون في البيت والأسرة ووسط العمل اليومي ؛ يمكن للغتين (H و L) أن تعتبراً عندئذٍ كلغتين مترابيتين .

في نظر فيشمان لم يعد ثمة حاجة إلى انقسام الألوان القائمة إلى لغة وحيدة/ واحدة ؛ ولم يعد تعريفه للازدواج اللغوي يتناول سوى الجانب الاجتماعي لبعض حالات الثنائية أو التعددية اللغوية . وفي نظر هارتيفه ، يوجد في الواقع تنوع كبير جداً في التفاعلات المحتملة بين لغتين ، ومصطلح الثنائية اللغوية يشمل كل هذه الاحتمالات ؛ ومع الاحتفاظ به ، ربما يتجنب تبويهاً قائماً على تقسيم ثنائي يعتبره المؤلف بسيطاً (Eléments, p.148). إن التصنيف القائم على هذه الثنائية ينتسب ، من جهة ثانية ، إلى تصور للوقائع الاجتماعية/ الثقافية أقل ما يقال فيه إنه تصور تقليدي ومحافظ . فالعمل اليومي وبعض المشاغل الأخرى مثل ، اللون اللغوي الذي يجعل هذا الجانب من النشاط البشري ممكناً ،

نجدهما مشمولين في الحكم القيمي ذاته ، فكلاهما مشتركان (Low) ، في حين أنّ الدين أو الثقافة واللون اللغوي المتعلّق بهما ، ربيعان (High) . وإذا اعتبرنا ان من المنشود علمياً وضع اصطلاح لساني اجتماعي يفصل في حدود المعكن بين الألوان اللغوية وتصنّعاتها الوظيفية والاحكام القيمية المتعلقة بهذه الاخيرة ، فننقلُ إن مفهوم ومصطلح الازدواج اللغوي (Diglossie) لا يسيران دانحاً وبكل وضوح في هذا الاتجاه وان حدود التعارض بين H و L يمكن اعتبارها ذاتية حقاً (Martinet, Rapport, p.2) .

IV/28 - الثنائية اللغوية والازدواج اللغوي

منذ ١٩٥٩ ، جرى التوسع في مفهوم الازدواج اللغوي وتنقيته ، فأضيفت عدّة اعتبارات ذات دلالة إلى النظرية الأصلية ، كما يعتبر فيشملن (Sociolinguistique, p.88) . ففي نظره ، كان مفهوم الازدواج اللغوي يرتبط بالتالي ارتباطاً وثيقاً ، ومنذ البداية ، بمفهوم الثنائية اللغوية ؛ ومن ثمّ كان الشاغل الأكثر دلالة هو الفصل بين هذين المفهومين ، على قدر ما يكون هذا العمل التفكيكي ممكناً . على هذا النحو ربّما يسمُ الازدواج اللغوي أوضاعاً لا توجد فيها اية ثنائية لغوية عامة . فعندما تقرضُ دولة وحدةً سياسية ، إقتصادية ، دينية ... على متحدات لغوية مختلفة وفوق ذلك مفصولة جذرياً من حيث تقاليدھا الاجتماعية الثقافية ، فان عدّة لغات تجري عندئذٍ في هذا الإطار التوحيدي المفروض وتتعارض فيه ضمن علاقة من الطراز الازدواجي اللغوي، وفي إطار علاقات اللغات المترتبة . لقد قدّم التاريخ الأوروبي كثيراً من الأمثلة عن هذه الأوضاع حيث كان التفاعل الاجتماعي ، بعد غزوما ، يتمُّ بواسطة الفرنسية ، الدانيماركية ، الألمانية أو الروسية ... داخل جماعة الغزاة ، بينما لم يكن يجري أي اتصال مباشر مع طبقات المغلوبين وجماعاتهم

الاجتماعية . كان هؤلاء المغلوبون يظنون جماعياً ذوي لغة واحدة ، وكانوا يواصلون ممارسة الإنكليزية . النرويجية ، الاستونية . وكان نفر قليل من شارحين و مترجمين - يكفي للاتصالات النادرة بين الجماعات المهيمنة والجماعات المهيم عليها . ولم تكن المواقف اللغوية ازدواجية من هذا النوع عرضية وثانوية بالضرورة ؛ وربما لا تعود فقط إلى مجال الماضي .

ولفوق ذلك ، عندما لا تحظى اللغات ذوات الوضع اللغوي الثنائي أو التعددي ، بموافقة اجتماعية إجتماعية ، بتصنعات وظيفية محددة ومفصولة بشكل قوي ، يكون ثمة ثنائية أو تعددية لغوية بدون ازدواج لغوي . ويكون هذا الأمر معيَّزاً لحقبات تبدلات اجتماعية سريعة . عندما تزول معايير اجتماعية دون أن تقوم مقامها معايير واعراف جديدة . وترتبط الثنائية أو التعددية اللغوية من دون ازدواج لغوي ، بمواضع ومواقف انتقالية ، كذلك التي يمكن مثلاً أن تعيشها الأجيال الأولى من جماعات المهاجرين ، كاليد العاملة المنقولة بكثافة ، الخ . في هذه الأوضاع ، تفلت المهارة اللغوية الفردية من الضبط الاجتماعي الذي تمثله من جهة ثانية التصنعات الوظيفية الخاصة بمختلف المنظومات المتواصلة . ويمحى شاغل الحفاظ على المسافات بين اللغات ، وتؤدي أوضاع كهذه ، بشكل مألوف ، إلى استبدالات لغوية أي حلول لغات محل أخرى .

يتعايش الازدواج اللغوي والثنائية أو التعددية اللغوية عندما يدرك كل متكلم بوضوح متى ، أين ومع من يتكلم هذه اللغة بدلاً من تلك . وهذا التعايش المألوف قليلاً على صعيد أمة كبرى . غالباً ما يكون سارياً في أقاليم أو في مناطق بأسرها . يذكر فيشمان مثل الكانتونات السويسرية الألمانية حيث لكل من الألمانية ولهجة الألمانية المحلية وظائف اجتماعية حسنة الموقع ورفيعة القبعة . (Fishman, Sociolinguistique, p.91-92)

أخيراً ، قد لا يميّز الإزدواج اللغوي فقط المواقف الثنائية أو التعددية اللغوية ، بل قد يطبع بطابعه أيضاً كل وضع يقوم فيه مجتمع لغوي أحدي بمعارضة مختلف ألوان لغته ، واصفاً بعضها بأنه عامي / دارج (Vulgaires) وبعضها الآخر بأنه كلاسيكي / ماثور (Classiques) ؛ ويمكن أن يكون ثمة إزدواج لغوي منذ أن تتعايش معاجم مختلفة (سجلات) والألوان متباينة وظيفياً لهذا السبب أو ذاك . إن وضعاً لسانياً اجتماعياً كوضع باريس وجزيرة فرنسا (Ile-de-France) مثلاً ، حيث تنتمي جميع الألوان القائمة إلى اللغة المشتركة وحدها ، قد يكون إزدواجياً على قدر ما تكون الألوان الشعبية والمتداولة والعامية ... متعارضة اجتماعياً مع اللون المطبوع . ومما لا شك فيه أن موقف فيشمان هذا هو الأقرب إلى وجهة نظر فرغيسون .

IV / ٢٩ - التواصل الخطابي : الوضع الجاميكي

يبدو مفهوم التواصل الخطابي كأنه من أحدث تحولات مفهوم الإزدواج اللغوي ، بدأ دافيد دكمب بوضعه (Continuum, p.349) في 370 خلال دراسته للوضع الجاميكي المحدد بوصفه وضع متحد خطابي ما بعد لغات المستعمرات المولدة (Post- créole) . يخلد كثير من الجاميكيين الأسطورة القائلة بأن الجزيرة لا تضم سوى اللونين القائمين فيها ، وهما العامية والنموذجية (المقولبة أو المقعدة : Standard) - كما يلاحظ دكمب ، (١٠) (Decamp, Con-
tinuum, p.350) - الذي يستنتج من جهته وجود تواصل لغوي موجّه توجيهاً اجتماعياً - إقتصادياً ، وجود طيف متواصل من الألوان

(١٠) = "Two varieties, the patois and the standard" ... : هذه ، العامية ، يُشار إليها عموماً بأنها الانكليزية/ الجاميكية المولدة ، ويتكلمها قرابة المليون متكلم .

الخطابية^(١١). وطرفاً هذا التواصل غير قابلين للفهم والمعقولية المتبادلين ، فهو تواصل يتضمّن كل الألوان الخطابية الوسيطة المحتملة ، من الخطابات المعكّن عزوها الى الإنكليزية الجاميكية (المختلفة عن النموذج البريطاني) وصولاً الى الخطابات المنتمية إلى المنظومة المولدة التي يمارسها جماعات اجتماعية من الفلاحين الفقراء ، وهي لغة مولدة لا تمارسها الطبقات الحضرية الوسطى أو حتى أنّها لا تفهمها بالضرورة.

إن كل متكلم جاميكي يضبط مدئ معيناً من هذا المجموع التواصلية ، وهو مدئ يتوقف اتساعه على سعة وتنوع إتصالات المتكلم الاجتماعية . ويضيف د . دكعب إن التحدّث عن تواصل خطابي يعني أنّه عندما يكون هناك عينتان من الخطاب الجاميكي ، مختلفتان جوهرياً عن بعضهما ، يمكن دوماً أن نجد في عينه إضافية مستوى ثالثاً ، وسيطاً . هذا معناه أنّ من الممتنع وصف المنظومة في حدود عاميتين ، ثلاث عاميات أو ست عاميات ... غير متواصلة اجتماعياً.

ونظراً لعدد العينات الخطابية المأخوذة من المجموعة التواصلية والمفترض أنّها متألّفة ، فإن المشكلة قد تكمن في تصنيف هذه العينات داخل راتوب (Ordre) دالّ . وهين يتخلّى دكعب عن اتخاذ الخصائص الاجتماعية الاقتصادية لمخبريه كمعايير للتصنيف ، فإنه يستعمل تقنية تسمح له بتصنيف العينات قوامه فقط الظهور المشترك (Co-occurrence) للسمات اللسانية (الصوتية ، البنائية والمعجمية) في كل لسان للقوم (Decamp, Continuum, p.356 et s.) . لكنّه يوضح أنّ هذا الشكل من التّنوع

(١١) بالمعنى مع الطيف الصوتي الذي يعطي تفكيكه تواصل الألوان . (Decamp, . ibid., p.357)

اللسانيّ - ونعني به التواصل الخطابي - غير ممكن إلا ببعض الشروط والظروف . فلا بد للغة الرسمية السائدة من أن تكون قد وفّرت القاعدة المعجمية للغة المولّدة في المستعمرات (Créole) ، ومن دون ذلك لن يصعد ويدوم سوى وضع بسيط من الازدواج اللغوي أو من الثنائية اللغوية . كذلك لا بد أن يكون فعّالاً وفعالاً نفوذ اللغة المطبّعة وأن يكون في الإمكان حدوث ضغوطات كافية من فوق . وإذا ظلّت هذه الضغوطات غير كافية ، فلن يقوم تواصل خطابي . وإذا كان التطبيع والضغوطات الفوقية قويّين جداً ، فسوف يتطوّر الوضع في اتجاه تبدّل اللغات لصالح اللون المطبّع ، كذلك ، لا مناص من فصل نسبي بين الطبقات والجماعات الاجتماعيّة ، الشديدة الانعزال في السابق : فبدون حراك اجتماعي معيّن ، قد لا يعتبر متكلّموا اللغة المولّدة . ان اكتساب اللون المطبّع هو عامل لا بد منه في أية ترقية اجتماعية محتملة .

IV / ٣٠ - التواصل الخطابي : الأوضاع العربيّة

هل يمكن لمفهوم التواصل الخطابي أن يكون مُنوراً لدراسة أوضاع أخرى غير الوضع الجاميكي ؟ وهل يمكنه أن يسمع ، مثلاً ، بفهم أفضل للوضع في الاقطار العربيّة ؟ هذه الأوضاع جرى اعتبارها لأمير طويل كأنها نموذج كلاسيكي للازدواج اللغوي ، حسب فرغيسون . إن لوناً يسمّى كلاسيكياً ومُقعداً بدقّة ، كان يقوم فيها بالوظائف الخاصة باللغة (H = اللغة الجليّة) ، وإنّ لوناً آخر ، قريباً من (H) ، لكنّه فقط ذو استعمال محلي وشفهي ، غير مقعد وغير مطبّع ، كان يحظى بمكانة اللغة (L) . وإن مسارات تصفية الاستعمار ومجهودات الإنماء الاقتصاديّ شجّعت مؤخراً جراكاً اجتماعياً معيّناً في هذه الأوضاع . وفي غياب الوسائل الاقتصاديّة الكافية ، لم تتمكن أبداً الضغوطات الفوقية والتطبيعات اللسانية ، أن تفرض

تبدلاً في اللغات لصالح اللون (H) أي العربية الكلاسيكية . ولكن هذه الأخيرة لم تبق ، رغم ذلك ، دون تأثير في جمهور المتكلمين . حالياً ، تكثر التوصيفات من التلوّنات والألوان بين (H) و (L) ، (عربية كلاسيكية ، عربية وسطى ، عربية محلية محكية) لدرجة أنه بات من المناسب ان نتساءل عما إذا كانت إرادة التطبيع والضغطات الفوقية والحراك الاجتماعي النسبي لم تكف ، مع ذلك ، لظهور ما يسميه دكهب تواملاً خطابياً ، في الحقيقة ، ليس من المؤكد أنّ خطاب مُفَتِّ كبير وخطاب بدوي لا يزال مكابراً في بداوته ، هما ، من أول وهلة ، يمكن فهمهما المتبادل ، وليس من المؤكد أن بين هذين النقيضين لا يوجد مكان محتمل لكل ألوان الخطابات الوسيطة ، مكان محتمل لتواصل يمكن لكل لبناني ، مصري أو تونسي ... ان يراقب مداه بقدر اتساع اتصالاته الاجتماعية وتنوعها . وإذا كان يوجد دائماً في عينة إضافية مستوى ثالث وسيط بين عيّنتين من الخطابات المغربية والجزائرية والسورية ... المختلفة جوهرياً والمفترض أنها متألّفة ، فلا شك أنه قد يتعين ان نرى ذلك البرهان على وجود تواصل خطابي .

IV/31- التواصل الخطابي : الأوضاع الفرنسية

في الأوضاع المتوافقة في فرنسا مع اللهجات المحلية ، ماذا يمكن أن تكون العلاقات بين الثنائية اللغوية والازدواج اللغوي ؟ وهل وجود تواصل خطابي ممكن في هذا الوضع أو ذاك ؟ وإذا كانت الأوضاع المتوافقة مع اللهجات المحلية تقيم علاقة ازدواجية بين الألوان القائمة وكانت اللهجة المحلية تؤدي فيها وظائف اللغة (L) ، فأى لون من الفرنسية يمكنه تأمين وظائف اللغة (H) ؟ وهل سنكتفي لذلك اللهجة الإقليمية أو أيضاً اللون المتداول ؟ ماذا يمكن أن تكون وظائف اللون المُطْبَع ؟ في الوضع الألزاسي مثلاً ، رأى اللون

الجرماني نفسه مناطقاً ، بلا أي شك ، بمركز (L) ووظائفها ، لكنّ الوظائف (H) قد تكون موزّعة ليس فقط بين الألوان الفرنسية الماثلة في هذا الوضع (لهجة إقليمية ، لون متداول ، لون مطبّع ؟) بل قد تعود أيضاً ، جزئياً ، الى الألوان الألمانية التي تشترك الفرنسية معها في بعض الميادين : الإدارة ، الإذاعة المسموعة والعمريّة (الراديو والتلفزيون) ، السينما ، الخ . فهل تجتمع الشروط عند أولئك المتكلمين من الألزاسيين الذين يمارسون الألمانية المطبّعة ممارسة شفوية ، لكي يظهر تواصل خطابي بين اللهجة المحلية الألزاسية واللون المطبّع من الألمانية ؟ بكيفية عامّة ، هناك حيث لا تكون اللهجات المحليّة واللغة المطبّعة منظوماتٍ متقاربة ، لن يمكن (في رأي دكمب) ظهور تواصل خطابي ، ولن تتمكن هذه الأوضاع أن تتطور إلّا في اتجاه تبدّل اللغات لصالح اللغة المطبّعة ، عندما يكون التطبيع والضغط الفوقيّة والحراك الاجتماعي كافياً . في الوقت الحاضر يتعين التسليم بأنّها غير كافية ، وذلك على قدر ما تكون الأوضاع التي تتصادف فيها الفرنسية والفلامانديّة والألزاسية والباسكية أو البرتونية ، هي بالذات الأوضاع التي تظلّ فيها الثنائية اللغوية هي الأثقل والأعمّ .

أما في الأوضاع حيث تكون (H) و (L) منظومات متقاربة ، هناك حيث المطبّع يصادف لهجة محلية غالبة / رومانية أو رومانية ، فإنّ التطبيع اللغويّ والضغط الفوقيّة والحراك الاجتماعي التي يشهدها المجتمع الفرنسي ، قد يتعيّن عليها أن تكون كافية لظهور تواصل خطابي .

وحيث نعاود قراءة السطور التي كان مارتيفه قد خصّصها للوضع البيكاردي كما كان لا يزال قائماً في السنوات ١٩٤٠ - ١٩٤٥ ، فإننا قد نكون ميّالين إلى التسليم ، في هذه الحالة ، بوجود تواصل خطابي . في حضور الباريسيين ذوي اللغة الواحدة ، كان

البيكارديون ذور اللغة المزبوجة يستعملون لهجتهم الإقليمية الفرنسية ، ان لم نقل اللون المتداول . ثم كانوا يواصلون استعمال هذا اللون ، حتى في ما بينهم ، ثم تجدد في خطاباتهم ظهور السمات الخاصة باللهجة المحلية (مثلاً ، القفل المحلي بـ /-o/ في الماضي القريب كان يحل محل الشكل الفرنسي للختم بـ /-e/) ، وأخيراً ، مع تناسي حضور الباريسيين ، كانت هذه اللهجة الإقليمية تستعيد موقعها تماماً . فعلى الصعيد الصوتي ، كانت تفرض نفسها أولاً صواته محلية : فكلمة Chaussette في شكلها الفرنسي أولاً ، صارت [Soseat] التي جرى لاحقاً إبدالها من الكلمة المحلية [Kəseat] . وكانت النتيجة النهائية شكلاً خطابياً غير قابل بوجه عام للاختراق إلا من قبل المطلعين أي مزبوجي اللغة أنفسهم . (Martinet, Langue et fonction, p.139-140)

من المؤكد ان نكسب يرفض عندئذ الكلام على ألوان لغوية متباينة او عاميات اجتماعية متفاصلة تتدرج بين لون مطبوع من الفرنسية ولهجة محلية ببيكارديّة (لون متداول ، لهجة إقليمية فرنسية . لهجة إقليمية مُبكرّدة ، لهجة محلية مُفرنسة ، ثم لهجة محلية ببيكارديّة) . ومما لاشك فيه أن يستطيع في هذه الحالة ، تشخيص تواصل خطابي . وكان يكفي مارتيفه بأن يشدد ، من جانبه ، على ان الانتقال في بعض الأوضاع اللسانية الاجتماعية من شكل كلامي إلى آخر ، لا يتم إلا بالتدرج . وعندما يعني تبديل السجل (بعقنضى تبيل في التخاطب أو أي تبدل آخر في معطيات الوضع المباشر) تغيير منظومة لغوية ، فإن الانتقال من لغة إلى أخرى لا يكون مفاجئاً دائماً ويمكنه ألا يتم إلا بالتدرج .

ومن المحتمل أن يعتبر مفهوم التواصل الخطابي إجرائياً ، بهذا القدر أو ذاك ، وفقاً للأوضاع المطلوب وصفها ، وحسب المنظار الذي يختاره الباحث . ولا يقل صحة عن ذلك ، القول إن

التقنية التي استعملها دكمب في تحليل العينات المأخوذة من التواصل الخطابي ، وفي تصنيفها فقط على قاعدة الظهور المشترك للسمات اللغوية ، يفترض أن تظهر مفيدة ليس فقط لتحليل ظواهر الانتقال من لغة إلى أخرى في أوضاع لغوية ثنائية أو تعددية ، بل يمكنها أن تكون مفيدة أيضاً في وضع لغوي أحدي . وعندئذ يمكن لهذه التقنية الإسهام في الإحاطة بظواهر الانتقال من لون إلى آخر ، وبالتبدلات التدريجية من سجل إلى آخر ، أو يمكنها أيضاً الإسهام في تحليل سجلات مركبة بينها المتكلم حين يستفيد صراحة من سمات لغوية مختارة من شتى ألوان اللغة نفسها .

التداخل اللغوي

IV/ ٣٢ - إتصال اللغات وتداخلها

ثنائية لغوية عامة وازدواج لغوي مستقر ، ثنائية لغوية بلا ازدواج ، وازدواج لغوي بلا ثنائية عامة ... في الظاهر كبير هو التنوع في التفاعلات الممكنة بين لغتين أو أكثر ، لكن ، مهما تكن كميّات الاتصال بين اللغات ، ومن زاوية ، هذه التجريدات المفيدة إلا وهي المنظومات اللغوية ، وحدها (Decamp, Continuum, p. 350) تكون النتيجة هي نفسها دائماً ، إنها التداخل (Interférence) . ثمة أسباب قوية للقول إن معرفة متكلم بعينه للفرنسية والقياتنامية ، أو معرفته للفرنسية والبروفنسالية ، للفرنسية المحكية في باريس أو الفرنسية المحكية في مرسيليا ... هي من متغيرات الظاهرة الأساسية نفسها ، كما كتب هايفريخ . إن المشكلة بالنسبة إلى المتكلمين هي في التوافق مع معايير مختلفة في سياقات متباينة ، وهذا يفضي باستمرار إلى تداخل معايير منظومة مع معايير

المنظومة الأخرى . وليس تجنُّب التداخل بين منظومات بلغة التباين ، أسهل من تجنُّبه بين منظومات متقاربة أو بين الوان من منظومة واحدة (Weinreich, Unilinguisme, p. 648- 649) . ولن يكون تجنُّب التداخل بين الإسبانية والباسكية أسهل من تجنُّبه بين الإسبانية والغاليكية أو الأندلسية ، وليس تجنُّبه بين الفرنسية والعربية أو الفيتنامية ، أسهل من تجنُّبه بين الفرنسية والوكسينانية أو البكاردية ...

عندما تكون المنظومات اللغوية على احتكاك واتصال ، يمكن أن يطرأ التداخلُ في كل المستويات : في المستوى الإنبنائي الأضعف الذي هو المستوى المعجمي ، وفي المستوى القواعدي حيث سيكون النحْوُ معنياً تماماً مثل كشوفات الأشكال والمباني ، وحيث لن يحمي بناؤه الضيق ، بدوره ، المستوى الصوتي .

IV/ ٣٣ - التداخل المعجمي :

تتوصَّلُ مخزونات اللغات المعجمية إلى الاستمرار في تمايزها ، حين تظلُّ كلُّ منها مجموعةً من الدلالات مستقلة ، وعندما تُحافظ كلُّ من الدلالات على علاقة الدال / المدلول التي تختصُّ بها . ومثله أن المخزونات المعجمية في الفرنسية والروسية مستقلَّ متمايزة ، إذا ظلُّ لدى المزدوج اللغوي الفرنسي - الروسي ، دالاً / Sykr / و / Nos / محتفظين بعلاقتها مع مدلولي «Sucre» و «Noce» ولم يظهر إلا في الأوضاع الموجبة استعمال الفرنسية ، بينما دالاً / Saxar / و / Nos / مثلاً ، إذ يحتفظان بعلاقتها مع مدلولي «Sucre» و «Nez» ، فإنهما لا يظهران إلا في الأوضاع المستوجبة استعمال الروسية . لا يزال الأمر أبعد من أن يكون على هذا العنوان ، وغالباً ما يفضي اتصال اللغات إلى الملعمة (Amalgame) . فعند المزدوج اللغوي الفرنسي - الروسي ، يمكنُ لدال / Nos /

أن يعمل في الواقع من خلال المنظومتين ، والمزدوج اللغة لن يزيل التباس /nos/ إلا بتفضيله المدلول /noz/ في الأوضاع التي تفرض استعمال الروسية ، والمدلول /Noce/ في الأوضاع التي تفرض استعمال الفرنسية . وبالنسبة إلى هذا المزدوج اللغة ذاته ، سيكون في المقابل للمدلول «Sucre» دالاًن ، بمقتضى الأوضاع (Weinreich, unilinguisme, p. 651) Saxar / Sykr/

دون وقوع تبدل جذري في الدالات ، يمكن للتداخل المعجمي أن يبدل علاقة الدال / المدلول ، مثلاً بتوسيع أو بتضييق المدلولات . وعندما يحتفظ المزدوج اللغة (الفرنسية - العربية) بالمنظومتين وبمخزوناتهما المعجمية منفصلةً ، يكون الدال / عَرَفَ / Çarafa متعلقاً بالمدلول «Reconnaitre, Connaitre, Savoir» / و/ Konetr Conaitre متعلقة بمدلول معادلٍ ، لكنه يملك ، فضلاً عن ذلك ، مدلول «عاش ، خبر» / «Expérimenter Vivre» / . وعندما يتداخل المخزونات المعجميان ، يمكن لـ / عَرَفَ / أن يكتسب معنى / Expérimenter, Vivre / غير المتعلق به . في المنطلق ، في منظومته ولا في استعمال الناطقين بالعربية وحدها . وبالعكس ، في الخطاب الفرنسي لنوي اللغتين ، سيكون للدال / Konetr / أن يفقد مدلول / Vivre, Expérimenter / الذي يعود إليه . مع ذلك ، حتماً في المنظومة الفرنسية .

IV / ٣٤ - الإقتراض المعجمي

يمكن للتداخل بين المخزونات المعجمية أن يصل إلى حد الإقتراض . وحين أتى بوتييه على ذكر الأوضاع المتوافقة في فرنسا مع وجود اللهجات المحلية ، أشار إلى أن مزدوج اللغة غالباً ما يحصل لديه تواطؤ لغوي (تسوية) بحيث تقتصر اللهجة المحلية وحداتٍ معجميةً لأجل التقنيات / الأغراض الجديدة .

السياسة أو الرياضية : في حين أن اللهجة الإقليمية الفرنسية تكون موسومة بترسيمات (Calques) مجتلبة من اللهجة المحلية . ويعامة ، يخصص مصطلح ترسيم (نسخ) لاقتراض وحدة معجمية في اللغة A من اللغة B ، في شكل مترجم . لقد انضافت الترسيمات التقريبية : (Salle de séjour) التي ما اقترضته المعجمية الفرنسية من الانكليزية : (Living-room) المقتصرة أحياناً على : Living . مباشرة اعطت الانكليزية (Sky-Scraper) وبشكل ترسمي (gratte-ciel) في الفرنسية ، ولا تزال الفرنسية اليوم مترددة بشأن اقتراض Marketing وإبدالها من ترسيم : زد على ذلك أن هذه النظرية (Anglicisme) غير الضرورية ، سببت التكيف في الفرنسية مع كلمات (Études) ، (Technique) أو (Science des Marchés) ... هذا ما يمكن ان نقرأه في قاموس بول روبر (Robert Supplément, 1972, p. 306) . إن النسخ المعجمي يوفّر أولاً فائدة تجنّب المصاعب التي يمثلها استدمج الدالات ، صواتياً وتحوياً ، للمعجمات الغريبة ، وادخالها في منظومتها الاستقبالية ؛ ويجاول من جهة ثانية احترام التعادل في راتوب المدلولات . ولا يكون هذا التعادل ، أحياناً ، إلا تقريبياً جداً ؛ وأحياناً النقل الآلي لبعض الأشكال المركبة من اللغة A إلى اللغة B ، يؤدي إلى بناءات لا يمكن تحليلها ، من وجهة نظر B ، إلا بوصفها لا معنى أو معنى مضاداً ، كما أشار إلى ذلك فليفريخ ، حين أورد الأمثلة الفرنسية : Station-service, science-fiction ، إن هذا التعادل المنشود في مستوى المدلولات يمكنه ألا يكون إلا تقريبياً . عندما تدخل أو تكون قد دخلت معجمات اللهجات المحلية بشكل مترجم ، بشكل ترسيمات ، في اللهجات الإقليمية الفرنسية ، هذه الترسيمات التقريبية ، الكثيرة ، ليست دائماً وقائع خطابية لدى مزدوجي اللغة ، فهي قائمة أحياناً في اللهجات الإقليمية منذ أمد بعيد جداً إن المخبر البيتروي (Biterrois) الذي قدم القول :

Couper إنما أنتج ، مع Couper
و Conque ، دالات تنتمي إلى المنظومة الفرنسية . ولكن ، بما أن
التداخل قد فرض على Couper مدلول «Casser» ، وفرض على
Conque مدلول «Cuvette» ، فإن النسخ لم يكن يفضي إلا لتعادل
نسبي في راتوب المدلولات وكان في مستطاع هذا التقريب أن
يفاجيء مستمعا لا يمارس إلا اللون المتداول أو أية لهجة إقليمية
أخرى .

IV / ٣٥ - تدامج دال المقترضات

كثيرة هي صيغ التداخل المعجمي ، ونتائجها بالغة التنوع ؛
بيد أن اللاكثر إدهاشاً - رغم أنه مألوف - يظل الافتراض الشامل
لوحدات معجمية . ذلك الذي لا يفصل ، في المنطلق ، بين الدال -
والمدلول . فعندما يربط وضع لساني اجتماعي معين ، اللغة A
بمجموع X من الوقائع غير اللغوية ، ويربط المنظومة B بمجموع
آخر ، Y ، (الأوضاع الفرنسية - لهجات إقليمية / لهجات محلية -
قريبة من هذا المخطط) . يستلزم المتكلم الثنائي اللغة أن يتقيد ،
بكل وضوح ، بعبادات الجماعة أن يحكي عن X في اللغة A ، وعن Y
في اللغة B . غير أن بإمكان الوضع المباشر أن يجعل الثنائي اللغة
يتوصل إلى الكلام عن Y في اللغة A مثلاً ، وسيكون هناك سبب كافٍ
حتى تفرض نفسها معيجمات B على المنظومة A . عندئذ يمكن
للافتراض المعجمي أن يظل مجرد ظاهرة خطابية . إما لإتنا نجد له
معادلاً دقيقاً أو تقريبياً ، سابق الوجود في A ، وإما لأي سبب آخر ،
مثلاً إرادة المتكلم الثنائي اللغة في الحفاظ على الفصل التام بين
اللغتين ...

عندما يتثبت الافتراض في منظومة A يحدث أنه قد لا يعاني أو
أنه لم يعاني إلا قليلاً جداً من التغيرات ، سواء في مستوى الدال أم

في مستوى المدلول ، خصوصاً إذا كانت A و B تملكان صواتات وقواعد متقاربة ، وإذا كانت A لا تملك من قبل معيجمة أو معيجمات لمدلول واحد أو دال قريب . لكن الوحدة المعجمية المفترضة يمكنها أيضاً أن تعاني جميع أنواع التبدلات . هنا يمكن للثنائية اللغوية الفرنسية - العربية في تونس أن تقدم مثالاً عما يحدث في أثناء استدماج دال على مقترض معجمي . عندما تكون صواتات وقواعد المنظومات القائمة بالغة التباين . فبعد قيام الانتداب الفرنسي على هذا البلد بقليل ، بدأ الناطقون بالعربية يسمعون المستوطنين يتكلمون على المركز الاجتماعي الجديد لبعض التونسيين . مركز العمال ، وبالأخص العمال الزراعيين ، في أول وقت . إن التركيب الفرنسي : Les (ou des) ouvriers [Le (de) ZUVRUJE] كان إذن في أساس مقترض معجمي مشبوت اليوم في منظومة العربية التونسية على شاكلة /Züfri/ المفردة . إن واحداً من معطيات المنظومة العربية تعين عليه أن يشجع إلى حد كبير الاقتراض في صورته ذات الحرف البدئي الصامت /Z/. والواقع أن هناك شكلاً عربياً مقعداً يدعى الجذر الثلاثي (Racine Trilitère) ، مثل ك - ت - ب - ، الذي نحصل منه على أشكال مشتقة بتباينات الصواتات وبإضافة سوابق ودواخل ... : وعليه فإن ك - ت - ب - يعطي ← كَتَبَ ، كُتِبَ ، كاتب ، مكتوب ، الخ ، إن المقترض /Züfri/ ذا البادئ الصامت يمكن اعتباره ، على هذا النحو ، مشتقاً من جذر ثلاثي ز ف ر (Z* - t - r) ويندمج في سلسلة طويلة /mäsrü/ «turc» /Turki/ «tunisien» /Tunsi/ «égyptien»... إن استدماج هذا المقترض في منظومات أشكال لغة الاستقبال هو اليوم على غرار المفرد /Züfri/ مزود بجمع تسعيه القواعد السلفية جمعاً داخلياً أو جمعاً مَكْسُراً : /zuafria/ .

بينما الفرنسية تعارض /V/ خرساء بـ /N/ مرنة ، بالنسبة إلى الصوامت الشفهية التي تخرج من بين الأسنان (الشفسية

(Labiodentale) . فإن المنظومة العربية لا تملك إلا حرفاً صامتاً /ف/ ، الأمر الذي جعل مزدوجي اللغة يوحّدون بشكل طبيعي بين /f/ في كلمة *louvrier* و /ف/ العربية . زد على ذلك أن التفتيح^(١٢) ، وهو سمة مميزة لمنظومة الصوامت في العربية ، قد فُرض هنا على صوامت دالّ المُقْتَرَض ، وذلك في شكل مفخّم إجمالاً لدرجة أن المُقْتَرَض يُستدمج اليوم على هذا النحو : [Zuʔfri/ə] . إن ما قيل أعلاه ، رغم أنه ناقص ، يفسح في المجال لاستشراق كثافة المعطيات التي تدخل اللعبة في أثناء الاستدماج الصوتي والبنوي لدالّ مقترض معجمي عندما قيم هذا الاقتراض بين لغات غير متقاربة .

IV/٣٦ - تدامج مدلول المُقْتَرَضَات

يقع بعض التغيرات التي تعانيها الوحدة المعجمية المُقْتَرَضَة ، في مستوى المدلول ذاته ، ولا يزال المُقْتَرَض /Zɔfri/ خير مثال هنا . ويمكن التسليم بأن هذا المُقْتَرَض قد استطاع في وقت أول أن يحتفظ في المنظومة العربية بمدلول قريب نسبياً من المدلول الذي كانت تملكه المعجمة الفرنسية . إلا أن المنظومة العربية كانت تملك معيجمات للمدلول ذاته أو على الأقل لمدلول قريب ، وهي مستعملة اليوم ، فعلياً ، كمعادلات لـ (ouvrier) ، ومثال ذلك : كلمة خادم «domestique» Xaddem ، سابقاً ، يجري استعمالها عموماً في الحوار اليومي ، في حين أن عامل Gāmil (ذلك الذي يعمل) تظهر في الصحافة غالباً . ومن جهتها صارت كلمة /Zɔfri/ تحظى بمعنى /زقاقِي /Voyou/ ، وذلك من باب انزلاق المعنى .

(١٢) يشار هنا إلى التفتيح ، في التدوين ، بالنقطة الموضوعية تحت الصوامت .

وليس بغيرية عن هذا الانزلاق في المعنى ، بعض المقومات اللسانية/ الاجتماعية . أولاً في المنظومة الفرنسية ذاتها ، لاشك في أن المعجمة (ouvrier) لم يكن لها سوى مفاهيم تقريظية ، في نهاية القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين ، وهو عصر كان مصدراً للاقتراض . زد على ذلك في الوضع العام الذي اصطنعه الاستعمار ، أن الأوضاع المباشرة لم تقتصر إلى خطاب المستعمرين الفرنسيين الذي كان يعطي لكلمة /عامل : ouvrier/ سياقات لغوية تتضمن في أحسن الأحوال معاني /Chenapan, voleur, menteur, /، خالقاً بذلك الشروط الكافية لكي يستضيف المقترض Zūfri بعض المفاهيم التحقيرية ، ومهيناً الأجواء للوصول إلى المدلول الزاهن . وطالما أن العربية التونسية لا تعرف سوى استعمال شفهي ، فليس بالإمكان استثارة شهادة وثائق مكتوبة أو مطبوعة ، وبالتالي قابلة للتأريخ ؛ كما أننا سنبقى في مجال الفرضية ، حين نقول إن انزلاق معنى Zūfri نحو «voyou» أمكنه أن يبدأ عندما انتشرت صناعات محلية صغيرة في المدن التونسية أو بالقرب منها ، فبات المركز الاجتماعي للعمال حضرياً ، وصار لهذا السبب يستبعد ، إلى حد كبير ، سرقات الدجاج المحتملة أو القطف السري لبعض الزيتون . عندئذ كان بمستطاع المعجمة (Zūfri) أن تستدمج في مدلولها ما لم يكن أولاً سوى مفاهيم تحقيرية ، وانقسمت في المجال أمام معجمات عربية موجودة قبل الاقتراض ، للدلالة على مراكز اجتماعية لم تكن تبدو في حينها غير مشرفة تعاماً .

بما أن معجم أية لغة يتكيف مع المتغيرات الاجتماعية/ الاقتصادية والاجتماعية/ الثقافية ، فإنه يكون في حال من التجدد المتواصل ، حتى في وضع لغوي أحدي . وفي الأوضاع اللغوية الثنائية والتعددية ، يصبح التداخل المعجمي والإقتراض من

المصادر الممكنة لهذا التجدد . ويمكن أن تتكاثر التداخلات والاقتراضات بكل سهولة ، وذلك على قدر ما يكون المعجمي هو المستوى الاتينائي الأضعف في المنظومات اللغوية . إذن ، تتمتع الوحدات المعجمية بانتشار سهل ، ويمكن للتداخل أن يبلغ مقادير كبيرة . وعليه قد يصل الأمر بذوي اللغة الثنائية ، في بعض المواقف والأوضاع اللسانية الاجتماعية ، إلى الاكتفاء بصهر مصطلحيهما في مخزون مشترك من الإبداعات والتجديدات المعجمية (Weinreich .. Unilinguisme, p. 664 - 665)

IV/ ٣٧ - التداخل الصوتي

بكيفية عامة ، تقاوم صواتة لغة مقاومة أفضل وأطول من معجميتها ، في حال تعرضها لتأثير التداخل ، وذلك لأنها هي المستوى الذي تكون فيه المنظومة مُبنية انبناءً مرصوصاً . مع ذلك ، لا مفاص من التسليم بأن التبدلات الصوتية والصواتية ، بوصفها نتاجات منتظمة للمقومات البنائية ، إنما تتراجع أحياناً أمام نتاجات الاقتراض . وعندئذ يكون الاقتراض المعجمي واحداً من الموارد ، من الوصلات ، التي يمكن من خلالها أن يتم الاقتراض الصوتي ، وغالباً ما يلعب استدماج دالّ المقترضات المعجمية دوراً مهماً في تطور صواتات الاستقبال ، وهو دور أعطته الدراسات النقابية مكانة واسعة . إن الاستيراد الكبير والواسع للمواد المعجمية الأجنبية ، المستدمجة استدماجاً ناقصاً ، يؤدي إلى توزيعات صوتية جديدة وحتى أمام إدخال صوتيات جديدة في لغة ما: هذا هو أصل التمييز الصوتي بين /l/ و /v/ أو بين /s/ و /z/ في الانكليزية، بين /k/ و /g/ في التشيكية، الخ. (Weinreich Unilinguisme, p. 670)

ولكن ، حتى قبل أن يتوصل التداخل الصوتي إلى الاندراج

في مستوى المنظومات ، لا يكون من النادر في تصاوق الأوضاع الاتصالية بالذات ، في خطاب ذوي اللغتين ، أن يتعلّق التداخل بالمنظومات الصوتية بكاملها ، وأن يطول مجمل العادات النطقية المتعلقة بكل من هذه المنظومات . ومثال ذلك ، في تصاوق وضع كالوضع الذي يحافظ على الاتصال والاحتكاك بين المنظومة الفرنسية والمنظومة العربية التونسية ، تفسح مشاهدة الشروط اللسانية الاجتماعية للاتصال ودراسة الصوتيات القائمة دراسة تباينية ، المجال أمام التوقّع بأنّ التداخل في خطاب التونسيين ذوي اللغتين يتعيّن عليه أن يطاول تقريباً كل المنظومة الصوتية الفرنسية (سواء على مستوى الصوتات أم على مستوى الصوامت) وكل العادات النطقية التي تتضمنها هذه المنظومة. إن مشاهدة الوقائع تبين أن في إمكان كل التداخلات الممكنة توقعها أن تتحقّق وتتفعل⁽¹³⁾ ، ولكن من الواضح تماماً أنّ كمّ التداخلات المتحينة ونوعها ، يتوقفان على التاريخ اللغوي الخاص بكل متكلّم (العمر، الكيفية ، المكان ، أوزمن اكتساب اللغات الاتصالية -) على الأقل ، مثلما يتوقفان على مقومات الوضع المباشر لخطابه (المتخاطب (ون) ، الموضوع المعالج، انتباه المتكلّم لخطابه ، ظرف التعب...) .
 مهما يكن الأمر ، عندما نشاهد مثلاً التلقّظات التي اكتسبتها الصوتات الشفهية الفرنسية في خطاب التونسيين ذوي اللغتين حيث تُفرض عادات نطقية مرتبطة تماماً بالصّواتة العربية ، يكون ثمة مثلٌ مفيد عمّا يمكن أن يؤوّل إليه التداخل الصوتي . ومعيار الفرنسية يجعل متكلّمي هذه المنظومة متسامحين نسبياً في ما يختص بتلقّظات الصوتات الشفهية ذات الفتحة الصوتية المتوسطة

(13) Juliette Garmadi - Le Cloirec, Le français parlé en Tunisie, description phonologique et syntaxique, Thèse de doctorat d'Etat, non publiée.

/e, ɛ, ø, œ, o, ɔ/ وبالعكس ، فإن تغيّرات طارئة على تلفظات
الصوائت الأكثر استقراراً في المنظومة /i, y, u, ə/ مستثير لديهم
الدهشة أو الاستنكار. والحال ، فإن فرض الاندهاش لن تنعدم ، لأن
التمييز لدى الناطقين بالعربية من ذوي اللغتين هو كيفية عامة
صعب الصمود ولا يستمر هذا التمييز بين سلسلتين من الصوائت
المنطوقة من الامام: /i, e, ɛ/ و /y, ø, œ/ إلا بصعوبة، ويمكن أن
تصبح /i/ /y/، /e/ تصبح (ø)، وبالعكس: /y/ تصبح [i]، الخ.
هناك لدى الناطقين بلغتين نزعة عامة أخرى هي تلك التي
تمركز ، في بعض الصيقات ، الصوائت الأكثر انغلاقاً /i, y, u/ ،
والصوائت الامامية في اغلبها ، مما يعطي لـ /i/ و /y/ مثلاً تلفظات
مفتوحة وبدون نطق شفهي دقيق جداً، ينزع نحو [ɛ]. ينبغي البحث
خارج المنظومات الصوتية القائمة ، عن أصل هذا التداخل . إن
الفرنسية المعاصرة تخفض لفظ هذه الصوائت لضغط لفظ
صوائتها، بينما العربية يحدث فيها العكس إذ أن صوامتيّة مفلوظ ما
هي التي تضغط على لفظ الصوائت . وهذا يحدث في المنظومات
الصوائتية حيث ترغم الصوائت المطبوعة بطابع صوتي ملائم ،
الصوائت على حريات تأليفية كبيرة . ان التفخيم يتصرّف بطابع
صوتي ملائم في إطار المنظومة الصوامتيّة العربية ، والتداخل الذي
يحدث حينئذ في مستوى المنظومات الصوامتيّة ، يفرض أولاً التفخيم
العربي على تلفظات الصوائت الفرنسية /i/ يمكن أن تلفظ /ط/ ، [S] ،
[r] /i/ ، الخ . ثم تكتسب الصوائت الفرنسية حريات تأليفية وتركيبية لا
تملكها في منظومتها ، وتتكيّف مع التفخيم المفروض على الصوائت .

في الوضع اللساني الاجتماعي القائم في تونس ، تعتبر
الفرنسية اللغة الثانية لذوي اللغتين . وهذا واحد من شروط
الاحتكاك التي تجعل هذه اللغة أكثر تعرضاً لمعاناة التداخل مما هو
حال المنظومة العربية . مع ذلك ، ليس مؤكداً أن العربية ذاتها في

منأى كُلي عن التداخل . فالمفترضات المعجمية القديمة ، تلك التي استطاعت العربية التونسية أخذها عن الفرنسية في العصر الذي كان فيه اتصال اللغات أقل وثقاً ، بلا شك ، تبين أن المنظومة العربية كانت تقاوم التداخل الصوتي مقاومةً حسنة . فهناك حيث ترابط الإرتان الفرنسي يعارض /p~b/ و /f~v/ ، لا تملك المنظومة العربية إلا صوتين /ب/ و /ف/ ؛ كما أن المعجمات المجتلة منذ تاريخ قديم ، (s) ouvrier (z) و /Vapour/ ، جرى تثبيتها في العربية بصورة /Zūfir/ و /babur/ . ولكن يمكن اليوم أن نسمع بخصوص Pétrole في الخطاب العربي ، الى جانب [bitrul] التي لا تقدم تنازلاً كبيراً للصوتية الفرنسية ، ترددات تقارح بين [pitrul] و [betrol] . فاية كمية من المواد المعجمية الفرنسية غير المستدمجة تماماً ، كانت ستلزم حتى تظهر في العربية توزيعات جديدة للصوتيات ؟ وم من الوقت سيلزم لاتصال لغوي وثيق حتى تطور المنظومة العربية تعارضاً بين /p~b/ أو /f~v/ ؟

IV/ ٣٨ - التداخل النحوي

في الغالب تكون مهمة المقالومات البنيوية للتداخل النحوي وللاقتراض الذي يمكنه أن يترتب عليه ، إن المقالومات غير اللغوية يمكنها ، هي أيضاً أن تكون شديدة في هذا الحال ، ويمكن القول إن الردود المعيارية للمتكلمين المعنيين مصدرها الدفاع الذاتي عن الجماعة كجماعة . مع ذلك يظل صحيحاً القول إن التداخل والاقتراض النحويين هما اليوم من البيئات المستخلصة مراراً وتكراراً .

إن الأمثلة التي أخذها غومبرز وويلسون من المراثية ، الأوردية والكائادية المحكية في كوهوار بما يكفي المرة مؤونة البحث عن أمثلة أخرى حتى يدلل على وجود وكيفيات التداخل والاقتراض

بين منظومات كلمات صرفية (morphèmes) في وضع اتصالي
(راجع سابقاً ، 12/IV و 13/IV).

إنّ الترسيّات النحويّة (أكانت مجرد وقائع خطّابية لذوي اللغتين أم كانت مقترحات سابقة ، مثبتة في المنظومات) والتداخل النحوي الذي تنجم عنه ، إذا استطاعت أحياناً أن تعرّفون أن يلحظها مستعملو اللغات المعنيّة ، فهي ، مع ذلك ، واقع لغويّ بيّن . ويمكن للاتصال بين المنظومة العربيّة والمنظومة الفرنسيّة في الوضع اللساني / الاجتماعي التونسي الرّاهن أن يقدّم عدّة أمثلة تدلّ بكل وضوح على أوالات التداخل النحوي . على الرّغم من عدم وجود دراسات إحصائيّة موضوعة بجديّة لأغراض المقارنة ، على حدّ علمنا ، فقد جرت العادة على التكرار بأنّ طريقة التوسع المميّزة في النحو الفرنسي قد تكون التوسع بالإلحاق^(١٤) ، في حين أن النحو العربي قد يفضّل طرق التوسع بالتراكب والتناسق . إنطلاقاً من هذا ، تُعزى بوجه عام للتداخل النحوي الذي تفرضه الفرنسيّة ، الالتفات التي يبدو أنّها تتكاثر في الخطاب العربي للتونسيين من نوي اللغتين ، على حساب التراكبات والتناسقات . وعليه ، سوف تُعزى إلى ضغط النحو الفرنسي ملفوظات مثل : ورغم أنّه كان مريضاً فقد حضرَ الاحتفال - bien qu'il fût malade, il assista à la cérémonie بدلاً من : كان مريضاً ومع ذلك فقد حضر الاحتفال : «cerémonie» بدلاً من : كان مريضاً ومع ذلك فقد حضر الاحتفال : «Il était malade et malgré ça il assista à la cérémonie» أو أيضاً :

يستقبل سفير العراق الذي أبلغه رسالة ،

«Il a reçu l'ambassadeur d'Irak qui lui a remis une lettre».

(١٤) يمكن أن تكون الألوان الفرنسيّة ذاتها مختلفة حول هذه النقطة ، وليس من المؤكد أنّ الألوان المطبّعة ، المتداولة ، الشعبيّة أو اللهجات الإقليمية تستعمل الإلحاق والتناسق والتراكب بطريقة واحدة .

بدلاً من :

يستقبل سفير العراق وأبلغه السفير رسالة - «Il a reçu l'ambas-
sadeur d'Irak, et l'ambassadeur lui a remis une lettre»⁽¹⁵⁾.

كما يُعزى إلى التداخل الذي تفرضه الفرنسية :
النقل المألوف أكثر فأكثر للفاعل الذي يظهر قبل وليس بعد
المسند الفعلي.

حريات الوضع المكتسبة حديثاً من جراء هذه التوسعات
بالإلحاق ، ألا وهي المفعولات فيها التقليدية.
التوسعات التي يمكنها هي أيضاً أن تسبق من الآن فصاعداً
مجموعة المسند/الفاعل ، وهذا بخلاف ما كانت تستلزمه القواعد
النحوية العربية الأقدم.

التعديل الذي طرأ على مفهوم الصورة (Notion d'aspect) ،
الذي يبقى مع ذلك نعتاً وتليفاً للمنظومة الشفهية العربية ، لصالح
مفهوم الزمن (Notion de temps).

ظهور كُليّاتٍ وتليفيّةٍ هناك حيث لم تكن مطلوبة من قبل ؛ الخ.
غير أن الفرنسية تبدو مؤهلة ، أكثر من العربية أيضاً ، لمعاناة
التداخل النحوي في السياق اللساني - الاجتماعي الرّاهن لتونس ،
ذلك لأنها اللغة الثانية التي يكتسبها ذوو اللغتين فيها . تُظهر
الدراسة التضادية للقواعد القائمة إن المنظومة الشفهية الفرنسية ،
مثلاً ، يفترض فيها أن تكون مجالاً لتداخلاتٍ مهمة ، وإننا نجد كثيراً
من التداخلات الممكنة توقعها متحققة في الخطاب الفرنسي للناطقين
بالعربية⁽¹⁶⁾ ، إن المنظومة الشفهية للعربية التونسية تُبنى أساساً ،
إنطلاقاً من متضادين ، أحدهما تضاد الصيغ : أمرية ~ غير

(15) Salah GARMADI , « Quelques faits de contact franco-arabe en Tunisie » , CERES, Université de Tunis, 1966, 56 p.

(16) Juliette GARMADI- Le CLOÏREC, le français parlé en Tunisie.

امرية ، وثانيهما تضاد الصّور : كاملة ~ غير كاملة (ناقصة) . في كل تركيب تعبيرى شفهي غير امرى ، يتوجب على المتكلم أن يشير إلى أنه يعتبر الإجراء أو الحالة المدلول عليها بالمعجزة الشفهية (صورة كاملة) إجراءً كاملاً ، أو بخلاف ذلك ، الى انه لا يأخذ في الاعتبار اكتمال أو عدم اكتمال الحالة أو الاجراء المدلولي (الناقص) . وعندما تعطى إشارة الزّمان ، تظلّ خارجيّة بالنسبة الى التركيب التعبيري الشفهي ، وهي غير مّعدة ، ويتعيّن عليها أن تستعين في اغلب الأحيان ، بالمصادر المعجمية .

إذن ، لا مناصّ من أن نرتقب من المتكلم الناطق بالعربية ، أن يواجه في خطابه الفرنسى ، وبالدرجة الاولى ، صعوبات التلفظ بالمتضادات القائمة بين الصيغ اللفظية (الشفهية) غير الامرية : الصيغة الدلالية ، صيغة نصب الفعل (Subjonctif) أو الصيغة الشرطية . كذلك لا بد لتضادات الأزمنة أن تطرح عدداً معيناً من المشاكل ، ففي ملفوظات مثل :

Au moment où on m'a enseigné le français, ça existera;

أو أيضاً :

On travaillait le matin au collège, et le soir, on le passe à l'atelier.

يفرض ذو اللغتين محتوى صورياً كاملاً على صيغ الماضي ، وعندئذ يكون الناقص مدلولاً عليه بصيغ المستقبل والحاضر . وبالتالي ، فإن الاتجاه إلى استعمال المصادر الخارجة عن التراكيب التعبيرية الشفهية للدلالة على الزمن ، يكون واقعياً :

à mon époque (passé) on nous enseigne (inaccompli) le français; y avait (passé) la garde nationale elle empêche (inaccompli) les curieux, etc.

في المنظومة العربية يكفي التضاد بين صور الناقص والتّام ، في الظاهر ، لإقامة رباط إلحاقى ، بواسطة بناء حذفى بسيط ،

وعندئذٍ بالذات يظهرُ نصحٌ نصويٌّ فارضاً نفسه على ملفوظات
فرنسية ، مثل :

Je sais pas (si?) ils l'ont entré chez lui; j'ai vu (que) ça parle tou-
jours des inondations...

وعندها لا بد من الاستنتاج ، في ملفوظات مماثلة ، إن التوسع
بالإلحاق يتراجع في الواقع أمام التوسع بتراكب بصيغ ، وهذا الأمر
يظهر أيضاً في ملفوظات مثل :

ils veulent ils arrachent

(Ils veulent arracher)

on va on devient

(on va devenir)

Je l'ai mangé je me suis pas aperçu

(Je l'ai mangé sans m'en apercevoir), etc.

عندما يتوحد التداخل المعجمي والتداخل القواعدي والتداخل
الصواتي في الخطاب الفرنسي لمتكلم عربي ذي لغتين ، يشخص
الفرنسي ذو اللغة الواحدة ، وغير المتخصص ، ما يسميه لهجة
شمالية أفريقية قوية ، هناك حيث يمكن للسانيين واللسانيين
الاجتماعيين أن يشخصوا لوناً من فرنسية لا تختلف في الواقع
مزاياها وأصلها ، من حيث الطبيعة ، عن مزايا وأصل اللهجات
الإقليمية الفرنسية ، خصوصاً تلك اللهجات ذوات المواقع اللغوية
المتصلة مع لهجة محلية ، مثلاً.

وحتى إذا استطلاع التداخل اللغوي أن يكون ، في بعض
الحالات ، خاضعاً ، طوعياً وبفعالية نسبية ، لرقابة المتكلمين ، فإنه
يظهر كأنه محتوم تقريباً في مواقع إتصال اللغات . وعندما يتهياً
الوضع اللساني الاجتماعي لانتقالات رفيعة الوتيرة من لغة إلى
أخرى ، أو أيضاً عندما يفرض ذلك ، فإن هذا الوضع يمكنه التوصل
في مدى طويل نسبياً ، إلى إحلال الاستعمال المألوف للغة ما ، محل
الاستعمال المألوف للغة أخرى ، دون المرور بمرحلة انتقالية.

ولكن ، بنتيجة الاتصال الوثيق والانتقالات المتتالية من لغة الى أخرى ، يمكن للتداخل أن يتخذ نسباً كافية لكي لا يبقى في خطاب ذوي اللغتين جملة واحدة تامة ، ولا حتى مقطع من قول ملفوظ ، مهما يكن قصيراً ، وقابلاً للعزو إلى واحدة من اللغتين القائمتين . إن التفريق بين اللغات ينهار ، ويغدو عندئذ من الممكن تصور نتيجة التداخل في صورة الإبدال المتدرج لمنظومة من أخرى .

اللغات المزيج (Sablrs) واللغات المولدة (Créols)

IV/ ٣٩ - مثل لغة مزيج : الطاي بوا

يمكن لمقومات وضع لغوي ثنائي ، لسانية / اجتماعية ، أن تحضّر لانتهيار التفريق بين اللغات المتصلة، ولالإبدال التدريجي لمنظومة من أخرى ، دون أن تجتمع مع ذلك الشروط الخاصة بظهور لغة مزيج ونموها . في المقابل ، يُقدّر بوجه عام أن وضعاً مماثلاً يفضي ، بعد حقبة طويلة نسبياً من التداخل اللغوي المُرتجل (المصطلح لكعب، Introduction, p.22) ، إلى استتباب الأحديّة اللغوية لصالح اللغة التي تتكلمها الجماعات الاجتماعية المهيمنة ، تلك اللغة التي تملك لوناً مطبوعاً ومقعداً .

في الواقع ، جرى وضع نظريّات شتى عندما وُصفت الوقائع اللسانية وشروط ظهور اللغات المزيج ونموها (وكذلك وقائع اللغات المولدة التي تحوّلت إليها بعض اللغات المزيج) . وسيكون عرض شتى المقاربات والنظريّات هذه ، ميسوراً أكثر ، إذا حوت الإحاطة

أولاً بوصف لغة مزيج . هنا ستكون الطاي بوا (Tây bô) هي المثال المختار .

منذ ١٨٨٨ كان هيوغو شوشلر (Hugo Schuchart) يشير الى وجود الطاي بوا ، مدلولاً عليه باسم الرُّطانة الفرنسية - الأنامية (Jar-gon franco - annamite) . ومنذ ١٨٦٠ كانت هذه اللغة المزيج تُستعمل بين مستعمرين فرنسيين وبخّارة ، وخدم أو تجّار في ما كان يسمّى آنذاك بالكوشينشين (Cochinchine) (*) . تبدو الطاي بوا كأنّها خارجة من الحاميات الفرنسيّة ذاتها حيث كانت تستعمل بين الرتباء أو الجنود الفرنسيين والمساعدين المطوعين محلياً . وكانت ، الطاي بوا ذات استعمال رائج حتى العام ١٩٥٤ في مصالح الجيش الفرنسي ، وحتى العام ١٩٦٠ ، في كل مكان يوجد فيه تمركز كافٍ من المتكلمين الفرنسيين ، بالأخص في Hué وسايغون . لكن رحيل الفرنسيين الذين سرعان ما استبدلوا بالعديد العسكري الأميركي ، أدى تقريباً إلى انطفاء كلي للطاي بوا . في مقال منشور سنة ١٩٧١ ، يلاحظ جون (. راينك John E. Reinecke, Pidgin French, p.47-56) أنّه لم يجد في ذلك الحين مخبرين لا زالوا يتكلمون اللغة المزيج . مما اضطره الى الاستعانة فقط بذاكرة مخبرين مسنّين لكي يضع مدوّنته . مهما يكن الأمر ، كانت الطاي بوا قد تأصّلت بقوة ، وذاعت بشكل كافٍ واستقرت في فترة من تاريخها - مع الكتابة الفيتنامية الإملائية - حتى استعملت في الرسوم المتحركة لبعض الصحف المحليّة .

(*) Coe chin + chine للقسم الجنوبي من الفيتنام ، مستعمرة فرنسية قديمة . استقلت سنة ١٩٤٦ والحقت بالفيتنام سنة ١٩٤٨ (المترجم) .

IV/ ٤٠ - صوارة الطاي بوا وعلم أصواتها

يوضح راينك (Pidgin French, p.48) ان اللغة المزيج التي يتكلمها المستعمرون كانت تبتعد قليلاً عن عادات الفرنسية النطقية . وفي المقابل ، كان يُكتشف فيها معظم العادات التي تتضمنها المنظومة الفيتنامية عندما كان يستعملها سكان البلاد . وهكذا كان يمكن ان يلاحظ فيها ، مثلاً ، ظهور خمس طبقات صوتية (لهجات) من السايغونية ، حتى وإن كانت هذه الطبقات قد فقدت كل قيمة صوتية . والمجموعات الصوامتية في كل الأوضاع ، كانت مخفوضاً فيها إلى صامت واحد [bi.ət] → [piastre] او موزعة على مختلف المقاطع [ap.tyw] → [apte] الخ . فإلى أي حد يمكن عندئذ الكلام على صوتية وعمل أصوات خاصين باللغة المزيج ؟

IV/ ٤١ - معجم الطاي بوا ونحوها

يمتاز معجم هذه اللغة المزيج ، جوهرياً ، بأمرين : فهو مؤلف بنسبة أكثر ٩٠٪ من وحدات مُقترضة من الفرنسية ؛ وهو ، فوق ذلك ، محدود جداً ، إن دألاً مقترضاً يشمل غالباً مدلولات فرنسية شتى

[bov] تعني جلد peau كما تعني قشرة écorce :

[mən.ʒet] تعني أكل manger كما تعني عض mordre :

[pas bon] تعني سيء mauvais كما تعني متلوم émoussé (للآلة) .

الخ .

وكثيرة هي التوريات = comme ballon [Kym.ba.Ləvnm]

enfler] (Reinecke, Pidgin French, p. 50).

اما فيما يفتنم بالنحو ، فهناك ملاحظة تبدو ذات دلالة بوجه

خاص (المرجع السابق ، ص ٤٨) : إن المعلمين الفرنسيين يستطيعون عمداً الأشكال والنحو ويستعملون مقاطع من الفيتنامية حين يتكلمون مع خدمهم . ومما لا شك فيه أن المنظرين الذين يتحدثون عن لا قواعدية اللغات المزيج ، سيرون في ملاحظة راينك فاتحة وصف نحوي للطاي بوا . وبالإجمال ، يبدو أن كل بقية مقال راينك تسير في هذا الاتجاه ، وتبرهن ، على الأقل ، على أن نحو الطاي بوا يفتقر إلى عدد كبير من السمات أو التعارضات التي تكوّن القواعد الفرنسية : أسماء بلا تعريف ، أنواع غير مميزة ، عدد يدل عليه السياق ، صفات غير قابلة للتبدل ، أفعال أيضاً غير قابلة للتبدل ، كل الأشكال الفعلية مخفوضة إلى ما يمكن أن يكون عليه مصدر التصريف الأول .

: *bouver	= [bvɔ.wei]	boir	(مثل ذلك
، *cuiser	= [kwi.set]	cuire	
. الخ) ، *vouler	= [vwɔ.kɔʁ]	vouloir	

أما الأزمنة والصور فيقدمها السياق الذي تكوّن به بعض الظروف النادرة أو التوسعات الطرفية ، مثلاً : hier = jour avant ، الخ . (Reinecke, Pidgin French, p.51-52) ، أليكم بعض العبارات التي أوردها المؤلف :

- Moi bouver thé jour avant (j'ai pris le thé hier);
 - Moyen manger (Vous pouvez / tu peux manger);
 - (ou le dîner est servi)
 - Moi pas beaucoup vieux avec toi (je suis plus jeune que toi/ vous);
 - Moi question lui venir café (je vais lui demander s'il vient au café)
- التي تعطي صوتياً (كما يلاحظ راينك : Pidgin French, p.52) :
- [mɔ ke (t) sʌ ʋɔʁm lɪ wɔw ni a kafɛ]

IV/٤٢ - العدوى

إن العنظومات التي تسمى اليوم لغات مزيج^(١٧) (وأحياناً تسمى pidgins لغة مشوَّمة) جرى غالباً التقليل عليها ككلمات مصابة بالعدوى، ككلمات مختلفة، ككلمات متمازجة، وهذا ما تبدو الطائي بوا مسوَّغة له.

بهذه التسميات كان يُشدد على ما كان يُقدَّر أنه أصل اللغات المزيج وسمتها المحددة أيضاً. وبالتالي فإنَّ البيئة الأولى هي أنَّ اللغات المزيج لم توجد ولم تتطور إلا في أوضاع لغات متصلة، وإنَّ المحتم حينئذٍ أن تكون أو أنها كانت خاضعة (مثل كل اللغات الاتصالية الأخرى) للتداخل اللغوي. إنَّ الضغط الثابت للتداخل يفرض على اللغة المزيج تبدلاتٍ سريعةً جداً في بعض الأحيان، ومن البيِّن أنَّ بُناها غير متألَّفة ولا مستقرَّة. وكوَّنُ صواتتها وعلم اصواتها وقواعدها ومعجميتها أتية من مصادر مختلفة، لا يمكنه أن يكون السمة المحددة للغة المزيج. ففي الواقع، كل لغة كانت أو هي في وضع اتصالي، مهما تكن شروط هذا الاتصال، هي لغة مصابة بالعدوى، تمازجية ومختلطة. لا يُحكى عن لغة مزيج بسدد الانكليزية المطبَّعة اليوم، حتى وإن لم تكن سوى نتيجة إصابتها منظومة جرمانية بعدوى منظورة رومانية. والفرنسية الرَّاهنة يمكنها، إلى حدٍ معيَّن، أن تُعتبر لغةً مصابةً بالعدوى، ويمكن اعتبار الفرنسية / الانكليزية (Le français) واقعاً وحقيقة.

(١٧) في بادئ الأمر، كانت مفردة Sabir، مثل مفردة Lingua franca، تدلُّ على واقع لساني ملحوظ حول البحر المتوسط، منذ نهاية القرن الثالث عشر.

IV/٤٣ - الخفض ، التبسيط ، الإفكار

عندما تُوصف اللغة المزيج بأنها محكي أدنى أو لغة حيلة ، انما ننهاز إلى جانب النظريات التي تحدّد اللغة المزيج بوصفها خفضاً ، تبسيطاً أو أيضاً إفكاراً للغة أو لعدّة لغات اخرى . ومرة اخرى ، وللوهلة الاولى ، فإنّ ما نعلمه عن الطاي بوا يبدو مبرراً للتسميات التي لا يمكن استعمالها هكذا بلا حصر أو تقييد .

وحيث قارن ويليام ج . ساماران (Lingua franca, p.668) اللغة المزيج (Sango) بالغة (Ngbandi) التي زوّدها ببعض هذه المكونات ، برهن على أنّ من غير المسوّغ تصوّر منظومة الاولى كأنها الخفض التبسيطي الوحيد لمنظومة الثانية . مثلاً ، تملك صوائتُ اللغة Ngbandi منظومة صوتيّة ذات ثلاثة وحدات ملائمة ، منظومة صوتيّة تستفيد منها كثيراً منظومة الاشكال النحويّة للغة (ضمائر ، أشكال وازمنة الافعال ، تسمية لافعلية ، الخ .) ، والسانغو ، من جهتها ، لا تستعمل دائماً الاصوات الخاصة بها كوحدة ملائمة ، فيترتب على ذلك تنظيم لأشكالها القواعديّة بحيث يمكنها في الواقع ، وبالمقارنة ، أنّ تظهر ذات بساطة كبيرة بالنسبة إلى منظومة نغباندية . ولكن ، في عمل السانغو ، تتلقى صورة أو زمن (صيغ فعلية مفعّدة في النغباندية) دالاً تلميحياً ، وهكذا يتم استعمال الموارد المعجميّة والنحويّة التي يمكن اعتبارها معوّضة عن بساطة منظومة كليّات السانغو . وإذا جرى الكلام على خفض أو إفكار الاشكال القواعديّة ، فسوف يتعيّن عندئذ الكلام على توسع في مستويات أخرى من اللغة .

هل من المناسب الكلام ، فقط ، على خفض وتبسيط وإفكار عندما تكون اللغة المزيج (أو لغة مزيج قديمة استحالّت لغة مؤدّة) المستندة إلى أساس فرنسي أو برتغالي ، مؤسّسة لمنظومتها

اللفظية والفعلية على تعارضات صورية / مفهومية ، في حين أن الفرنسية والبرتغالية أعطتا ، ككتاهما ، الأوليّة لتعارضات الأزمنة ؟ وأين يمكن حينئذ أن يكون التبسيط والإفكار؟ والحال ، فإن كثيراً من اللغات المزيج والمولدة تملك ، على هذا النحو ، تعارضات فعلية / صورية ، خصوصاً بين لغات الأطلسي . يبدو أنه من اللازم أن نرى في ذلك أكثر من خفض أو تبسيط ، ويتعين أن نرى فيه واحداً من الإسهامات المهمة للغات الإفريقية في صوغ اللغات المزيج والمولدة ، وسبباً من الأسباب التوحيدية المنسوبة غالباً إلى المساهمة الإفريقية في تكوين اللغات المزيج والمولدة .

IV / ٤٤ - حقائق اللغات المزيج والأحكام القيمة

جرى التدليل ، غالباً ، على اللغات المزيج (وعلى اللغات المولدة ، أحياناً) كأنها عاميات ، لهجات خاصة ، بطانات ، زنجيات صغيرات ، الخ . وفي الحقيقة ، إن المصطلح الخافض للقيمة أحياناً لا يترجم أي شيء آخر سوى التردد في الاعتراف بهذه الحقائق اللغوية كما هي . وإن السؤال الذي تمّ تجاوزه اليوم جزئياً ، قد طرح مراراً وتكراراً : هل كانت اللغات المزيج لغات أم لا ؟ في عداد الباحثين أنفسهم ، كانوا تلامذتين أولئك الذين لفتوا الانتباه إلى كون اللغات المزيج ذوات استعمال شائع جداً ، وإلى أنها كانت تستعمل في الإبلاغ بنجاح تام ، والحال ، إذا كان ثمة لغة منذ أن يتمّ الإبلاغ في إطار نطق مزدوج من الطراز الصوتي ، (Martinet, langue et fonction, p.147) فعندئذ يبدو من الصعوبة بمكان حرمان اللغات المزيج من مركز المنظومات اللغوية ، وذلك على الرغم من عدم استقرار بنائها وعدم تكلفها .

وحتى اليوم لاتزال مفردة pidgin ، مرادفة لمفردة Sabir ، فهي مشتقة من الانكليزية Business ، وعندما يدل على اللغات المزيج

بوصفها لغات تجارية ولغات علاقات شعبية ، إنما تَبَرَّزَ وتُمَيَّزَ أولى تصنعاتها الوظيفية ، نعني التصنع الذي يجعلها لغة تداولية شعبية بين مجموعات اجتماعية لا تجمعها من جهة ثانية أية وسيلة إبلاغ لغوي أخرى . وهذا لا يمكنه أن يفيد في تعريف اللغات المزيج إلا إذا أضفنا القول إنها ليست اللغة الأولى المكتسبة من طرف أي من متكلميها ، وإنما لا تفيد أحداً بوصفها لغة الحياة العائلية الحميمة . فما من أحد ينصّب نفسه مدافعاً عن لغة مزيج ، حتى وإن كانت مستعملة بشكل مألوف ؛ وما من أحد يكرُّ لها شعورَ الولاء الذي يكرُّه غالباً تجاه لغة تسمى اللغة الأم . وما من أحدٍ يحاول تدوينها وقوننتها ، ولا حتى تطبيعها ؛ ولا يهتم أحدٌ بإمكاناتها المستقبلية .

إن اللغات المزيج ، لغاتٌ مكملة ، ذات استعمال شفهي محض بالنسبة إلى جماعات اجتماعية محرومة وأمية في معظم الأحيان ، لم توجد أبداً إلا في الأوضاع الاتصالية حيث يفرض عليها ضغطُ التداخل المتواصل تغيراتٍ لغوية سريعة في كل لحظة . وكل هذا يجعل أن أفضل مميِّزٍ للغة مزيج هو عدم الاستقرار الدائم في بُناها ، وافتقارها إلى الاستقلال عن اللغات الاتصالية الأخرى ؛ عدم الاستقرار والافتقار إلى الاستقلال اللذان تمكَّنت من إخفائهما التوصيفات التساوقية للغات المزيج .

IV / ٤٥ - تعدد انساب اللغات المزيج والمولدة

إن لعبة المواقف اللغوية المتباينة التي تستثيرها اللغات المزيج ليست بوجه الاحتمال غريبةً عن عدم اكتشاف الباحثين أنفسهم، المعلن منذ أمد طويل تجاه هذه المنظومات. وبالتالي منذ نصف قرن فقط ، بدأ الانكبابُ على النَّظَرِ في وقائعها اللغوية المراهنة ، وعلى وصفها ، وفهم الشروط التاريخية والاجتماعية لتطورها ونموها أيضاً.

بالنسبة الى نظرية تعدد الأنساب ، استطاعت اللغات المزيج أن تظهر وأن تنمو مستقلة عن بعضها ، بوصفها اجوبة عن اوضاع لغوية اتصالية مختلفة . كانت نظرية Baby talk واحدة من أولى نظريات تعدد الانساب : فكان المعلمون والزراعون أو التجار يستعملون في التخاطب مع خدامهم وعبيدهم أو زبائنهم ، نوعاً من الخطاب الطفلي قوامه بتزلفتهم وتبسيطها المقصود ، رغم انها لغة مطبوعة(*) . لقد طور بلومفيلد هذه النظرية حين جعل من المسار سلسلة محاكاة ارتجاعية (Série récurrente d'imitations) : إن متكلم اللغة المطبوعة يقلد ، بسخرية أو بهاجس الفعالية ، نتيجة الجهود الضائعة التي يبذلها مخاطبه لاستعمال هذه اللغة المقولبة : ثم ان هذه المحاكاة ذاتها ستكون النموذج المستعمل مجدداً من قبل المحاور، الخ. بالنسبة إلى Robert A. Hall Jr. ، هناك توليد فطري للغات المزيج ، في بضع ساعات أحياناً ، كلما وأينما دعت الحاجة : بين بائع وزبونه ، بين سائق ومرشده ، بين رئيس ومروسته ، بين رب عمل ومخدومه ، الخ . وتتحدد اللغة المزيج الى حد معين عندما يجري استعمالها ، تالياً ، من قبل متكلمين آخرين . وسوف تغدو لغة مولدة (Créole) حين تصبح اللغة الأولى المكتسبة من قبل جماعة متكلمين ، ويمكنها أن تظل في ما بعد لغتهم الوحيدة (Hall Jr. Pid-gins, p.151- 156) ، هكذا ، يقدم هال أوضح تعريف للغة المولدة ذاتها ، ويضيف ان اللغة المزيج السابقة ، حين تغدو لغة مولدة ، سيكون في إمكانها أن تتطور تماماً الى لغة سوية ، في ما بعد . وكان هارفيغنه قد أوضح (Eléments, p.156) : إن اللغات المولدة هي ، تساوقياً ، كل شيء آخر (غير اللغات المزيج) ، لأنها تحكى على

(*) ان هذا البتر وهذا التبسيط الارتجاليين هما اللذان كان المتكلمون يحاولون في ما بعد معاودة انتاجهما في استعمالهم الخاص .

لسان جماعات متماسكة من المتكلمين ، مع استبعاد كل لسان قومي
آخر ، في كل ظروف الحياة .

إن نظرية تعدد الأنساب تحيط تماماً ، عند هذا المستوى من
صياغتها ، بالتكوّن والنمو السريعين للغات المزيج (ومن ضمنها
اللغات المتنوعة المواقع كثيراً من الوجهة الجغرافية) . وبالتالي ،
تكوّن بعض منها في غضون الخمسة والعشرين عاماً التي يمثلها
جيل : الفاناغالو (Fanagalo) حول جوهانسبرغ ، اعتباراً من ١٨٦٠
تقريباً ؛ الهيدغن (Pidgin) في هاواي ، انطلاقاً من ١٨٧٦ ؛ الشينوك
(Chinook) الممارسة اعتباراً من ١٨٠٠ بين مختلف الأمم الهندية
على الساحل الشمالي للمحيط الهادئ ، وبين الهنود في علاقاتهم
مع الصائدين ذوي اللغة الانكليزية والفرنسية ؛ والروسنورسكية
(Russenorsk) الممارسة في مطلع القرن العشرين بين الصائدين
الروس والنرويجيين على سواحل المحيط الاركتيكي (Arctique) ،
(والتي وصفها أولاف بروك - Broch, Russenorsk, Archiv für Slavische Philologie, 41, 1927, p.209- 262)

كما تكوّنت لغات مزيج تكوّن أسرع ، وتلاشت بسرعة كبيرة
ايضاً ، كما حدث للغة المزيج الممارسة في المعسكرات الالمانية
طيلة حرب ١٩٢٩ - ١٩٤٥ ، والمتلاشية مع نهاية النزاع .

وتحيط نظرية تعدد الأنساب ، في سهولة ايضاً ، بالتماثلات
الملحوظة بين تلك اللغات المزيج والمولدة التي تشترك في اشتقاقها
من الإنكليزية ، وهي تحيط بالتشابهات القائمة بين لغات مزيج
ومولدة تجمعها الفرنسية كمكوّن مشترك ، أو بين لغات مشتقة من
الاسبانية أو تلك المشتقة من الهولندية ، الخ .

IV/٤٦- وحدة النسب

وبعد ذلك تكاثرت الدراسات التي تصف اللغات المزيج

والمولدة وتقارن بينها . وأول ما لوحظ فيها ان كثيراً من اللغات المزيج والمولدة المعشقة اليوم في عداد اللغات ذات الأساس الانكليزي ، الاسباني ، الهولندي أو الفرنسي ، كانت قد احتفظت في معجميتها بعدد كبير من وحدات مصدرها البرتغالية . كما لوحظ أيضاً التفاهم المتبادل الممكن بين متكلمي اللغات الفرنسية المولدة في الباسيفيكي ومتكلمي اللغات الفرنسية المولدة في الأطلسي مثلاً . وكانت التماثلات البنيوية واضحة بين هذه اللغات المولدة . ولم يلحظ فقط التشابه النمطي بين لغات فرنسية مزيج ومولدة ، بل لوحظ أيضاً التشابه بينها وبين اللغات المزيج والمولدة المشتقة من الانكليزية والاسبانية الخ . تبدو هذه التشابهات بالغة الأهمية في نظر بعض الباحثين^(١٨) لدرجة أنها لا تكون إلا نتيجة للارتجال اللغوي التداخلي الأولي وحده ، الارتجال الذي تتصفه النظرية القائلة بتعدد الأنساب أو الأصول ، وعندئذ وضعت نظرية النسب الواحد للغات المزيج والمولدة .

في نظر القائلين بهذه النظرية ، صحيح ان اللغات المزيج كانت حلولاً لأوضاع اتصالية بالغة التنوع ، لكن هذه الحلول لها أصل مشترك ، على الأقل كلما تكون أو كلما كانت إحدى اللغات الاتصالية لغةً مسلطة اوروبية امبريالية (Grimshaw, Social forces, p.430). غير أن ملاحظة غريمشولو لا تنتزع شيئاً من شجاعة الفرضية القائلة بوحدة النسب أو الأصل . إنما توضح فقط حدود نظرية قائمة على ظاهرة تاريخية (ظاهرة الامبريالية البرتغالية

(18) - These similarities are too great for coincidence: elimination of inflections for number in nouns and for gender and case in pronouns, identity of adverb and adjective, use of iteration for intensification of adverb-adjectives, development of compound preposition using the Portuguese na and de, use of verbal aspects marked by syntactic particles rather than true tenses, etc. - (Decamp, Introduction, p.21).

وخلفائها ، وصادرة عن رؤية سوسيوولوجية بنوع خاص ، للوقائع التي هي اللغات المزيج والمولدة .

إن تشتت اللغات المزيج والمولدة عبر العالم بأسره استطاع وحده أن ينسينا أحياناً واقع أن معظم هذه المنظومات تملك تركيباً هندياً/ أوروبياً : برتغالياً ، انكليزياً ، هولندياً ، فرنسياً ، إسبانياً ... وحتى أن تموضع اللغات المزيج والمولدة هو معطى ذو دلالة لأنها تقع جميعها بالقرب من طرق الملاحة البحرية الكبرى ، ولأنه يتعين تماماً ، عندئذٍ ، أن تُقام علاقة بين وجود هذه المنظومات وتاريخها وبين وجود الرحلات المحيطية وتاريخها (Samarin, Lingua francas, p.667) . وحسب نظرية وحدة النسب يمكن لمختلف اللغات المزيج والمولدة المعروفة اليوم أن تكون ممثلة للغة مزيج أولى (Pro-Sabir) ذات أسس برتغالي ، تطوّرت اعتباراً من القرن الخامس عشر ، منذ الاتصالات الأولى مع إفريقيا ، ثم ربما تكون قد انتشرت حتى مرفئ الشرق الأقصى . ففي كانتون ، في مطلع القرن الثامن عشر ، كانت التجارة الانكليزية لا تزال تجري بواسطة مترجمين أوروبيين - آسيويين برتغاليين ، كانوا يترجمون الصينية إلى لغة برتغالية مزيج كان يفهمها البحارة الإنكليز.

وتذهب نظرية وحدة أصل منظومات اللغات المزيج والمولدة الى أبعد من ذلك أيضاً ، فتجعل البرتغالية الأولى ذاتها مشتقة من لغة وسيطية مزيج ، هي اللغة الفرنكية المتوسطية . فهذه اللغة المزيج المستعملة من القرن الثالث عشر كانت أولاً لغة علاقات شعبية تستفيد منها أرمهاط الصليبيين ، ولكنها استعملت أيضاً كلفة دبلوماسية شفوية في ما بعد ، وعاشت حتى نهاية القرن التاسع عشر ، في أشكال كانت تتراوح فيها المساهمات الرومانية (البروفنسالية ، الايطالية ، الكاتالانية ...) وغير الرومانية (المالطية ، العربية ...) ، (Pérégó, Sabirs, p.597- 667).

وإذا كان البرتغاليون هم المعلمين الأبطال لعصر الاكتشافات العظمى ، فقد كانوا أيضاً في عداد الأوائل الذين حاولوا إقامة مكاتب صرافة (Comptoirs) وامبراطوريات استعمارية وتعمقوا من إظهار أنفسهم نخاسين منظمين وفعالين نسبياً . إذن دخلت لغتهم واللغة المزيج الأولى التي كانوا يتداولونها ، مجال الاتصال والاحتكاك باللغات الأكثر تنوعاً والأكثر توزعاً في الأماكن ، وذلك في نطاق علاقات اجتماعية دقيقة تماماً . فمن القارة الأميركية إلى جزر الباسيفيكي ، مروراً بأفريقيا والهند والصين ، كانت اللغات المزيج والمولدة حيث يسود العنصر البرتغالي قد شهدت أو لا زالت تشهد وجود هذه الاتصالات بين اللغات .

إن نظرية النسب الواحد ، القائمة على وجود وتاريخ عدّة لغات برتغالية مزيج ومولدة ، قد انكبت بعد ذلك على تبيان كيف أمكن الانتقال من هذه المنظومات إلى اللغات المزيج والمولدة التي لم تعد لعلاقتها بالبرتغالية واللغة المزيج البرتغالية الأولى أي شيء واضح من حيث التساوق والتزامن .

IV/٤٧- تجديد البناء المعجمي

إن فرضية تجديد البناء المعجمي للغات المزيج والمولدة ، المطروحة في مطلع الستينات (١٩٦٠) ، إنما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظرية وحدة أصل هذه المنظومات . إن إبدال جزء من معجم لغة مزيج ممكن دائماً ، بواسطة اتصال مع لغة جديدة ، وإن تجديداً جزئياً للبناء المعجمي يمكنه دائماً أن يسبق التوليد اللغوي (Gréolisation) .

مع ذلك ، يُفترض أن في اللحظة التي تتولد فيها اللغة المزيج وتصبح اللغة المكتسبة الأولى لجماعة من المتكلمين كبيرة نسبياً ،

تفيد الى بعد حدٍ من مساهمة معجم اللغات المختلفة التي تكون عندئذٍ على اتصال بها . وبالتالي ، فإن اللغة المزيج ، إذ تغدو لغة الجماعة الأولى ، يتوجب عليها أن تلبي عندئذٍ جميع حاجات الحياة اليومية الإبلاغية ، ويتعين عليها بالنتيجة أن ترفع الاحتياطي المعجمي الذي تستلزمه هذه العملية التوليدية . وغالباً ما تكون لغة الجماعة الاجتماعية المهيمنة في الوضع الاتصالي هي اللغة التي تقترض منها اللغة المزيج كثيراً من قروضها المعجمية . إن هذا الوضع المعجمي^(١٩) للغة المزيج السائرة على طريق التوليد اللغوي يمكنه أن يصل إلى حد التجديد الكامل لبنائه المعجمي ، أي إلى حد إبدال كل مخزونه المعجمي أو معظمه ، بما فيه النواة التي جرت العادة على تسميتها بالمصطلح الأساسي ، وعندئذٍ لن يبقى من المرحل التي سبقت تجديد البناء المعجمي ، سوى البنية القواعدية للغة المزيج ، وربما عدد من الوحدات المعجمية محدود نسبياً .

ساد الاعتقاد أولاً أن تجديد البناء المعجمي للغات المزيج - المشتقة من لغة مزيج برتغالية أولى ، حسب نظرية وحدة النسب - كان معقولاً وميسوراً بقدر ما كانت اللغة الرومانية هي المصدر للمعجمية الجديدة . وبكل طيبة خاطر ، كانت تذكر حالة مجموعة اللغات الفيليبينية المولدة، فهذه اللغات المولدة تصنف اليوم في عداد اللغات الإسبانية المولدة نظراً لقاعدتها المعجمية (حيث يوجد الى جانب ذلك وحدات أتية من التاغالوغ Tagalog ومن لغات محلية أخرى) . وقد تكون هذه المنظومات قد وضعت في الموليك ، خارج الأرخبيل الفيليبيني ، طيلة النصف الأول من القرن السابع عشر ،

(١٩) يستعمل أحياناً مصطلح Supralexication عندما لا يتعلّق الأمر إلا بوضع معجمي ، ويحتفظ بمصطلح Relexification لإبدال المعجم القديم ذاته إبدالاً كلياً أو شبه كلي .

عندما دخل جنود مكسيكيون ، إذن ذورلغة إسبانية ، في اتصال مع متحد موليكوي (Moluques) كان يمارس لغة برتغالية . وكانت تذكر أيضاً أمثلة لغات مولدة مثل لغات غويانا والبرينينيون التي لم يكن العنصر البرتغالي قد زال عنها وأحى تماماً بفعل تجديد بناء معجمي كان قد استقل من المنظومة الفرنسية.

ولكن الواضح تماماً هو أن تجديد البناء المعجمي للغة البرتغالية المولدة الأولى ، لم يتم دائماً إنطلاقاً من لغات رومانية . فقد قدمت الصينية ، الانكليزية ، الهولندية ، الزولو أو البانتو ... مصطلحاتها للغات مزيج ومولدة ، لم يعد العنصر المعجمي من أصل برتغالي إلا عنصراً زهيداً فيها اليوم . إن تعدد المصادر المعجمية للغة مزيج أو مولدة يمكنه أن يكون كبيراً جداً . ومثال ذلك بعض الألوان من اللغة المولدة في السورينام^(٢٠) التي تلت من الانكليزية كمية معجمية كبيرة، مع حفاظها على ما يقارب الثلث من المصطلح البرتغالي ، الذي تنضاف إليه وحدات معجمية من أصل هولندي وإفريقي . وفي لغة البليامنتو (Papiamentou) في كوراسوا ، تنضاف وحدات معجمية من أصل هولندي إلى مجموعة وحدات معجمية أتية من الاسبانية ، الخ .

٤٨/IV - تجديد البناء النحوي

إذن في نظر نظرية النسب الواحد وكذلك في رأي نظرية تعدد

(٢٠) من بين هذه اللغات المولدة ، فنشر إلى الغائبة التي تمثلها ، بشكل خاص من الوجهة الصوتية ، الساراماكان (Saramaccan) حيث تركت بصماتها المنظومة الصوتية للغات إفريقية - مثل الـ Kikóngo وربما الـ Bantou . ومن وجهة مختلفة ، تدعي الإشارة أيضاً إلى أن أحد هذه الألوان المولدة في السورينام . Le Djukol . فريد من حيث تطويره منظومة كتابة مقاطعية ، على غرار بعض لغات إفريقيا الغربية .

الأنساب ، اللغة المولدة هي لغة مزيج سابقة ، استحال لغتها أولى اكتسبتها جماعة من متكلمين ، وتمكنت لاحقاً من أن تظل لغتهم الوحيدة . مع ذلك طرح السؤال عما إذا كانت جميع اللغات المولدة قد عرفت ، حتماً ، المرحلة الأولى من اللغات المزيج (Pidgins) ، وعما إذا كانت هذه هي نقطة الانطلاق الوحيدة الممكنة لتطورها .

على هذا السؤال تحاول أن تردّ الدراسة التي أجراها غومبيرز وويلسون^(٢١) حول وضع كوهوار اللغوي التعددي (Convergences) (p.151- 157) فعندما انقضا من وصف المتغيرات اللغوية الظاهرة في الألوان المحكية من الأورو ، الكنادا والمراثي المتصلة منذ قرون في متحدث كوهوار القروي ، برهن المؤلفان على عدم وجود أي من هذه التغيرات التي تتضمن فقط إثنين من الألوان الثلاثة القائمة . مع استثناء اللون الثالث . فكل هذه التغيرات هي ملتقيات تتضمن الألوان الثلاثة بوصفها مجتمعة ، سواء اجتذبت لوناً إلى اللونين الآخرين ، أم اجتذبت لونين إلى الثالث ؛ ويمكن تفسير جميع هذه التغيرات بوصفها تخفيضات أو تعميمات تبسيطية تتوافق مع حاجة إلى التكيف المتبادل بين المستمعين داخل القرية . وعندئذ تكون النتيجة الأوضح هي أن هذه التغيرات تفضي إلى ظهور ثلاثة ألوان محلية متوازية تتشابه مع اللغات المولدة (Creole-like varieties) في أنها ، بعد عدة قرون من الاتصال ولكن دون المرور بمرحلة اللغات المزيج ، تظهر وتعلن مسارات خفض وتلاقٍ خاصة باللغات المزيج والمولدة . ونجد فيها ، كما نجد في اللغات المزيج والمولدة ، بنية قواعدية ومعجماً قادمين من مصادر مختلفة ، بحيث إن الكلمات القادمة من لغة تستعمل فيها مع قواعد لغة أخرى ، الخ .

إن ما يميّز جوهرياً الألوان المحكية في كوهوار من اللغات

(٢١) راجع هنا IV/١٢ وما بعده .

المولدة ، هو كونها لم تنطلق من لغة مزيج ، وانها لم تمر في مرحلة عدم الاستقلالية وعدم الاستقرار الأولي والتغيرات المتصاعدة التي عرفتھا اللغات المزيج . إن المسارات المؤدية إلى اللغات المزيج والمولدة لا تختلف بطبيعتها عن المسارات الموجودة عموماً في اتصال اللغات : فالفرق بين هذه وتلك لا يمكنه ان يكون إلا اختلافاً في الدرجة ، كما يستتج غوميرز وويلسون (Convergence, p. 162-165) . أخيراً يلفتان الانتباه إلى أن الألوان المحكية اليوم في كوهوار ، إذا كانت تحتل المقارنة فليس ذلك لأنها تعرضت لعملية تجديد في بنائها المعجمي ، بل لأنها بخلاف ذلك بدلت بناھا القواعدية . وهذا يوحي بكل وضوح ان تجديد البناء المعجمي لم يستطع أن يكون إلا واحداً من بين التغيرات الطارئة على تطور اللغات المزيج والمولدة ، وان تجديداً جزئياً على الأقل للجفاء المعجمي⁽²²⁾ يمكنه هو أيضاً أن يكون جزءاً من هذه التغيرات .

إن دراسة اللغات المزيج واللغات المولدة ، وان فرضيات تجديد البناء المعجمي والنحوي التي تتطور من خلالها ، تبدو مؤكدة لما كانت تفترضه صيغ التداخل المعجمي : التكافل بين المعجمية والقواعد يبدو أحياناً نسبياً في لغة واحدة .

وحسب النظرية القائلة بوحدة النسب ، سيمكن ان ، عقلياً ، التسليم بفرضية تجديد البناء المعجمي والنحوي على التوالي ، إنطلاقاً من اللغة المزيج البرتغالية الأولى الواصلة إلى مرافئ الشرق الأقصى ، وصولاً إلى اللغة البرتغالية المزيج التي كانت لاتزال تمثلها في كانتون في القرن الثامن عشر ، ثم وصولاً إلى اللغة

(22) * The local Kupwar varieties might be said to have undergone resyntactification, if the term may be excused for the sake of the contrast * .
(Guperez et Wilson, convergence, p.166).

المزيج الصينية - الانكليزية مثلاً ، الملحوظة في ما بعد في المناطق نفسها ، والمنتشرة من ثم على امتداد خطوط العالمة الكبرى نحو غينيا الجديدة ، للوصول إلى اللغة المزيج الانكليزية - الميلانيزية الملحوظة في هذه الجزيرة وحوالها ، والتي صارت ، من جراء التوليد اللغوي ، العاليزية الجديدة .

IV/٤٩ - اللغات المزيج والمولدة اليوم

إذا كان من الصعب نسبياً الحكم المسبق على الصيغ الدقيقة التي كانت في العاضي صيغ تطور المنظومات من طراز اللغات المزيج والمولدة، فذلك جزئياً لأن الدراسات التعاقبية لا تملك عدداً كبيراً من الوثائق المتعلقة بها ، ولا مدونات وافرة عن الأحوال القديمة لتلك اللغات . وحدها بعض النصوص الكبرى ، الدينية خاصة ، كانت قد ترجمت في وقت مبكر جداً لأجل متكلمي بعض اللغات المولدة ، عندما كان عدد هؤلاء المتكلمين يسوِّغ مشروعاً كهذا . وبعد ذلك ، سمح هذا الامر للغات المولدة بأن لا تظل دائماً كلياً بمنأى عن كل تراث مكتوب . وظل هذا النوع من التوثيق والتدوين نادراً جداً بالنسبة إلى اللغات المزيج ذات الاستعمال الشفهي جوهرياً . كذلك تتوجب الإفادة عموماً من مشاهدة الظروف الحاضرة لوجود هذه المنظومات وتطورها ، لاسيما مشاهدة ديناميتها الراهنة وتوصيفها التساوقي ، لكي يُقوِّم ماضيها أفضل تقويم . والخلاصة ان الدراسات المتعلقة باللغات المزيج والمولدة الملحوظة حالياً ، قد تكاثرت ؛ وانها قد يتوجب عليها أيضاً ان تقدم الكثير ، حقاً ، لأعمال اللسانيين وعلماء الاجتماع او الإناسة النظرية ، ولكنها باتت مبررة إلى حد كبير نظراً لأن اللغات المولدة هي اللغة الأولى لنحو ستة ملايين متكلم ، ولأن استعمال اللغات

المزيغ هو واقعة حياتية يومية لمليونين إلى ثلاثة ملايين شخص في العالم^(٢٢) .

IV / ٥٠ - الملاييزية الجديدة

من بين المنظومات ذات النقط اللغوي المزيغ والموئد ، أفادت الملاييزية الجديدة إفادة كبيرة من اهتمام الباحثين ، ربما لأن ماضيها الحديث كان معروفاً جيداً ، ولكن أيضاً بسبب القيمة المثالية التي اكتسبها التطور الراهن لوقائعها اللغوية والاجتماعية . إن الملاييزية الجديدة الراهنة المعروفة سابقاً بعدة أسماء (Bicho de mar, beach la mar, bêche de mer, sandalwood English, tokboi, sabir anglais mélanésien) وألوانها (المزيغ الانكليزي Papou والمزيغ الانكليزي الاوسترالي) تحتل مداراً جغرافياً مركزه أراضي المستعمرة الانكليزية القديمة في غينيا الجديدة ، في الشمال الشرقي من الجزيرة المعروفة بهذا الاسم . لكن هذا المدار يمتد أيضاً الى بابوازي ، في الجنوب الشرقي من الجزيرة ، ويشمل بعد ذلك أرخبيل بسمارك ، جزر سلومون وجزءاً من Nouvelles Hébrides شرقي غينيا الجديدة ، وأخيراً يشمل جزءاً من أراضي أستراليا .

تتقاسم الملاييزية الجديدة مدارها الجغرافي مع عدد كبير من اللغات : فبالإضافة إلى لغات البابوا في غينيا الجديدة ، وبعض من الـ ٢٢٨ لغة في القارة الأسترالية، تنتسب اللغات المحلية في المنطقة إلى هذا الفرع أو ذاك من الأسرة الأوسترونيزية (Austronésien) . ان الانكليزية هي اليوم اللغة الغربية الأحسن

(٢٢) هذا حسب التقدير الرقمي الذي يعطيه دكامب (Decamp, Introduction, p.17).

تمثيلاً في المدار الجغرافي للملانيزية الجديدة . لكن التاريخ الاستعماري كان قد حمل إليها في عصور شتى ، البرتغالية ، الهولندية والألمانية . إن الملاييزية الجديدة ، بوصفها لغة مزيجاً ، تشهد خصماً في الجنوب الشرقي من جزيرة غينيا الجديدة ، هو الـ (Police- motu) ، كلفة علاقات بين القبائل وكلفة مستعملة رسمياً حتى الحرب العالمية الثانية من قبل الإدارة الأسترالية مع سكان غينيا الجديدة لاسيما في بور مورسبي عاصمة باهوازي وحلها .

تعتبر الملاييزية الجديدة مشتقة من اللغة المزيج الصينية - الانكليزية العمارة اعتباراً من القرن الثامن عشر في سواحل الصين ، وبالتالي ، بين الصين وجزر المحيط الهادي . ان النظرية القائلة بوحدة النسب تجعل من هذا المزيج الصيني - الانكليزي نتيجة لتجديد البناء المعجمي والتحوي إنطلاقاً من مزيج برتغالي أقدم . واليوم ، يملك نحو الملاييزية الجديدة سمات يمكن عزوها إلى التأثير الملاييزي ، ولم يعد له سوى قليل من التعاتلات مع هذا أو ذاك من تلك المكونات الغربية القديمة التي جرت المحاولة لمنسبته إليها . إن الكلمات ذات الاصل الانكليزي أو الألماني لا تزال كثيرة في مصطلحاتها حيث تعيش جنباً إلى جنب مع وحدات آتية من الكوانا (Kuana) لغة التوليين (Tolais) في ارخبيل بسمارك .

IV/ ٥١ - نمو الملاييزية الجديدة : ترسيمة قديمة

يتكلم الملاييزية الجديدة ٥٢٠,٠٠٠ متكلم في غينيا الجديدة . وهي بالنسبة إلى عشرة آلاف منهم اللغة المكتسبة الأولى والوحيدة التي يمتلكونها في المنطق^(٢٤) وهي بالتالي لغة مزيج في

(٢٤) هؤلاء العشرة الاف من ذوي اللغة الواحدة هم متكلمون في غينيا الجديدة لم يكتبوا اللغة المحلية لجماعتهم الاصلية لانهم كانوا يقطنون في اسكن اخرى . ولكنهم لا يعيشون مع ذلك في الاوساط التي يسودها استعمال الانكليزية .

طريق التوالد اللغوي . ولكن مجموع الذين يستعملونها يوماً بيزيد
عن المليون نسمة .

إن التوسع الكبير الذي استطاعت أن تبلغه الملاييزية
الجديدة ، بدأ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، انطلاقاً
من مناجم المنطقة ومزارعها حيث كانت الممارسة اللاشرعية
لـ (Black birding) تقود الناس الى العمل بالقوة في مناطق متنوعة
جداً وغالباً ما تكون متباعدة من بعضها . هؤلاء الناس كانوا يشكلون
جماعات صغيرة من متكلمين لا تجمعهم أية لغة مشتركة ، مما كان
يحث حينئذ استعمال لغة علاقة .

إن الظروف اللسانية الاجتماعية للتوسع الأول للملاييزية
الجديدة تتوافق تماماً مع ترسيمة ماثورة ، قديمة من الآن فصاعداً .
فقد استمرت متحدات محرومة من وسيلة اتصال لغوي بين
الجماعات ، في مركز استقباعي ، بفعل ميزان القوى الاجتماعية
(لاشيء ، أحياناً ، سوى العمل بالقوة !) إن الفئة الاجتماعية
المهيمنة ، تلك التي تخلق في الواقع ميزان القوى الاجتماعية ،
تعارض عموماً منظومة لغوية يكون لونها من ألوانها مطبوعاً . عندئذ تنمو
اللغة المزيج لا لتستعمل كجسر فوق الهوة الفاصلة بين الطبقات
والفئات الاجتماعية المتنازعة ، بقدر ما تستعمل كوسيلة اتصال لغوي
مستقرة بين الجماعات المهيمنة . وحتى اذا كانت اللغة المطبوعة
تقدم جزءاً كبيراً من معجميتها الى اللغة المزيج ، فإن متكلمي هذه
اللغة المطبوعة (افراد فئة اجتماعية سائدة : مالك المزارع في غينيا
الجديدة أو الأنتيل ، أصحاب المناجم وكوادرها ، الانكليز في
الصين الاميركيون في تايبوان ، الخ) نادراً ما يأخذون وقتهم
ويبدلون المجهود اللازم لتعلم اللغة المزيج التي قد يتوجب عليهم أن
يكتسبوها كما تُكتسب لغة أجنبية . هناك عدة لغات يكون متكلموها
في وضع استقباعي ، وهناك لغة مطبوعة متعلقة بالفئة الاجتماعية

السائدة : إنن يتعلق نمو لغة مزيج في اغلب الأحيان بوضع تعددية لغوية حقيقية - وليس فقط بثنائية لغوية.

زد على ذلك أن الاستفحاج بأن الاتصال بين عاميتين من منظومة واحدة لا يؤدي دائماً إلى ظهور لغة مزيج كلفة مزيج (Hoeningwald creole studies, p. 474) وان هذا الامر قد يعود إلى بديهته تقول ليست هذه في الواقع سوى طريقة للتشديد في المواضيع التي تتطور فيها اللغات المزيج ، على الأهمية المتعاضمة ، غالباً ، للاختلافات بين المنظومات المتصلة ؛ لأنها طريقة تسهم في الواقع ، بكيفية حاسمة ، في نمو لغة العلاقة واستعمالها ، وتكون بعيدة من تشكيل حاجز بنيوي . وقد لا تكون اختلافات البنى عقبة إلا بقدر ما تشكل الفئات الاجتماعية القائمة مجتمعاً بشرياً في حالة صدمة ثقافية حقيقية (Ibid., p. 475) .

IV/52 - الملاييزية الجديدة في تصنعاتها الوظيفية

في غينيا الجديدة استخدمت الملاييزية الجديدة ، أساساً وبكيفية ثابتة ، كلفة علاقة بين المتحدات التي تمارس لغات الهايو على اختلافها ، وأيضاً بين هذه المتحدات والمجتمع المتأورب . وطالما استطاعت الثقافة والنمط المجتمعي الهايو أن يحافظا على تعامية نسبية في مواجهة الغزوات الاستعمارية الانكليزية ، الألمانية أو الأوسترالية ، فإن الوضع كان يظل مستقرأ .

بعد الحرب العالمية الثانية ، طرح وجود الملاييزية الجديدة وتوسعها مسائل سياسية أهم من ذلك أيضاً . إذ كان مجلس وصاية الأمم المتحدة يعارض تدوين هذه اللغة وتطبيعها واستعمالها في المنظومة التربوية . وكان يقال إن وسعها بتصنعات وظيفية جديدة

من شأنه أن يؤخر نمو الانكليزية التي صارت لغة رسمية . وإن تشجيع الملاييزية الجديدة من شأنه تعقيد مستقبل وضع لغوي بالغ التعقّد بالأساس .

ومع ذلك فإن اكتساب الملاييزية الجديدة هو اليوم ، من عدة جوانب ، العنصر الأهم في التنشئة الاجتماعية للكثيرين من سكان غينيا الجديدة بوصفهم سكاناً ، فهذا الاكتساب هو المنعطف الأهم في وجود أولئك الغينيين الجدد الذين يبحثون عن عمل ، خارج جماعتهم الأصلية (Walfers, Neo. Melanesien P.413-419). ومن المحتمل أن يطلب منهم أن يعرفوا هذه اللغة معرفة كافية . ففي الغالب لا يزال تكلم الملاييزية الجديدة وسيلة مضمونة لاكتساب الشهرة والوجاهة من جانب أولئك الذين يستطيعون التعاطي مع الأوروبيين أو مع الحضريين عامة^(٢٥) . إن استعمال الملاييزية الجديدة يبسط حقاً ويسهل الأعمال في جمعية إقليمية حيث يمكن لكل مسألة أن تتعقّد من جزاء المسائل اللغوية ذاتها . ودون أن يكون للملاييزية الجديدة حق المواطنة في هذه الجمعية ، فإن هذه الأخيرة تنشر نصوصاً في هذه اللغة ، ورغم ذلك ، لا تزال هذه المنظومة دون راموز رسمي مكتوب . كثيرون هم الغينيون الجدد الذين يربطون الملاييزية الجديدة بمشاعرهم القومية ، وقد تكوّن تيار رأي ربما لا يرفض مركز اللغة القومية لما كان بالأمس مجرد لغة مزيج .

إن انتشار الملاييزية الجديدة في المجتمع الغيني الجديد وتولدها اللغوي الجزئي لا يعودان فقط إلى المسار الثقافي المحض الذي يتراجع فيه المجتمع الهايو وثقافته تراجعاً ظاهرياً أمام النماذج الغربية ، في الوقت نفسه ، يعود هذا الانتشار وهذا التوالد اللغوي

(٢٥) أكثر من ٨٠٪ من السكان مزارعون .

للملاييزية الجديدة ، وبكل وضوح ، الى الاستيعاب السياسي والوطني الذي يتم في الفئات الاجتماعية التي قد تقول عنها اللسانة الاجتماعية الاميركية إنها جماعات لا تزال في موقع استتباعي .

IV/53 - أهمية الأبحاث حول اللغات المزيج والمولدة

إذا كانت اللغات المزيج والمولدة تلفت اليوم الاهتمام الأكبر لدى اللسانيين واللسانيين الاجتماعيين معاً ، فليس في ذلك أي شيء مدهش . فبالنسبة إلى اللساني ، لا تكمن أهمية اللغات المزيج والمولدة ، فقط ، في الحالة اللغوية التي هي حالتها في التساوق بالذات : بل تكمن أيضاً ، وفي وقت واحد ، في وضوح ديناميتها الزاهنة وفي التغيرات الجارية الملحوظة في مستوى بنائها . وإن هذه الدينامية وهذه التغيرات هي من الأهمية بحيث أنها تقبل القراءة بكل وضوح ، فلم تنكح ، وبكيفية ما ، لم تمنح من جزاء مسار القوينة والتطبيع الذي عانى منه كثير من اللغات الأخرى في غير مكان ، زد على ذلك أن اللغات المزيج والمولدة تقدم للباحث المهتم بمسائل التداخل اللغوي موضوعاً دراسياً من المرتبة الأولى ، حتى على الصعيد النظري .

أما بالنسبة إلى الباحثين الأقل موضوعية ، فليست اللغات المزيج والمولدة سوى اللغات العفترية والمصابة بعدوى الهامشية ، الجهالة ، البلاد ، الفقر ، التخلف ... وحتى من جانب العلميين ذاتهم ، كانت موضوع لا مبالاة مديدة . ولدى متكلميها بالذات ، تستطيع أن تكون مثار سخرية بقدر ما تستطيع أن تغدو من رموز الهوية ، وأن تولد مشاعر ولاء عميقة .

إن تعدد المواقف اللغوية المرتبطة بمنظومات اللغات المزيج والمولدة ، يقدم إذن للساني الاجتماعي حقل مشاهدة لا يقل تعقيداً

عن الحقل الذي يقدمه الاشتراط الاجتماعي / الاقتصادي والاجتماعي / الثقافي ، الماضي والحاضر ، لهذه اللغات . أما بالنسبة الى المستقبل فيتعين تجديد القول إن بعض اللغات العزيب والموئدة (مثلاً الـ Crioulo في جزر الراس الأخضر وغينيا بيساو) هي من الآن فصاعداً في صميم اهتمامات التخطيط اللساني لما بات البعض يسميه اللسانة الاجتماعية المطبقة .

الفصل الخامس

السياسات والتخطيطات اللسانية

١/٧ - في تعدد التعريفات :

بعض تعريفات التخطيط اللساني متحفظة إلى حد الغموض فلا نكاد نلمح الواقع فيها إلا بعناء . وثمة تعريفات أخرى أكثر وضوحاً ؛ لكنها لا تحيط إلا بمركز الاهتمام أو بالتجربة الشخصية لأولئك الذين وضعوها ، واليكم بعضاً منها . إن التخطيط اللساني مجموعة محاولات ومجهودات واعية ومنظمة ترمي إلى حل المسائل اللغوية ، إنها قرارات متخذة للتأثير على الممارسات والاستعمالات اللغوية ، ولتشجيعها أو لإحباطها . وإن التخطيط اللساني هو مجموعة جهود مبدولة لتغيير شكل لغة ما واستعمالها ، لتغيير الخطاب عمداً . وهو إكمال لغة تعبر عن فرادة وطنية . وهو إصلاح لغة وقولبتها بكيفية معيارية . وهو إعطاء رموز مكتوب (Code écrit) للغة تقتقر إليه . إنه تحديد الوسائل الطوعية للتوصل إلى الثنائية اللغوية في الحقبة الاستعمارية أو ما بعد الاستعمارية . وهو تكيف التجربة المكتسبة في تاريخ اللغات الأوروبية مع الوقائع اللغوية في البلدان المستعمرة . وهو جعل معجمية لغة ما متوافقة مع النمط الاقتصادي ، الاجتماعي ، التقني أو الثقافي لبلد ما ... ومن الممكن أن تطول اللائحة . حتى أن هذه التعريفات حين تظل صامتة عن

المسؤولين ، فإنها تعزو إلى التخطيط مشاريع وبرامج ومنجزات لا يمكن أن تتصورها أو أن تقرر تحمل مسؤوليتها إلا سلطة الدولة وحدها . وبالتالي تبدو حقاً أنها الوحيدة القادرة على السعي لنظم الوقائع اللسانية واللسانية / الاجتماعية وتطويرها ، الوحيدة القادرة على التدخل بفعالية معينة لتبدل عمداً الاستعمالات القائمة .

وبخلاف التخطيط ، لم تحظ السياسة اللسانية إلا بتعريفات نادرة . ذلك أنها من دون شك ، غالباً ما ارتدت في الماضي رداء عدم التدخل - في الموضوع بشكل فعال مثل نقيضها، أي التخطيط اللساني ، أو أنها ارتدت شكل تدخلات تجريبية ، معزولة في المكان والزمان ، وعاجزة عن خلق تراث طرائقي (ميتودولوجي) ، إن التكاثر المعاصر لمسائل لغوية طارئة وملحة استطاع وحده أن يجبر السياسة اللغوية على التجسد غالباً في تخطيطات حقيقية ، وأن يدفع الباحثين في وقت واحد إلى أن يستخلصوا من التجريبية نظرية خاصة ، لا تزال حتى اليوم في طور الصياغة والإرصان .

٢/٧ - الممارسة القديمة ، المثال الفرنسي

لم تعرف القرون الوسطى سوى لغة واحدة ، اللاتينية ، ولم تكن اللغات الأخرى ، حينذاك ، سوى (لغات محكية) عامية Vulgaires . ونكّر أنّ الفرنسية تدين لوضوحها بكونها لغة الدبلوماسية . وكان Le Conventionnel Barère قد كتب : ليست الانكليزية سوى اللسان الكريه الخاص بالمصرف والكمبيالات ، والعربية الماثورة هي لغة حقيقية ، وليست عامياتها سوى تهجين مؤسف ، من دون كتابة ، لا يكون للغة قواعد ، وهي بالتالي ليست لغة حقيقية . إن الفشتالية لغة قاسية ، والنبلوية لغة طرب وغناء... وإن الخلط المتواصل للوقائع اللغوية حقاً والواقعات غير اللسانية التي ترتبط بها ، أدى في كل زمان إلى صدور أحكام قيمية على

اللغات ، وهي احكام مرتبطة بالفكرويات ، وفيها تنعكس العلاقات والنزاعات الاجتماعية ، المصالح أو الصراعات الاقتصادية ، السياسية ، العسكرية أو الدينية ، ومع ذلك غالباً ما كانت السلطات تحاول ، بإسم احكام من هذا النوع ، القيام بتدخلات مقصودة ولكنها منتظمة ، شكّلت جزءاً من تاريخ اللغات ، بدءاً من تاريخ الفرنسية . وعندما استلزمت ذلك الفعالية العملية ، لم تتردد الملكية الفرنسية في فرض المحكيّات الرومانيّة بمواجهة اللاتينية في إدارتها ، ثم الفرنسية وحدها في الإجراءات الجنائية والاحوال الشخصية . وما بين ١٦٨٤ و ١٧٦٨ ، ضمت السلطة الملكية ، بالفزو أو بالشراء ، مناطق (الفلاندر البحري ، الألزاس ، الروسيون ، كورسيكا) وفرضت عليها الفرنسية بقوة الأوامر والقرارات : فكان يعتبر أنّ على الرعايا الجدد أن يفهموا على الأقل ما كان يُنتظر منهم ، كان ذلك عصر إزدهار معالجة القواعد الفرنسية كنوع . قبل ذلك بقليل ، كانت الدولة قد قرّرت أن تراقب وضع المعجم وأنشأت أكاديمية مولجة صراحة بتحرير القاموس .

واليوم ، يتصوّر المخطّطون أن يقوموا بأنفسهم نتائج قراراتهم ومجهوداتهم . في الماضي ، كان يلزم على الأقل حركة مثل حركة ١٧٨٩ لتوفير الفرصة لتقويم السياسة اللسانية النافذة . إن الجمهورية ، إذ رأت في اللغة الفرنسية إحدى الأدوات الفعّالة في سياستها المركزية العامة ، أجرت تقويماً نقدياً للسياسة اللغوية التي مارسنها الملكية . لذا ، كلّفت القس غريغوار بمهمة إجراء واحد من أولى الاستطلاعات اللسانية/ الاجتماعية في كل البلاد ، وسبراً حقيقياً للرأي ، قبل ظهور هذه التسمية . غير أنّ سؤالين من الأسئلة الـ ٤٢ التي طرحها غريغوار على مراسليه ، يبيّنان أنّ القرار كان بلا شك قد سبق الشورى ذاتها : ماذا يمكن أن تكون الأهمية الدينية والسياسية لتقويض العاميات تقويضاً كاملاً ؟ وماذا يمكن أن تكون

وسائل التقويض هذا ؟

(Creteau, Une politique de la langue, P. 13 et 175 et S.)

بعد ذلك قرّرت الجمعية التأسيسية (La Convention) أنّ كل كومونة (Commune) كان يحكي فيها عامية رومانية ، لون من الباسكية ، من البريتونية أو الجرمانية ، ستزود بمعلم لغة فرنسية ، كما أنّها كلّفت لجنّتها التعليمية العامّة بتحضير قواعد جديدة ومعجمية جديدة : تقويم السياسة السابقة ، مشروع قوننة قواعدية ومعجمية ، اتخاذ قرارات ، وسائل واقعية لتطبيق القرارات (كانت الجمعية التأسيسية قد أخذت على عاتقها دفع مرتبات المعلّمين من خزينة الدولة) ، هكذا لم تكن ممارسة أعضاء الجمعية التأسيسية تفتقر تقريباً إلى أي شيء تحسد عليه التخطيطات اللسانية التي كانت ستليها في القرنين التاسع عشر والعشرين .

التخطيطات اللسانية الأولى

٣/٧ - مسائل أوروبية

نحو العام ١٨٠٠ ، كان يوجد في أوروبا ١٥ لغة تتمتع بمركز لغات رسمية أو قومية أو بمركز معادل . ومنذ العام ١٩٠٠ تضاعف عددها ، وبلغ الخمسين لغة سنة ١٩٢٧ ، فمنذ صعود البونابرتية إلى صعود النازية تعيّن على المسائل اللغوية ، إذا صدّقنا هذه الأرقام ، أن تمثل جزءاً لا يُستهان به من المصاعب الأوروبية . جرى وضع التخطيطات اللسانية الأولى رداً على هذه المسائل .

وتندرجُ التخطيطات كلها تقريباً في إشكالية حركات العصر

القومية ، وجرى إعداد بعضها ، على الأقل ، بفضل العمل الدؤوب لعدد من الأفراد الذين كانوا يضمون ، إلى قوة اقتناعاتهم القومية ، قدرات حقيقية لباحثين خبراء في المسائل اللغوية .

V / ٤ - في النرويج

كانت النرويج مقاطعة دانيماركية حتى العام ١٨١٤ ، ولم يكن لها حتى ذلك التاريخ أية لغة رسمية أخرى سوى الدانيماركية . وتجد في أصل اللونين المدونين من النرويجية الحالية ، أعمال كنودسن وإيفنار أنسن (Kundsen et Ivar Aasen) اللغواعديّة والقاموسية المنشورة اعتباراً من ١٨٥٦ . كان الأول يقترح كلغة قومية شكلاً مدوناً ومقونناً من اللون الذي تتكلمه البرجوازية الحضريّة . وكان الثاني يريد تأسيس اللغة المشتركة بكيفية رئيسية على العاميات الريفيّة في شرق البلاد . وفي العام ١٨٨٥ ، قرّر اليسار القومي شرعيّة اللاندسمال (Landsmal) التي نادى بها أنسن ، والدانيماركية - النرويجية . واعتباراً من ١٨٨٧ صار لزاماً على المعلمين في المدرسة الأخذ بلغة النرويجية النموذجية كما وضعها كنودسن .

ومنذ ذلك الحين عمل بالتخطيط اللساني النرويجي على المستوى القومي ، وكان خاضعاً لرقابة الرأي العام ، في مجتمع لم يبق فيه تطور المنظومة المدرسية أسطورة . ولا يزال الهدف المنشود جريئاً ، اليوم ، لأن الأمر يتعلق بصهر الكتابة الصحيحة (الإملاء) والأشكال والمعجمية للونين مقوننين متميزين ، لكنهما يملكان رغم ذلك أساساً مشتركاً عريضاً جداً (Haugen, Modern Norway, p. 673 - 687) .

V/5 - في إستونيا

اعتباراً من ١٩١٨ ، شرعت إستونيا المستقلة بتدوين لغتها وتعميدها ، وكان تطور العلوم والتقنيات يفرض مصطلحات جديدة كانت تُبتكر في الغالب انطلاقاً من اقتراضات . وكانت إجراءات التخطيط اللساني الأولى تحاول ، حينئذٍ ، أن تنظم دمج هذه الاقتراضات الصعب غالباً في الصّواتة الإستونية ، لقد أسهم جوهانس أنفيك (Johannes Aavik) بنشر نظرياته سنة ١٩٢٤ ، إسهاماً كبيراً في هذا التخطيط ، فإذا كانت اللغات الطبيعية لن تخدم الإبلاغ إلا بشكل ناقص ، فإن تحسينها منهجياً وفي العمق يغدو واجباً . ولوضع المعجمات الجديدة واللواحق الاشتقاقية الجديدة أو حتى الكلمات الوظيفية الجديدة التي يمكن الاحتياج إليها ، يكون من حق المرء أن يدمج ارتجالياً جميع الأصوات التي تملكها اللغة . ونقل هذا التعديد الأول للأجيال التالية بعضاً من الابتكارات التي اقترحها أنفيك : كلمات بسيطة تحل محل كلمات قديمة مركبة ، إدغامات تبسيطية ، الخ .

V/6 - فنلندا والسويد

يوجد بين لغات البلدان السكندينية إمكانية تفاهم متبادل ، تحميه منذ زمن معين بدايةً تخطيط لغوي دولي ، يضاف إلى ذلك أن السويدية تخدم عادةً كلفة علاقة في هذه المنطقة من أوروبا . إنها وقائع - يوجد إلى جانبها وقائع أخرى - قد أحاط بها التخطيط اللغوي الفنلندي ، بلا أدنى شك ، عندما ترك للسويدية مركز اللغة الرسمية الثانية في فنلندا ، بعد الفنلندية . مع ذلك لم يعد يتكلم السويدية ، اليوم ، سوى ٩٪ من سكان فنلندا ومن سوء حظها أنها

كانت حتى ١٨٢٠ اللغة المكتوبة الرسمية الوحيدة ، التي فرضتها
الهيمنة السويدية على الفنلنديين .

٧/٧ - العبرية الإسرائيلية .

إن التخطيط اللساني الذي كان يتعين عليه أن يؤدي إلى ولادة
العبرية الإسرائيلية ، بدأ مثل التخطيط النرويجي منذ نهاية القرن
التاسع عشر . وكان قد شرع به رائدٌ ذو قناعات قوموية تضارع في
صلابتها قناعات كتودسن وآسن ، وكانت نظرياته ومشاريع عمله
اللغوي تماثل في شجاعتها نظريات ومشاريع آتفيك الإيستوني . غير
أن هذا التخطيط يتميز من سواء ببعض شروطه وظروفه . والواقع أن
اليعازر بن يهودا (Fellman, Revival, p. 427 - 456) قد انكب على العمل
منذ نهاية السنوات ١٨٨٠ ، لترقية لسان مكتوب منذ أمد بعيد ، هو
العبرية التوراتية ، إلى مقام لغةٍ محكية نموذجية لكيانٍ وطني لم
يكتسب مقام دولة وقاعدة إقليمية إلا اعتباراً من ١٩٤٨ . وحسب
أقوال معاصريه ، لم يتكلم بن يهودا البتة إلا على عبريةٍ فقيرة ،
مترددة ، وبلا لون وميزة . وعندما أقام في القدس ، لم يلق فيها إلا
العداء من جانب جالية يهودية متزمتة ومنغلقة جداً أمام التجديدات ،
وحتى أنه القي في السجن لأمدٍ معينٍ ؛ اصّر على تأسيس عدّة
جمعياتٍ مخصصة لمسائل اللغة والثقافة ؛ نشر عدّة كتب لتعليم
العبرية بالعبرية ، ودراسات نادرة مكرّسة للمعلمين . أسس مجلة
اسبوعية (Ha Zevi) كتب فيها بشكل منتظم بغية تطبيق نتائج أبحاثه
كعالم معجمي . وفي عام ١٩١٤ ، عرض بن يهودا مشاريع منهجه
المعجمي أمام مجلس اللغة .

وكان يوصي ، لتطوير العبرية الحديثة ، أولاً بأن يُنهل من
مناهل النصوص القديمة ، وأن يُحْيِي مصطلحها (للذال القديم :
مدلول جديد) . وهناك حيث لا تكون المصادر السلفية كافية ، من

الممكن الاقتراض من كل اللغات السامية الأخرى (وفي مقدمتها العربية) ذات الجذور الثلاثية السوامتية التي يمكن أن تؤخذ منها بكل سهولة معيجمات وكلمات عبرية جديدة . وأخيراً كان يمكن استخدام كل التركيبات والتبدلات الممكنة لـ ٢٢ حرفاً صامتاً في الأبجدية العبرية لابتكار جذور جديدة . حكم مجلس اللغة أن هذه المقترحات غير عملية ، ضد الطبيعة ، غير واقعية ، غير قومية وغير وطنية ، فرفضها وهو يرى فيها إهانة حقيقية للعبرية .

مات بن يهودا سنة ١٩٢٢ ، وواصلت العبرية الإسرائيلية نموها الموازي لنمو مدن عمالية ، مثل يافا ، ومراكز استيطان في الريف الفلسطيني . وفي الحقيقة ، كان يتجمع في هذه المدن والمراكز شغيلة ذور لغات مختلفة ، كانت العبرية تلعب دور العلاقة^(١) في ما بينهم . سنة ١٩٤٨ حظيت العبرية الحديثة بمركز اللغة القومية لدولة إسرائيل . وتدل دراسات ميدانية أجريت ما بين ١٩٥٠ و ١٩٥٤ على أن ٦٠٪ من الإسرائيليين كانوا يواصلون في الحياة اليومية ممارسة لغة أخرى إلى جانب العبرية . . وأن العبرية الحديثة لم تكن لغة الحياة الحميمة إلا لـ ٣,٧٪ من الأزواج ، وصل التخطيط اللساني في إسرائيل اليوم إلى مرحلة تقويم نتائجه الخاصة ، خصوصاً في المجال المعجمي . وفي مجال المنظومات الإملائية التي تُقوّم بمقارنتها مثلاً مع طاقة القراءة وسرعتها .

V/٨ - اللغة والقومية التركيتان

عندما شرعت الحركة القومية التركية في إدخال بلادها في

(١) كانت العبرية الإسرائيلية تؤدي هنا التسميات الوظيفية التي استطاعت اللغات المزيج أن تقوم بها في أماكن أخرى .

وقائع بداية القرن العشرين ، باشرت أيضاً بتخطيط لسانى لم يُتناول منه فى الغالب سوى الجانب الأكثر إدهاشاً ، نعنى التغيير الأبجدي الذى فرضه ، تقليدياً ، كانت التركية تُكتب بواسطة الأبجدية العربية . وللحكم على العقبات التى كان هذا الأمر يمثلها ، يكفى النظر مثلاً فى الـ ٨ صوتيات فى المنظومة الصوتية التركية ، وإن نواجه هذه المنظومة مع المصادر التصويرية للحروف الثلاثة المخصصة فى الأصل لـ ٣ صوائت طويلة فى الصوائت العربية القديمة ، وبعض العلامات التشكيلية لضبط الصوائت القصيرة . ومهما تكن مدهشة عملية إبدال الأبجدية والوسائل المستعملة لفرضها . فلا يجوز لهذه أن تفسينا بقية الإجراءات المتخذة فى التخطيط اللسانى التركى . كان الاقتراض المعجمى من الفارسية وبالأخص من العربية هو القناة التى فرضت من خلالها تضاد صوتية لا تستوجبها المنظومة التركية فى منطلقها (هذا مثلاً هو حال تضاد الطول الصوتى) . زد على ذلك أن الاقتراض المعجمى الواسع كان قد أسهم فى إبراز الفوارق بين الألوان المحلية والإجتماعية للمنظومة التركية . كما أن الصياغة المعجمية ، إلى جانب صياغة مصطلحات علمية وتكنولوجية جديدة ، سرعان ما ارتدت فى التخطيط اللسانى التركى رداء « تترك » ، تطهير ، مماثل إلى حد ما للتطهير الذى شهدته الألمانية فى بعض الحقب .

التخطيط اللسانى ، الاستعمار وتصفية الاستعمار

V / ٩- مسائل اميركية / لاتينية

مع اقدم تصفية للاستعمار فى اميركا اللاتينية لم يتوافق لأمد

طويل سوى سياسة لغوية ذات تدخلات تجريبية ، واليوم لا تزال
التدخلات اللسانية الحقيقية نادرة في القارة الأميركية الجنوبية .
إن الطبقات العميقة من المؤلدين والخلاسيين المتأسبتين ، التي
كانت قد خاضت معارك الاستقلال ، أعلنت تمسكها باللغة الإسبانية
حين اقترحت (كولومبيا ، المكسيك) منذ ١٨٢٥ إنشاء أكاديمية
إسبانية - اميركية يمكنها القيام بالدور الذي كانت حتى ذلك الحين
تقوم به الاكاديمية الملكية الإسبانية . إن اللغة الإسبانية ، لغة
اتصال واحتكاك منذ بداية الغزو ، كانت قد عانت من تداخلات
صوتية ونحوية ومعجمية على حد سواء ، وهي تداخلات فرضتها
أولاً اللغات الأميركية - الهندية ثم لغات المهاجرين الأوروبيين
الجدد بعد الاستقلال ، كان ذلك عصر ارتفاع صوت الطهرانيين في
مواجهة السوقيات والايطاليات والغاليات والانكليزيات في الإسبانية
الاميركية . ولكنه في الوقت ذاته كان العصر الذي كانت فيه قومية
لغوية معينة تحذب على لغة الأقاليم والولايات والأرياف ، وحيث كان
الارجنتيني سارمينتو (Sarmiento) يطالب بإصلاح للأملاء التي
يمكنها جعله متكيفاً مع واقع خطاب المتكلمين الإسبانين -
الاميركيين (Guitarte, Correctness, p.348-349).

في مواجهة مقترحات الطهرانية اللاواقعية ، وكذلك في
مواجهة واقع الاختلافات المحلية والاجتماعية التي تشد في
الإسبانية - الأميركية ، يقترح داماسو ألونسو (Dámaso Alonso) ،
أحد منظري السياسة اللغوية الحاليين ، أن تلعب ورقة الوحدة
المتسقة . وإذا كان الاقتراض محتوماً ، فلا مناص من قبوله ، ويغدو
ممكناً قبوله عندما يعتمه الجميع ويفهمونه ويستعملونه ، ويجري
دمجه بالنسخ أو بالتكيف مع الصواتة الإسبانية - الأميركية . وإذا
كانت ، السوقيات ، الصوتية ، البنائية أو النحوية قد أصبحت واقع
الطبقات المحترفة كطبقات متعلمة ، فلا يعود هناك أي نفع من

السعي لزعزعتها . والمعيار الذي يمكن أن يوصى به ، لم يعد معيار القشتالية ، بل الاستعمال الرائج في الطبقة المثقفة لكل جمهورية .

V / ١٠ - في الباراشواي

أن تتمكن سياسة عدم تدخل لغوي ، مثل التدخل أو التخطيط ، من بلوغ الهدف الذي تنشده سلطة دولة ، هو أمر واضح في الباراشواي . ففي هذه الجمهورية حيث ظلت الاسبانية لأمد طويل ، اللغة الرسمية الوحيدة ، هناك ٣٤٪ من السكان الريفيين يمارسون لغة واحدة ، (Guarani) هي الغوارانية ، وبقية الريفيين يعانون من ثنائية لغوية متأخرة ولامتوازية ، تميل الى الغوارانية . والثنائية اللغوية عامة في المدن ، لكنها أكثر توازناً فيها ، إذ من أصل الـ ٥٪ من الحضريين نوي اللغة الواحدة الذين نكتشفهم في المدن ، لا يتكلم الاسبانية سوى النصف . لقد أرادت وزارة التربية ان تتجاهل المشكلات على الدوام . فالغوارانية لا تُعلم في أي مكان ، إلا في مدرسة العاصمة . ويتعين على المعلمين الريفيين أن يعلموا بالاسبانية القراءة والكتابة والحساب لتلاميذهم ذوي اللغة الغوارانية دون أن يكونوا قد أعطوهم من قبل ، أي درس عن الاسبانية ، وهؤلاء المعلمون لا يتلقون أي تكوين خاص من شأنه إعدادهم لمجابهة المشكلات التي يعتقدون بعامة أنها جزء لا يتجزأ من مهنة المعلم .

V / ١١ - في البيرو

إن الغوارانية في الباراشواي واحدة من تلك اللغات الاميركية - الهندية التي تجتمع في ٦٠ عائلة ، والتي لم تتلق أي منها مركزاً رسمياً حتى الآن . كذلك هو حال الكيشوا (Quechua) مثلاً . فهذه اللغة الاندية التي يتكلمها عشرة ملايين متكلم ، لم تُكتب

مفد امد بعيد إلا بكيفية بدائية جداً ، حسب المعايير الإملائية
 للإسبانية ، ولم يكن ذلك يتم بون عفيات . فالوان الكيشوا مثلاً ، لم
 تعرف عموماً المميز الصوتي الترابطي في منظومتها الصوتية :
 فالصامت المرّن يجب اعتباره إذن كلون مركّب متناقض . والحال ،
 تحت تأثير ذوي اللغتين الذين يمارسون الإملائية الإسبانية ، كانت
 الحروف المرّنة لا تُقيد في الاقتراضات العديدة المأخوذة عن
 الإسبانية فحسب ، بل ان تقيدها كان ينزع إلى الشمول والتمهوج .
 من الواضح في هذه الشروط ان ممارسة الاستعمال المكتوب يمكنه
 أن يصبح عاملاً فعّالاً حقاً من عوامل التغيير اللغوي . سنة ١٩٥٤ ،
 حاول المؤتمر الأميركي الأهلي المنعقد في لاهاز تبسيط كتابة
 الكيشوا وقولبتها ، بحيث تتمكن من أن تُستخدم أيضاً في الأيما
 (Aymara) في بوليفيا ، وفي ٢٢ مجموعة لغوية أخرى ، تحكى في
 شمال البيرو . عندئذ أمكن تنظيم حملات محو أمية لدى متكلمي هذه
 اللغات السلفية (Selva) البيرونية ، وكانت التخطيطات اللسانية
 الإسبانية - الأميركية قد بدأت تظهر متخذةً إتجاهاً أقرته الحكومة
 البيرونية مؤخراً : فقد أقرت سنة ١٩٧٤ كون الكيشوا هي لغة البيرو
 الرسمية من الآن فصاعداً ، إسوةً بالإسبانية .

V/١٢ - اللغات والاستيطان

في حالة أميركا اللاتينية ، جرى مبكراً جداً إبدال الإدارات
 الإسبانية والبرتغالية من سلطات اقتصادية وتأثيرات سياسية لأمم
 أخرى ، دون أن يكون ثمة غزو استعماري مُعلن . إن هذه الحالة
 فريدة من نوعها تقريباً في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن
 العشرين اللذين هما في الواقع مرحلة استعمار أكثرهما مرحلة
 تصفية استعمار.

ففي المرحلة الأولى من الاستيطان الاستعماري ، وحتى قبل

أن تعزّذ الأجهزة العسكرية والإدارية المتروبوليتية مواقعها ، كانت
البعثات الدينية هي التي تعارس غالباً السياسة اللغوية في المناطق
الاستعمارية المقبلة . كان أفرادها يتعلّمون لغة أو لغات البلد الذي
يعيشون فيه ، وكانوا يترجمون النصوص الدينية الأساسية ويطوّرون
غالباً تعليماً ابتدائياً عاماً ، في موازاة تعليمهم الديني . ولأجل ذلك ،
وضعوا قواعد مكتوبة ، إنطلاقاً من الأبجدية اللاتينية عموماً ، وكانوا
ينشرون كتب قواعد وقواميس اللغات المحلية .

وعندما تعزّزت السلطات المتروبوليتية ، لم تواصل دائماً
السياسة اللغوية للبعثات الدينية . فالاستعماران الإسباني
والفرنسي ، الممركزان ، أحبطا دراسة اللغات المحلية وتعليمها .
كلما استطاعا إلى ذلك سبيلاً ، دون أن يتوصلا مع ذلك إلى فرض
اللغات المتروبوليتية . ومثال ذلك أنه في العام ١٩٥٠ لم يكن يوجد من
أصل ٥٠٠٠٠٠٠ غينيّ سوى ١٤٧٨ مستوعباً (Assimilados) يعرفون
البرتغالية قراءةً وكتابةً ، وفي العام ١٩٦٢ قام معهد (Insee) بإحصاء
العاملين في المؤسسات الفرنسية في أوقيانيا (Océanie) واستنتج
أن ٦٠٪ من البولينيّين المشمولين بالاحصاء ما زالوا عاجزين عن
قراءة الفرنسية وكتابتها .

أما الاستعمار البلجيكي ، الانكليزي والالمانى ، الأول
مركزة ، فلم يفرض بوجه عام اللغة المتروبوليتية في التعليم
الابتدائي إلا في أوضاع لغوية ثنائية أو تعددية حيث لا تفرض
نفسها أية لغة محلية ، على الأقل بوصفها لغة علاقة وارتباط . إن
هذه الاستعمارات والاستيطانات جسّدت سياستها اللغوية في
تخطيطات حين شرعت في قولبة تلك اللغات المحلية العلائقية ، وهي
السواحلية ، الايوي (Éwé) في غانا والتوغو والداهومي ، أو الشونا
(Chona) في روديسيا . وغالباً ما ظلّ المستعمرون حذرين تجاه هذه

اللغات المحلية المقولبة وتجاه سياسة « التنمية المنفصلة » التي كانت تخدمها . فبالنسبة إليها لا تعني التنمية المنفصلة لمختلف الأعراف العائلة سوى غياب للتنمية . كما أنهم كانوا يفضلون ، عندما كانوا يستطيعون ، أن يعلّموا أولادهم في المدارس التي كانت تعلمهم اللغة المتروبوليتية منذ الصفوف الابتدائية ، إذ إن معرفة هذه اللغة ظلّت في الغالب الضمانة الوحيدة لأية ترقية اجتماعية محتملة ، ومثالها الوصول إلى مراكز ثانوية في الإدارة الاستعمارية .

١٣/٧ - اللغات ، تصفية الاستعمار واللسان

بعد الحرب العالمية الثانية بوجه خاص ، بدأت النضالات ، القائمة منذ أمد بعيد في كثير من البلدان المستعمرة ، تعطي ثمارها وتفرض مسار تصفية الاستعمار . ولقد استطاعت السلطات المتولدة من معارك الاستقلال أن تختار سياسة لقوية لا تدخلية وإن تترك الوضع السابق على ما كان عليه . فظلت اللغة الرسمية لغة المستعمر القديم ، فلم تحظ أية لغة محلية بمركز خاص . كان في عداد الحكومات الجديدة ، حكومات تكفي باتخاذ بعض القرارات الرسمية ، في اثناء وضع الدساتير الجديدة . وعندما كانت تقوم باختيار لغة وطنية محلية ، كان ذلك يقودها أحياناً إلى إعادة تعريف مركز لغة المستعمر القديم ، فهي لغة لا يمكن الاستغناء عنها كلياً ومباشرة إلا في النادر . وغالباً ما كان يترك لها ، على الأقل ، مركز لغة دبلوماسية ، لغة علاقات دولية . مع ذلك ، كان ثمة ضرورة ، بشكل مألوف ، لكي تُنَاط أيضاً بدور مهم في التعليم ، على الأقل لاجل معين ، ولم يكن من النادر أن يُترك لها أيضاً جهاز الحكومة والعدل أو الإدارة ، والجيش والشرطة ... ومهما أمكن أن تكون القرارات الرسمية ، لم يكن في استطاعتها أن تؤدي ، بكل وضوح ،

إلى تخطيط لساني ، إلا إذا كانت الحكومات التي اتخذتها قد تزودت أيضاً بوسائل وضعها موضع التطبيق الفعلي .

إن المسائل التي تطرحها السياسة والتخطيطات ، شائعة كل المسائل اللسانية - الاجتماعية ، لا يمكن فهمها وإيجاد حلٍ محتملٍ لها ، إلا إذا أخذ في الاعتبار تفاعل عوامل البنى والوقائع غير اللغوية ، غير أن من المناسب التشديد على أن المستمعين نادراً ما يعون المقومات البنوية غير اللسانية للغة التي يستعملونها . فالرجال الذين في أيديهم سلطة الشروع والقيام بسياسة أو بتخطيط لغويين يتصرفون في هذا المجال عامة المتكلمين . كذلك ، حتى وإن كان اللجوء إلى المعرفة اللسانية لا يكفل وحده نجاح هذه المشاريع ، فإن الاستغناء عنها عمداً يعكته أن يساوي أخطاءً باهظة ، وحتى يمكنه أن يعني الفشل .

وهكذا إذن ، وحيث أن المتكلمين والمخططين غير واعين لوجود ، وبالتالي ، لنوعية المنظومة اللسانية ، فإن الميزة التي يمكنهم أن يمنحوها لها أو يحرموها منها ، لن تتوقف أساساً على نوعية المنظومة . وإن يكون حاسماً أن تكون المنظومة مؤتلفة أو غير مؤتلفة توالدياً ، وإن تكون محلية / مؤتلفة (Pidginisé) أو غير مؤتلفة ، وإن تكون لونهاً وحيداً أو ممثلة فقط شبكة الوان إقليمية ، الخ .

كذلك ليست الميزة الممنوحة إلى لغة ، أو المواقف اللسانية المختلفة التي يمكنها أن تستثيرها في الفئات الاجتماعية المعنية ، هي التي تصنع وحدها نجاح أو فشل تخطيط لساني .

V/١٤ - التجربة العربية

هكذا ، لم يكن المركز المرموق الممنوح للمنظومة المؤتلفة توالدياً ، أي للعربية المعقدة ، المسماة مأثورة (كلاسيكية) ، كافياً

لنجاح السياسات اللغوية التي كانت العربيةً موضوعها . ففي الواقع ، تُعتبر العربيةُ الماثورة مؤتلفة توالدياً ، وخير ممثل للمجموعة السامية . أضف إلى ذلك أن كونها مرتبطة بنصٍ قدسي ، القرآن الكريم ، وبتاريخ وثقافة وأداب مرموقة جميعها ، قد منحها امتيازاً كبيراً جداً . فقبل أن يختار كثيرٌ من البلدان العربية الماثور كلغةٍ قوميةٍ أو رسميةٍ ، كانت أكاديمياتٌ شتى قد اشتغلت - وبعضها منذ ١٩١٨ - على الصياغة المعجمية لهذه اللغة . وبوجه عام ، لم تتوصل إلى التوافق على جزء من الاصطلاحات العلمية أو الفنية ، إلا مع كثير من المتاعب والمصاعب ، لكنها كانت مُجمعةً على استنكار ، والإقليميات ، المطبوعة جداً بطابعها الذوقي أو الاقتراضات المباشرة من لغاتٍ أخرى . إن المعجمية الموحدة على هذا النحو كان يتعينُ عليها أن تكون معجميةً عربيةً ماثورةً محدثةً (تسمى أيضاً العربية الحديثة) يمكنها الاحتفاظ بالاشكال وبالنحو الملحوظ في النصوص الأدبية الراقية ، ما خلا عدد صغير من الاستثناءات ، أو «اللطف» التي لم يتوصل أحدٌ إلى التوافق عليها رسمياً . ليس هناك تصورٌ للذهاب إلى أبعد من هذا التحديث بكثير (Altoma, Arab Countries, p. 302- 305) . فمن المحرمات المسُ باللف واحد من القرآن ، كما يقال (ويكل ما كُتب بهذه الأبجدية التي أنزل بها القرآن ، كما يُعتقد بلا ريب) . وبالقدر الذي لا يكون فيه هذا النوع من الأقوال حرفاً ميثاً دائماً ، لا يمكن في الحقيقة الخوض مثلاً في قضية إصلاح عميق للمنظومة الإملائية أو حتى في قضية إجراء تغييرات مبتكرة في الأبجدية . ومع ذلك فإن الهدف الذي ينشده مسؤولو الأقطار العربية عندما يباشرون تخطيباً لسانياً ، هو أن يجعلوا أولاً من حالة لغوية قديمة لغةً متكيفة مع كل الحاجات الزاهنة ، بما فيها حاجات العلوم والتقنيات . وفوق ذلك ، يُراد أن يجعل منها اللغة المشتركة ذات الاستعمال اليومي بالنسبة

إلى جميع الناطقين باللسان العربي . يقدّر بعض المخططين والمتقنين أن في إمكانهم التوصل إلى ذلك في عشر سنوات أو في خلال خمسين سنة كأقصى حد . وهم يعتمدون لتحقيق ذلك على تعميم التعليم ، وعلى حراك للسكان متزايد صعوداً وهبوطاً بين مختلف الأقطار العربيّة ، وعلى دور اعظم لوسائل الإعلام الجماهيري .

لكن الناطقين بالعربيّة الذين يرون ان استعمالهم الشفهي للعربية المأثورة (المحدثنة) يجب ان يحدوا استعمالاً يومياً في غضون عشر سنوات أو خمسين سنة ، لا يمكنهم ، في أغلبيتهم ، ان يتحدّثوا تحديداً دقيقاً كناطقين بالعربيّة إلا لأنهم يمارسون ، وهم ينتظرون ، هذه العامية أو تلك من عاميات العربيّة . والحال ، فإنّ المخططين الذين يعملون على إنماء العربية المأثورة وتصنّعاتها الوظيفيّة لم يقوموا دوماً العواقب الكثيرة لوجود هذه العاميات تقويماً صحيحاً . ولم يستخلصوا النتائج الأخيرة التي كان الوضع يفرضها . وهم إذا كانوا لم يقوموا بذلك ، فمرّد الأمر ، وإلى حد كبير ، إلى الموقف اللغوي الذي تثيره العربيّة المأثورة في المقام الأول لدى المتعلّمين ، وهم المخططون أنفسهم . ولكنّ لدى متكلمي العاميات العربية أيضاً ، حتى وإن كانوا أميين .

في حين أنّ تخطيطاً لسانياً يعتبر مكلفاً على الدوام ، لاسيما في بداياته ، فإن من الواضح ان التخطيطات التي بوشمربها في كثير من الأقطار العربيّة كانت قد جرت في ظروف إقتصادية غير مؤاتية في معظم الأحيان . وكانت المصاعب تتجلى في الأرقام التي قدّمتها الاونيسكو (UNESCO) منذ ١٩٦٥ . ففي ذلك العام ، كان في بعض الأقطار العربيّة أكثر من ٦٥٪ من الأميين وشبه الأميين . ولم تنخفض هذه النسبة في السنوات التالية إلا ببطء . زدّ على ذلك أنّ كثيراً من الناطقين بالعربية كانوا من ذوي اللغتين ، وأنّ الراموز

المكتوب الذي كانوا يمارسونه إنما كان الراموز المرتبط بلغة القوة الاستعمارية القديمة . والحالة هذه ، نُقِومُ على نحو أفضل النتائج الأولى للتخطيطات الجارية ، وكذلك الوقت اللازم والوسائل الواجب تنميرها لكي تغدو العربية الماثورة المحدثنة اللغة المشتركة ذات الاستعمال الشفهي اليومي للناطقين بالعربية كافةً .

إذا كان الاستعمال الكتابي والشفهي للعربية الماثورة قد تأخر تعميمه وشموله ، فمن المتعين ردّ ذلك إلى عجز المعلمين الذين يستعملون هذه اللغة استعمالاً غير صحيح ، كما كان يقرّر ذلك سنة ١٩٥٤ الكاتبُ المصري طه حسين ومعه عددٌ آخر من ذوي العقول الفيرة . وهناك عقول أخرى لا تقل عنهم تنويراً ، كانت مشغولة ، سنة ١٩٥٧ ، بالاستطلاع والتنقيب في أوساط المدرّسين العراقيين : كان ٧٠٪ من هؤلاء المدرّسين يعتبرون أن العربية الماثورة كما هي ، خصوصاً مع منظومة حركاتها الإعرابية الطارئة (Désinences Casuelles) ليست الوسيلة التعليمية الفضلى بالنسبة اليهم ولا بالنسبة إلى تلاميذهم . وهم حتى عندما تكون معرفتهم بالعربية الماثورة مقبولة ، إنما يختارون طوعياً لونها لغوياً آخر : ويؤكد ٢٠٪ من هؤلاء المدرّسين أنهم لم يستعملوا العربية الماثورة خارج قاعات التدريس أبداً ، ويصرّح ٩٠٪ منهم أنهم يستعملون عربيتهم العامية في خلال حصصهم ، على الرغم من كل التوجيهات والتعليمات الوزارية . وطالما أنّ وجود العاميات العربية سيظلّ مطموساً ، فإن كل إشكالية التعليم والتخطيطات اللسانية العربية ستبقى مغلوطة ومزيفة على هذا النحو . إن العباشرة بتخطيط لسانيّ ، مع رفض بيّنة التبدّل اللغوي ، هي من الأمور العبيثية ، المستحيلة ، مؤخرأ ، بمعزل عن دوائر السلطة ، وبعيداً عن النخب السلفية ، اتّخذ باحثون مواقف جديدة حين انكبوا على الوصف العلمي للعاميات العربية ، وللعربية الماثورة كذلك ، ولاستعمالاتها

الواقعية أيضاً^(٣) . وكان جديداً أيضاً - لكنه هذه المرة في صميم دوائر السلطة بالذات - الموقف العملي الذي اتخذته رؤساء دولة مثل عبد الناصر أو بورقيبة اللذين كانا قد اختارا القاء خطبهما التي يعولون عليها أكثر من سواها ، في لون لغوي ، شديد الأقسام بالسمة العامية ، كما يقول البعض ، والذي هو العربية الوسيطة ، كما يسميها اللسانيون^(٤) .

V/١٥ - تخطيطات اللغة الماليزية

إن اللغات المحلية التي صارت قومية و/أو رسمية ، لم تكن جميعها في الماضي لغات ذات امتياز كبير جداً . وبعضها لم يكن أولاً سوى لغات علاقات شعبية . هذه هي حالة الماليزية (Alisjahba na, Indonesia and Malaysia, P.391-461) التي لا يتكلمها كلغة أولى سوى ١٥ مليوناً ، لكنها اللغة الثانية لـ ١١٠ ملايين نسمة ، وتحظى اليوم بمركز لغة قومية و/أو رسمية في الاتحاد الماليزي والدولة الأندونيسية ودولة سنغافورة . لقد انتشرت الماليزية ، انطلاقاً من موقعها الأول على طرفي المضائق الكبرى ، وعلى امتداد الخطوط البحرية ، في الهند والصين في بعض الحقبات ، ناقلة أحياناً ، بشكل عابر وبلا قصد ، تعاليم الإسلام أو تعاليم البعثات التبشيرية المسيحية . لقد انتشرت وامتدت وهي تؤدي وظيفة لغة علاقة شعبية بين المتحدثات الساحلية التي تعيش في جزر آسيا الجنوبية الشرقية

(٢) إن عمل وحياء مراكز البحوث هذه (كمركز التابع ، مثلاً ، لجامعة تونس والذي يضم قسماً للسلطة) ليسا ، إلا نادراً ، بمنأى عن المصاعب من كل الألوان التي يمكن أن تفرضها عليهما معارضة محافظة ومعيارية . متجلية حتى في اللغات الاجتماعية الحاكمة . وفي قسم من الطبقة القيادية .

(٣) انظر أيضاً ، سابقاً ، IV/٣٠ .

اللامعدودة ، والتي تتكلم مئات اللغات والعاميات المتنوعة .
مع استقلال البلاد سنة ١٩٥٧ صارت الماليزية اللغة الرسمية
للاتحاد الماليزي . وقدرت الحكومة الأولى أن هذه اللغة يمكن كتابتها
من الآن فصاعداً بواسطة الأبجدية اللاتينية ، ولكن مع إمكان
الإستمرار بتعليم الأبجدية العربية للتلاميذ المسلمين .
كانت الجزر الأندونيسية لا تزال مستعمرة هولندية سنة
١٩٢٨ عندما انعقد مؤتمر اللغة الأول ليقتراح ليس فقط إلغاء
المصطلحات العلمية والتقنية في الماليزية وإصلاحاً للإملائية ، بل
أيضاً تحرير قواعد جديدة متوافقة مع التبدلات الملحوظة في اللغة .
سنة ١٩٤٢ ، قامت الماليزية بطرد الهولندية من مجالات الإدارة
الداخلية والتعليم ، في ظل الغزو الياباني ، وكانت الماليزية وهي
تؤدي وتليقها كلفة علاقة بين متحدات لغات شتى (من أهمها
الجوانغية Jawanaise والسوندانية Sondaanais) ، قد أصبحت رمزاً
للوحدة القومية في مواجهة المستعمرين الهولنديين ثم المحتلين
اليابانيين . وفي سنة ١٩٤٥ منحها الدولة الأندونيسية المستقلة
مركز لغة قومية .

وفي اندونيسيا كما في ماليزيا ، قامت معاهد ومصالح إدارية
لإنعاش الماليزية ، فوضعت لوائح مفردات لمختلف الاصطلاحات
(العلوم ، التقنيات ، الطبابة ... : ٧٠,٠٠٠ مفردة في ماليزيا منذ
١٩٦٧ ، و ٢٥٠,٠٠٠ في اندونيسيا) . ونشرت كتباً ومعاجم ،
وحاولت منذ ١٩٥٤ وضع تخطيط لساني دولي . وكان أحد
المسؤولين الأندونيسيين عن هذا التخطيط يؤكد أن الماليزية لم تكن
قد أصبحت لغة مشتركة حديثة إلا بفضل انتفاضة حقيقية على اللغة
الماليزية القديمة . وكان المضطربون قد أجادوا الإحاطة بالتغيرات
الجارية في منظومة اللغة ، وبالتغيرات في موقف المتكلمين تجاه
اللغة ، وبالوظائف الجديدة التي كان يتعين على اللغة أن تؤديها في

كل يوم . إن الماليزية وهي لغة علاقة شعبية لم تحتفظ من ماضيها بالمجد الذي احتفظت به العربية ، وكذلك كان الموقف اللغوي لمخططي الماليزية ومتكلميها ، موقف قبول للتغير اللغوي ، بلا عناد ومكابرة . إن هذا الموقف يسر الاقتراض المعجمي الواسع من لغات الاستيطان الاستعماري ، وبالأخص من الانكليزية ، لدرجة أنه يحكى اليوم عن مسار اندو - اوروبي حقيقي لهذه اللغة الأوسترونيزية . لم يكن هذا المسار محتوماً في الحقبة الاستعمارية أو ما بعد الاستعمارية ، وهو ليس البديل المحتوم لتكيف لغة غير أندو - أوروبية مع الوقائع المعاصرة ، فعندما يتقبله المبرمجون وبالأخص المتكلمون ، يمكنه أن يمثل توفيراً كبيراً في الوقت وفي وسائل التخطيط اللساني ، وفي كل حال لا يمكن أن يؤسف عليه إلا لأسباب غير لغوية .

١٦/٧ - من التجارب الأفريقية

شهدت السواحلية ، وهي لغة بانتو من حيث نحوها وأشكالها ، تحولاً في منظومتها الصوتية التي امتدجت عدة وحدات مقترضة من العربية ، وفي معجميتها التي صارت ساميةً بكاملها تقريباً ، إنها إذن منظومة يمكن اعتبارها اليوم كأنها غير متجانسة توالدياً . زد على ذلك أن الواناً محلية من هذه المنظومة ، لا سيما في تانجانিকা ، كانت قد صارت لغة مولدة حقاً . والحالة هذه ، من المفيد أن نلاحظ أن السواحلية قد صارت في تانزانيا (تانجانিকা وزنجبار) بوجه خاص ، لغة قومية ، فلفة العلاقة الشعبية هذه ، لغة التجارة والاتصال بين القبائل ، كانت قد ارتبطت لآمد من الزمن ، وفي بعض متحدات الشرق الأفريقي ، بمساويء الرق الذي كان يمارسه تجار من بلاد اسلامية . يجب أن يضاف الى ما تقدم ، أن المرحلة الأولى من قوننة السواحلية وتقييدها ، جرت تحت إشراف المستعمرين

الألمان ثم الإنكليز . وأن من الصعب عندئذٍ الافتراض أن السواحلية
امكن اختيارها كلغة قومية لتانزانيا ، نظراً لامتيازها الغابر بشكل
أساسي .

وكانت الصومالية ، وهي أكثر من لغة مشتركة شبكة عاميات
يتكلمها بشكل رئيسي مزارعون وريعاة رُحُل . كانت لغة بدون راموز
مكتوب ، وكان ٩٠٪ من متكلميها أميين . أما الذين كانوا يكتبون
ويقرأون ، فكانوا يفعلون ذلك بالعربية والإيطالية أو الانكليزية .
استمر هذا الوضع أجلاً معيناً حتى بعد استقلال البلد ، إلى أن
شرعت الحكومة العسكرية ، التي كانت قد استولت على السلطة
سنة ١٩٦٩ ، بتخطيط لسانيّ . القرار الأول : يمكن للغة القومية أن
تكون مكتوبة بالأبجدية اللاتينية : القرار الثاني : تُكَلَّف لجنة لغوية
بوضع أو حتى بترجمة كتب لا بد منها في محو الأمية . واعتباراً من
عام ١٩٧٢ ، كان السكان المدينيون والموظفون في طليعة
المتعلمين . ثم شنت الحكومة سنة ١٩٧٣ حملة واسعة لإنماء
المجتمع الريفي . وبين شهر آب (أغسطس) ١٩٧٤ وشهر شباط
(فبراير) ١٩٧٥ ، جرى إرسال ١٥٠٠٠ تلميذ وطالب ، و ١٠,٠٠٠
مدرّس وموظف وممرض وطبيب بيطري ، لمحو الأمية لدى البدو
والمزارعين . وفي نهاية الحملة لم يبق سوى ١٠٪ من الأميين . كُف
ذلك ما يعادل ١٥٥ مليون فرنك فرنسي . وكان ذلك يمثل مجهوداً
كبيراً بالنسبة إلى بلد صغير (٣,٥ ملايين نسمة) . فقير ، ازداد
فقراً سنة ١٩٧٤ بسبب الجفاف الذي كان قد دمر كلياً ٢٥٠,٠٠٠
فلاح صومالي ، وألحق أضراراً بالبلد بلغت ٧٥٠ مليون فرنك
فرنسي . صحيح أن التقعيد النحوي ، والسياسة المعجمية وقولبة
الصومالية ، لم تكتمل اليوم ، لكن الصومالية باتت تؤدي وظائف
اللغة المشتركة المحكية والمكتوبة من طرف الأغلبية ، وهذه بالذات
هي الوظائف الأولى التي ينبغي أن تقوم بها لغة قومية .

إن نتيجة السياسات والتخطيطات التي عانتها العربية ،
العالمية ، السواحلية أو الصومالية ، تجعلنا ندرك إن المواقف
اللغوية والتاريخ الحديث أو البعيد الذي ترتبط به هذه المواقف ، لا
تشكل وحدها نجاح مشاريع كهذه أو فشلها . فهي ، مهما بلغت
أهميتها في بعض الحالات ، ما هي إلا مقومات من بين تلك المقومات
التي توجب على المخططين أن يحيطوا بها في الأوضاع اللسانية
الاجتماعية الموروثة عن الاستعمار .

التخطيط اللساني : تفاعل عدة عوامل

١٧/٧ - التخطيط اللساني

والمقومات الاقتصادية

في الواقع ، أن عدد العوامل التي يُحسب حسابها في تخطيط
لساني ، كبيرٌ لدرجة أن المخططين أنفسهم لا يمكنهم أن يتوخَّوا
ضبطها كلها ، ولا حتى معرفتها جميعها ، أو أيضاً تقويم كل من
العوامل التي يعرفونها ، بدقة . هذا ما يستخلصه الباحثون أنفسهم
حين يحدِّدون التخطيط اللساني بوصفه محاولة لـ ... ، مجموعة
جهود ترمي إلى....

للهمة الأولى ، يمكن للشروط الاقتصادية المقابلة لتخطيط
ما ، أن تظهر عاملاً أساسياً ، لكنها في الواقع لم تعد تشكل وحدها
نجاح أو فشل التخطيط المباشر به . ففي أيرلندا ، ليست الشروط
الاقتصادية هي العقبة الكبرى بالنسبة إلى مسؤولي التخطيط
اللساني ، لأن الحكومة تمنحهم موارد بشرية ومالية لا يمكن
إنكارها . زد على ذلك أن قوة المشاعر القومية تشترط موقفاً لغوياً
مواتياً جداً للإيرلندية ، سواء لدى أولئك الذين يتكلمونها أم لدى

أولئك الذين ما عادوا يتكلمونها . لكن كل سكان ايرلندا كانوا يتكلمون الانكليزية سنة ١٩٦١ ، بينما كان ٢٧٪ من هؤلاء السكان فقط يواصلون إجراء ٥٪ على الأكثر من التخاطب اليومي بالايرلندية . إن نصف الفشل الزامن الذي مني به التخطيط اللساني الايرلندي هو ثمرة عدة قرون من الاحتلال الانكليزي . وهو بوجه خاص يعود إلى كون إبدال الإيرلندية من الانكليزية كان قد أمسى في طريق الاكتمال عندما بدأ التخطيط اللساني .

في المقابل شنت كويا بنجاح سنة ١٩٦١ حملة وطنية لمحو الأمية ، وبدأت حملتها لتجويد المهارة العمالية والفلاحية ، بينما كان البلد يواجه حصاراً اقتصادياً شبه كامل ، كما تكاثرت أعمال التخريب الاقتصادي داخل الجزيرة . وكان البنزين والوقود مفقودين ، الأمر الذي لا يسهل ، بكل وضوح ، تنقلات وأعمال القائمين بمحو الأمية والمعلمين .

١٨/٧ - التخطيط اللساني والمقومات الفكرية

يمكن ان التعويض عن الشروط الاقتصادية غير المواتية بادخال مثيرات وبواقع فكرية (ايدولوجية) قوية . ففي كل السياسات اللسانية ، حتى في تلك التي تجعل من عدم التدخل نهجها القيادي ، وفي كل التخطيطات اللسانية ، من الترويج الى تركيا ، او من أندونيسيا إلى كويا ، مروراً بالمغرب ، كان العامل الفكري ثابتاً من القوابت البيئية .

بالطبع . يمكن للعلاقة بين الفكرية والتخطيط اللساني أن تنقل علاقة ضمنية الى هذا الحد أو ذاك ، لكنها تغدو بوجه خاص مفيدة للنظر والدرس عندما تصبح علنية ، صريحة .

١٩/٧ - المثال الفيليبيني

من هذه الزاوية ، التخطيط اللساني في الفيليبين خير مثال يُضرب. فالفيليبين هي ٧٠٠٠ جزيرة وعدد سكانها ٢٧ مليون نسمة (سنة ١٩٧١) . وهي أيضاً عبارة عن اربعة قرون من الاستيطان الاستعماري الاسباني ، وسنة من الجمهورية المستقلة ، ثم هيمنة الولايات المتحدة اعتباراً من العام ١٩٠٠ . وهي اخيراً ثمانون إلى ١٥٠ لغة مختلفة ، حسب شتى التقديرات ، وتخطيط لساني على شاكلة هذه الوقائع السالفة والحاضرة .

إن القومية الفيليبينية الأولى هي قومية نخبة محلية مناسبة ، جعلت من الاسبانية اللغة القومية لجمهورية ١٨٩٨ العابرة ، واعلنت حرية تعليم اللغات المحلية ، ومنذ ١٩٠٠ ، فرضت الولايات المتحدة الانكليزية في التعليم الوطني ، بينما اللغات المحلية لم تحظ البتة بأي مركز رسمي . بعد ١٩٢٤ ، تغيرت موازين القوى والتيارات الفكرية داخل الحركة القومية الفيليبينية ، لدرجة أنه صار يُقترح فيها عندئذٍ ، بهاجس الاتحاد الوطني ، وضع لغة محلية مشتركة قوامها عاميات التاغالوغ (Tagalog) المحكية في شمال الأرخيبيل . ومنذ ١٩٤٠ ، باتت الفيليبينو (Philipino) كافية الإرضان للبدء بتعليمها ، وأُعترف بوجودها الرسمي سنة ١٩٤٦ .

لكن في خلال ذلك ، توافق الغزو والاحتلال اليابانيان ، ثم استرجاع الولايات المتحدة للفيليبين ، واخيراً توافق الاستقلال النظري الممنوح بعد ذلك للبلد ، مع كثير من التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي حالت دون بقاء الفكرية القومية موحدة لدى الفيليبينيين ، ومنذ ذلك الحين وضع على المشرحة تفوق الإقليمية التاغالوغية وما تمثل ، بشكل منهجي منتظم . إن اسم هذه اللغة القومية بالذات ، المثلل جداً بمفاهيم متعلقة بهذه الإقليمية ، قد

جرى تغييره وتحويله من (filipino) إلى (pilipino) . غير أن تعليم الفلبينيين لم يوضع بعد على المشرحة مباشرة . يستخلص من احصاء أجري عام ١٩٧١ ، أن اللغة القومية يتكلمها من الآن فصاعداً أكثر من ٦٠٪ من السكان . وفي سنة ١٩٧٢ ، لم يبق في الواقع للقومية الفلبينية أي شيء موحد . فهناك فريق من الطبقة القائدة يرفض حق فريق آخر : الفريق الذي يدافع عن اللغة القومية الفلبينية ، والذي يمثل بين أمور أخرى الإقليمية التاغالوغية ، يرفض حقّه في فرض نموذجه وعاداته اللغوية على البلاد قاطبة . إن الميثاق الدستوري الجديد ، على الرغم من النتائج الأولى لأربعين سنة من التخطيط اللساني ، يعترف بالفلبينيو كلغة قومية . ولم يعد ثمة سوى ثلاث لغات رسمية في الفلبين ، الانكليزية والإسبانية والعربية ، بانتظار قيام لغة قومية جديدة أن يتعين عليها أن تؤسس على لغة واحدة أو على طائفة واحدة من اللغات المحلية .

V/٢٠ - الفكرية والتخطيط اللساني في الاتحاد السوفياتي

غالباً ما كانت في الاتحاد السوفياتي أيضاً ، العلاقات صريحة بين السياسة والتخطيطات اللغوية والفكرية ، فقبل ١٩١٧ بكثير ، كان الماركسيون يناقشون السياسة اللغوية ، وبالأخص ما من شأنه تحديد إختيار اللغات القومية في إطار الاشتراكية ، وبالتالي بعد استلام الحكم . كان لينين يتفكر في هذه المسائل منذ ١٩١٣ . وكان من شأن ضرورة العوامل الاقتصادية ذاتها أن تحدد أية لغة يمكن للأكثرية في بلد معين أن تتعلمها بفائدة وجدوى ، وفي مصالح التجارة بالذات . كانت هذه الطريقة في الاختيار هي الأضمن ، وكان الأهالي يمكنهم أن يتقبسوها بطيبة خاطر وبسرعة وبسعة متناسبة مع مقدار الممارسة لديمقراطية أوسع وأفضل (18 septembre)

وعلى المدى الأطول ، كان من شأن ظهور دولة إشتراكية عالمية أن يزيد من سرعة تبني لغة مشتركة ، هي أيضاً عالمية . ولكن في انتظار ذلك ، سيكون ميراث سياسة الروسية اللغوية ، التي كانت سياسة القياصرة ، عبئاً ثقيلاً على ديمقراطية محتملة تعقب الامبراطورية . لقد كان لينين معارضاً لتبني الروسية كلغة رسمية للدولة (6 décembre 1913, Sochinenia, XVII, 89) .

بعد ١٩١٧ ، واصلت السياسة اللغوية عكس المناقشات النظرية . فكان كل من يقترح تبني لغة مشتركة في الاتحاد السوفياتي يرى نفسه موسوماً بوصمة التحريفية الشوفينية الروسية العظمى . وكان ذلك هو عصر تكوّن البنى الدولانية الخاصة بالمتحدرات الثقافية ، اللغوية ، أو الإثنية التي كانت القيصرية قد حاولت سحقها . كما كان عصر اللغات القومية بلا راموز مكتوب ، المزودة بتدوين قوامه الأبجدية اللاتينية . وكان لهذا الاختيار للأبجدية اللاتينية بالذات أساساً فكرياً ، لأن الكثيرين من منطري الثورة كانوا يعتقدون أنّ مركز الدولة السوفياتية العالمية المقبلة لا يمكنه أن يكون الاتحاد السوفياتي ، ولكنّه قد ينتقل إلى أوروبا الغربية . وربما يكون للغة المشتركة لهذه الدولة حظٌ ضئيل في أن تتأثر بالروسية ، وبالتالي فإن راموزها المكتوب قد لا يكون قائماً على الأبجدية الكيريلية (Cyrilique) . وإن اختيار الأبجدية اللاتينية منذ ذلك الحين للغات القومية بلا راموز مكتوب ، معناه بكيفية ما توفير مرحلة . وفوق ذلك ، كان لهذا الأمر الفضل في تجنب كل مخاطر الشوفينية الروسية العظمى .

ومع تطبيق نظرية جديدة ، نظرية Lebed ، الموسومة بـ « نظرية الصراع بين ثقافتين » ، اعتباراً من ١٩٢٣ ، تجدد ظهور تدريس الروسية في كل مدارس أوكرانيا ، بينما كانت

البروليتارية الحضرية وحدها تتكلم الروسية في هذه الجمهورية ، وكان الفلاحون يتكلمون اللغة الأوكرانية . وبعد ذلك ، سيقوم ستالين بتوجيه السياسة والتخطيط اللغويين في الاتحاد السوفياتي ، بإسم المناقشات الفكرية الجديدة والنظريات الجديدة ، وثقافة قومية من حيث الشكل ، لكنها إشتراكية في المضمون ، . إمكان أو عدم إمكان لغة مشتركة في الحقبة التي تلي مباشرة « انتصار الإشتراكية في بلد واحد » (mars 1929, Sochinenia, XI, 342-344) . وفي نهاية الثلاثينات (١٩٣٠) زوّدت اللغات التي كانت قد تلتقت بعد ١٩١٧ أول تدوين مؤسس على الابجدية اللاتينية ، بتدوين جديد قوامه هذه المرة الابجدية الكيريلية ، في ١٣ آذار (مارس) ١٩٢٨ ، قرّرت الحكومة السوفياتية ان تعليم الروسية سيضمحل وفقاً لنموذج واحد مدارس جميع جمهوريات الاتحاد . كما ان النقاش الذي حظي سنة ١٩٥٠ بأوفر التطبيقات على المساجلات الفكرية الكبرى ، والذي خاضه ستالين حول موضوع نظريات نيقولاس أمار (Nicolas I. Marr) ومدرسته اللغوية ، كان ايضاً قد أثير أخيراً ، والى حد كبير جداً ، من جزاء المسائل التطبيقية للتخطيط اللغوي (Good man, world lan- guage, p. 717-736) .

الأبحاث والتجارب اليوم

V/ ٢١ - ثوابت التجارب الماضية

لوضع نظرية خاصة بالسياسة اللغوية وبالأخص بالتخطيط اللساني ، كان من المناسب أولاً استخلاص الثوابت ، وكذلك استفراج العبر ، من التجارب المتراكمة حتى يومنا هذا .

ففي عداد المكونات المستقرة ، تُصنّف حالياً المراحل المختلفة التي تبني مجمل المسار التخطيطي اللغوي . وأولى المراحل هذه هي مرحلة اتخاذ السلطات الحكومية القرار السياسي بتخطيط إنماء لغة ما وكيفيات استعمالها ، واصطفاً اللغة ذاتها ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك . وفي أغلب الأحيان ، تظل هذه المرحلة الأولى بكاملها خارج ميدان اللساني ، في حين أنّ المراحل التالية ، تلك التي يجب أن تفضي إلى قولبة اللغة المُختارة ، تدخل في هذا المضمار . ومرحلة القوينة أو التقييد هي مرحلة وضع النماذج الصوتية ، القواعدية والمعجمية التي ستسمح باستقرار اللغة ، والتي ستمنحها على هذا الوجه إمكان القيام ، على أفضل نحو ، بما يسميه البعض وظيفتها المرجعية (Fonction de référence) ، ويكون للمتكلمين هواجس تصويبية يفترض التمكن من الرد عليها ، حتى تقبل اللغة بيسر وسهولة من قبل المتخذ بأسره . وفوق ذلك ، تستطيع القوينة وحدها أن تخلق الإطار المستقر الذي ستتعلق منه ، كما يقال ، ممارسة الإبداعية والصياغة الأدبية . وإذا كان يتعين

على القوينة (من ترميز وتقييد) أن تكفل للغة استقراراً مرناً كافياً للسماح لها بالتكيف مع تطورات ثقافية مقبلة ، فإن الإرضان (Elaboration) يتعين عليه من جهته أن يجعل اللغة متلائمة مع الحاجات الثقافية والعلمية والتكنولوجية القائمة.

والقوينة والإرضان مرحلة من تخطيط التدوين أو المدونات (Planification du corpus)، ذلك الذي تقع مسؤوليته على اللساني مباشرة . ولكن من الممكن أن تظهر دائماً في هذه المرحلة مصاعب وعقبات مردها إلى العادات والمواقف اللغوية للمتكلمين والمخططين انفسهم . وقد ترجع هذه المصاعب إلى تخطيط مراكز (Planification des statuts) اللغة .

٢٢/٧ - التوقع والمراقبة

إن دراسات مقارنة للكلفة المتوقعة والفوائد المرتقبة ، يمكنها أن تضح بشكل مفيد مرحلة تطبيق التخطيط ، تلك التي تتزود فيها السلطات الحكومية بالوسائل المادية لفرض قرارها والعتغيرات الطارئة على اللغة من جزاء القوينة والإرضان .

وحتى دون انتظار نهاية مرحلة التطبيق ، يتعين البدء ليس بتقويم النتائج الأولى وحسب ، بل أيضاً الطرق المستعملة بشكل خاص . ولا بد للتقويم من أن يكون فرصة دائمة للتصويب الذاتي والتكيف المتواصل للطرائق والمناهج ، على أساس الاختبار الجاري بالذات .

وإن معرفة اللغة من جانب مستعمليها ، والموقف الذي يتخذونه تجاهها ، والاستعمالات الواقعية التي يمارسونها ، هي كلها معايير لنجاح تخطيط ما أو فشله .

٢٣/٧ - المعيار، المعيار الفوقي وصف أم وصفة

بوجه عام ، يُعتبر الإشتراطُ الفكريُّ للتخطيط اللساني كأنه واحد من مكونات المسار الثابتة، لكنه يُقومُ بكيفيةٍ شديدة التنوع. فبعض اللسانيين الاجتماعيين لا يذهبون أبعد من موقف الاستنتاج المؤلم والمؤسف لهذا الإشتراط ، كما هو حال هذا الباحث الذي كان يرى سنة ١٩٧٢ ، وبعد دفاعه عن الفيليبينو ، كيف أن اقتراح المجلس الدستوري الفيليبيني كان يقضي على عمل أربعين سنة من التخطيط اللساني :

* The hand of politics seems to be ever present even in matters of language * (Bonifacio Sibayan, Philippines, pp.221 - 254).

وثمة آخرون جعلوا من هذا الإشتراط الفكري معياراً تصنيفياً لمختلف النماذج التخطيطية : فكلما قلل المخططون واللسانيون من ادخال العواطف والخصوصية والأحكام القيمة في النموذج ... ازداد النموذج الذي سيضعونه ، دقةً وعقلانيةً . إن من المناسب التخلُّص من كل ابتسار صوفي ومن كل حكم قيمي في موضوع اللغة . فاللغاتُ هي أدوات إبلاغية، وهي بهذه الصفة يمكنُ تقويمها علمياً بمقتضى فعاليتها التي تغدو ، منذئذٍ ، ملائمةً وحدها . إن اللغة الأفعال هي اللغة التي تسمح لها تراكيبيها بأن تبلغ أقصى النتائج بواسطة الحد الأدنى من الوسائل . كما يقول هؤلاء الذين يسمون أحياناً بالأدواتيين المعياريين الجدد . ويفتردون أن المهمة الأكثر إلحاحاً هي أولاً إزالة الأضرار التي تمكنت عدم أهلية نحويين مسبوقين من إلحاقها مثلاً بفعالية لغاتٍ مقولبة من ذي قبل ، وذلك بحفاظهم على أكثر البائدات ضرراً، مدفوعين بدوافع المحافظة المتزمتة والرومانسية القومية والطهرانية. وإذا كانت التباينات الأسلوبية مرجوةً تماماً ، فليس الأمر كذلك بالنسبة إلى التباينات

التركيبية من صرف ونحو : فلفة مثل الاستونية تلك ٧٠ دالاً متبايناً
وغير قابل للموقع إلا نادراً ، مقابل مدلول واحد هو « Génitif »
(توليدي) ، ستستلزم لاكتسابها وقتاً أطول ، وستعمل عيناً ذا كزياً
انقل . وعندما يواصل التعليم استعمال أصداد صوتية صار
مربودها الوظيفي معدوماً في اللغة ، فإنه لا يسير في اتجاه
الفعالية . ولطالما جرى تصور المعيار بوصفه قوينة اللغة الأدبية
وهذا ، وجرى فرض تعقيدات باللغة التشدد لدرجة أنها كانت تحرم
المتكلمين والمخططين من كل تدليل على إمكانات تطور اللغات ، كما
كان يؤكد فالتر تولي سنة ١٩٧٢ (Valter Tauli, Language planning, p.49-68).

من المؤكد أن البحث عن نظرية للتخطيط اللساني قد جددت
فتح السجلات التي لم تختتم أبداً بشكل نهائي ، والتي تتعكس فيها
وجهتا نظر الوصف والوصفة ، البحث الأساسي والبحث المطبق .
وعندما يتعلق الأمر بتغيير أو بنعجة منظومات صوتية ، قواعدية أو
معجمية ، فإن المخططين واللسانيين في أمم آسيا أو أفريقيا
الجديدة ، هم بحاجة إلى لسان توصيفية أكثر مما هم بحاجة إلى
لسان وصفية أو حتى تبشيرية ، وإذا كانت اللسان الحديثة لا تسلم
بهذا الأمر ، فإنها ستفشل ، كما أعلن في ماليزيا سنة ١٩٦٤ (Alis-
jahbana, Indonesia and Malaysia, p.391-416).

٩٠/٣٠٠٠/١١١٣

تضيد مطبعة دار الكتب - بنايه العازرية - شلوع سوريا
للون : ٣٧٠٠٧٣ - ٨١١٥٧١ - م.ب : ٩١٢٥٥٤ - بيروت - لبنان